مكة المكرمة
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدراسات العليا التاريخية والحضارية

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد مناقشة الطالب يوسف أحمد حواله في رسالته هذه المكونة من مجلدين أوصى أعضاء اللجنة بمنحه درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز، هذا وليس لأعضاء اللجنة أية اقتراحات بإجراء أية تعديلات على الرسالة.

أعضاء اللجنة

أحمد السيد دراج
١٤٠٦/٨/٧هـ

صالح
١٤٠٦/٨/٧

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠١٠٩٢

الحياة العلمية في إفريقية

"المغرب الأدنى"

منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري

"٩٠ / ٤٥٠هـ"

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي

إعداد

يوسف أحمد حواله

إشراف الأستاذ الدكتور

أحمد السيد دراج

١٠٠٢١٤٦

١٠٩٢

١٤٠٥ - ١٤٠٦هـ
١٩٨٥ - ١٩٨٦م

القسم الأول

دراسة لأهم مظاهر النشاط العلمي

في إفريقية

" المغرب الأدنى "

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله حمد الشاكرين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبة أجمعين .

وبعد : فمذ وضعتنى العناية الالهية الكريمة في طريق التخصص في التاريخ الأندلسي ، وذلك باختيارى :" دولة بنى عباد في اشبيلية - دراسة سياسية وحضارية " موضوعا لنيل درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي ، وأنا أرنو ببصرى الى الكتابة في الشق الآخر وهو التاريخ المغربي ،الذى يشكل مع التاريخ الأندلسي ، ذلك التخصص الدقيق من التاريخ الاسلامي ، وهو تاريخ المغرب والأندلس . ومن هنا وجدتنى أعمل الفكر فياختيار موضوع مناسب في تاريخ المغرب ، يكون هدفا للحصول على درجة الدكتوراة .

ولقد هداني البحث والتقصي الى اختيار الموضوع الآتي :
" الحياة العلمية في المغرب منذ اتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجرى ٩٠ - ٤٥٠هـ " . وفي الحق فإن أستاذى المشرف الاستاذ الدكتور/ أحمد السيد دراج كان يتلمس بحسه وتكوينه التاريخى الذى لا ينكر صعوبة ، بل تعذر استقامة الموضوع من الناحية المنهجية والتاريخية على النحو الذى رغبت فيه . ولكنه لم يجد أمام تحمسى البالغ بدا من الموافقة على ذلك .

بيدَ أنه وبعد استقراء معظم المصادر والمراجع المتعلقة بتاريخ المغرب - في الفترة الزمنية موضوع الرسالة - تبين لى أن البحث في حاجة الى تحديد يضمن له تحقيق الغاية المنشودة منه . فلقد اتضح لى أن المصادر والمراجع لا تُركِّز الا على المغرب الأدنى وعواصمه السياسية والعلمية ، باعتبار أن المغرب الأدني كان مركز النشاط السياسي والحضارى في عصر الولاة الامويين فالعباسيين ،

ثم في عصور الدول المستقلة : الأغالبة والفاطميين وبنى زيرى الصنهاجيين على التوالى ، علما بأن المغرب الأدني في العصر الاسلامي إنما يعنى لدى معظم الجغرافيين والمسلمين : افريقية ، وهى تشمل اليوم البلاد التونسية كلها ، وولاية طرابلس شرقا ، وغربا حتى بجاية في ولاية قسنطينة بالجزائر .

أما المغرب الأوسط ، فلم يكتب له أن يشهد نشاطا علميا الا بعد فترة من قيام دولة بنى حماد الصنهاجية (تأسست سنة ٣٩٥هـ) وحتى هذا النشاط العلمي كان محدود الأثر ، اذا ما قيس بالنشاط العلمي في المغرب الأدني أو افريقية أو تونس على عهد أبناء عمومتهم بنى زيرى . وأما الدولة الرستمية التى تأسست مبكرا في سنة ١٦١هـ ، وأتخذت مدينة تاهرت عاصمة لها ، فقد تمثل تأثيرها في النشاط المذهبى الاباضى فحسب، وهو أمر بعيد عن دراستى وتخصصي العلمي .

كما أن المغرب الأقصى لم يشهد استقرارا سياسيا وبالتالي نشاطا علميا يذكر في ظل دولة الادارسة التى قامت به سنة ١٧٢هـ . ذلك أن الادارسة انقسموا على أنفسهم بعد وفاة ادريس الثانى سنة ٢١٣هـ، ودخلوا بذلك في صراعات ضد بعضهم بعضا ، علاوة على خروج الزناتيين المتكرر عليهم ، الذين غلبت عليهم الهرطقات والبدع الدينية والفكر الخارجي على مذهب الصفرية . ولم يُقدَّر للمغرب الأقصى أن يشهد استقرارا سياسيا وبالتالى نهضة علمية الا بعد قيام دولة المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجرى ، ومن بعدهم دولة الموحدين ، فجامع القرويين -، مركز النشاط العلمى هناك-، الذى تأسس عام ٢٤٥هـ ، لم يضطلع والمغرب الأقصى عموما

بدوره العلمي الريادى في بلاد المغرب الا في عصر المرابطين فالموحدين . وكان ذلك بداية للمكانة العلمية التى تبوأها المغرب الأقصى حتى اليوم .

أما دولة بنى اليسع أو بنى المدرار الخارجية الصفرية والتى كانت عاصمتها مدينة سجلماسة بالمغرب الأقصى ، فإنه يصدق عليها ما يصدق على دولة بنى رستم الاباضية فكلتاهما تمثل تأثيرهما العلمى في النشاط المذهبى الخارجي وحده ، وفضلا عن هذا وذاك فقد كان المغرب الأقصى مسرحا للصراع بين الأمويين في الأندلس وبين القوى المحلية بالمغرب الاقصى ، فقد كانت السيادة فيه تتأرجح بين الجانبين . وعندما قامت الدولة الفاطمية في افريقية عام ٢٩٦هـ ، استمر ذلك الصراع : دون أن يقدر للمغرب الأقصى أن تظهر شخصيته المستقلة التى تهيء المناخ الصالح للحياة العلمية وغيرها .

واذ تمثلت هذه الحقائق أمامي ، فقد تقدمت مزودا بموافقة أستاذى المشرف الى مجلس الدراسات العليا التاريخية والحضارية بطلب الموافقة على تحديد موضوع الرسالة لتقتصر على المغرب الأدنى . وجاءت الموافقة الكريمة ليصبح الموضوع بعد التحديد :" الحياة العلمية في افريقية - المغرب الأدنى - منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجرى ٩٠ - ٤٥٠هـ ".

ولقد جاء اختيارى للحياة العلمية في افريقية - المغرب الادني - في الفترة الزمنية مدار الاهتمام موضوعا لرسالة الدكتوراة ، نابعا من الأحساس بأهمية التاريخ لهذا الجانب الحضارى للأمم . فغير خاف أن النشاط العلمي هو من اكثر جوانب النشاط الانساني اشراقا وتألقا . هذا شيء ، والشيء

الثانى ، هو أن التاريخ للحياة العلمية في افريقية لم ينل حقه من البحث والدراسة الكافيتين . فمن المعلوم أن المؤرخين القدامي لم يعنوا إلاَّ بالتاريخ السياسي والعسكرى للدول والمدن والأسرات الحاكمة ، وحده تقريبا . وبالطبع فإن هذا لا يمنع أن ترد مادة علمية عن التاريخ الحضارى ، ومن بينها تاريخ العلوم في ثنايا كتاباتهم لكنها كانت ترد عرضا ودونما استقراء تحليلى تاريخى يهدف الى إبراز ذلك الجانب بالصورة التى نبحث عنها اليوم. وهذا ينطبق أيضا على كتب التراجم والطبقات - ولكن مع الفارق بالطبع -، فعلى الرغم من النصوص ذات الأهمية البالغة للحياة العلمية التى تحتويها كتب التراجم والطبقات تلك إلاَّ أننا عبثا نحاول أن نجد فيها - وهو منهج مألوف آنذاك -، استقراءً ، تاريخيا يعتمد المنهجية العلمية في التحليل والتعليل والاستنتاج والاستنباط .

أما الشيء الثالث الذى دفعنى الى اختيار موضوع الحياة العلمية في افريقية خلال تلك الفترة فهو الشعور بأن الاهتمام بالتأريخ لحركة العلوم والمعارف لم ينل حقه من البحث والدراسة من قبل الباحثين المحدثين ، سواءا فيما يتعلق بالدراسات المتخصصة أو حركة التأليف والرصد العادية . فهناك كثير من جوانب النشاط العلمي مازالت بحاجة الى البحث والدراسة. وفي الحق فإن التأريخ للعلوم والمعارف لم يكن وحده الذى لم ينل حقه من البحث والدراسة الكافيتين من قبل المحدثين وخاصة المغاربة ، بل إن مجمل الدراسات المغربية بشقيها التاريخى والحضارى كانت كذلك ، بعكس الدراسات الاندلسية التى نالت حظا عظيما من البحث والدراسة . وكان الاهتمام بها أسبق دون ريب من الدراسات المغربية التى لم يبدأ الاهتمام بها بصورة واسعة إلاّ متأخرا أى منذ ما ينيف على ربع قرن .

لكن الملاحظ أن الباحثين المحدثين من المغاربة ، والتونسيين منهم على وجه الخصوص، قد انصرف اهتمامهم الى بعض جوانب من الدراسات المغربية ، فأوسعوها بحثا ودراسة، في حين بقيت جوانب مهمة بعيدة عن ذلك الاهتمام . ففيما يتصل بالدراسات التى تخص افريقية ، وجدنا اهتماما كبيرا بالدراسات التاريخية . فلقد كتب الكثيرون منهم مؤلفات جمة بمنهجية علمية رصينه ، أفدنا منها دون شك، كما يتضح في تضاعيف الرسالة . وأَسْهَمَ بعض الباحثين المشارقة في التأليف في هذا الجانب بمؤلفات قيمة، استفدنا منها هي الأخرى.

وبجانب ذلك وجدنا اهتماما ببعض مظاهر النشاط الحضارى ، كالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والادارية والعمرانية . فقد ألف الباحثون التونسيون عددا من المؤلفات القيمة ، وشارك بعض الباحثين المشارقة في ذلك . وهى مؤلفات قيمة استفدنا منها كثيرا في ثنايا الرسالة .

غير أن النشاط العلمى لم يحظ إلاَّ بقدر ضئيل من الاهتمام . وحتى ذلك القدر كان مكرَّسا لجانب واحد من جوانب النشاط العلمى ، أعنى بذلك النشاط الأدبي . فلقد حظى النشاط الأدبى بقدر وافر من الاهتمام من قبل التونسيين وبعض المشارقة ، وظهرت بالتالى مؤلفات علمية جيدة ، نذكر منها على سبيل المثال الكتاب الذى كتبه الشاذلى النيفر بعنوان : عنوان الأريب عما ظهر في المملكة التونسية من عالم وأديب ، والكتابان اللذان كتبهما ابو القاسم كرو وعبد الله شريط : شخصيات أدبية من المشرق والمغرب ، وعصر القيروان . وكتب محمد العروسي المطوى : سيرة القيروان - رسالتها الدينية والثقافية في المغرب الاسلامي - وكتب حسن حسنى عبد الوهاب : منتخبات من الأدب التونسى ، كما احتوت موسوعته : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية على قدر كبير من الحديث عن الحياة

والحركة الادبية في افريقية ، وكذلك احتوى كتابه : بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق على معلومات وفيرة عن الحركة الأدبية . . الخ . وقد كتب بعض من الباحثين المشارقة عددا من المؤلفات الادبية ، فكتب محمد عبد المنعم خفاجي : قصة الأدب في ليبيا ، وكتب محمد طه الحاجري: دراسات وصور من الحياة الادبيه في المغرب العربي ، وكتب ابراهيم الدسوقي جاد الرب : شعر المغرب حتى خلافة المعز ، وكتب عبده عبد العزيز قلقيلة : النقد الأدبي في المغرب العربي . . الخ .

وكتب بعض آخر من التونسيين سلسلة من المؤلفات اتخذت من بعض الشخصيات الأدبية موضوعا لها . فكتب محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصرى القيرواني . وكتب عبد الجبار الشريف وعلى دب كتابا عن ابراهيم الحصرى صاحب زهر الآداب وثمر الألباب ، وكتب المنجى الكعبي كتابين : النهشلى القيرواني والقزاز القيرواني . وكتب الهادى مصطفى التوزرى كتابا عن الأديب الافريقى عبد الله الشقراطسي بعنوان : أعلام الافارقة (عبد الله الشقراطسي) . . الخ . ومن الباحثين المشارقة كتب عبد الرحمن ياغى : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، وكتب عبد الرؤوف مخلوف : ابن رشيق ونقد الشعر ، وبالاضافة الى هذه المؤلفات ، هناك العديد من البحوث والمقالات الأدبية في المجلات العلمية التونسية وغيرها .

وهذه المؤلفات التى اشرنا اليها ، وكذلك البحوث والمقالات المختلفة التى رجعنا اليها والتى اثبتناها في قائمة المصادر والمراجع على الرغم من قيمتها العلمية التى لا تنكر ، والتى

أباحت لنا الأخذ عنها حتى الاغتراف ، تقتصر أهميتها على الحياة الأدبية أولا ، وعلى ابراز جوانب الحياة الأدبية في القيروان وحدها ثانيا تقريبا .

وعلى الرغم من أن التأريخ للحياة الأدبية يحتل حيزا مهما وجليلا من رسالتنا ، إلاَّ أنه ليس إلاَّ جانبا أو حقلا من حقول الحياة العملية كما هو معروف . هذا مع الأخذ في الاعتبار أن الدراسات المتخصصة الاكاديمية تختلف اختلافا بيّنا عن المؤلفات العادية ، رغم أخذها بالمنهج العلمي . فبالنسبة لنا نحن هنا ، فإن تَناوُلِنا للحركة الأدبية يندرج داخل الاطار العام للحياة العلمية بافريقية خلال الفترة موضوع الاهتمام . ذلك الاطار الذى يستهدف التأريخ للحياة العلمية وملاحظة خطواتها في تقدمها أو تعثرها ، والظروف المحيطة المؤثرة فيها ، وما يجرُّ ذلك الى اكتشاف غَلَبَةِ جانب من جوانب الحياة العلمية على جانب والاسباب الموضوعية لذلك بتقصي وتحليل علمي يأخذ في اعتباره ظروف الزمان والمكان والشخوص والأنظمة السياسية .. الخ . دون الغوص في تفاصيل الحركة الادبية ذاتها . وبد هي أن ما ينطبق على الحركة الادبية ينطبق على حركة بقية العلوم الاخرى .

واذا كنا محظوظين تجاه ذلك القيض من المعلومات التي تحمله لنا تلك المؤلفات ، والتى أنارت لنا السبيل في الحديث عن الحركة الأدبية خلال الفترة موضع الاهتمام ، فإننا نستغرب بدهشة ممزوجة بالأسى ألا تنال الدراسات الشرعية أوحركة العلوم الشرعية حقها من التنويه والاشارة ، ولا سيما وهى المظهر الرئيسى للنشاط العلمي في افريقية وقتذاك . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كيف لا تلقى الدراسات الشرعية العناية المطلوبة ، وهى التى لا تقل أبدا ازدهارا كما ونوعا عن مثيلاتها في بقية الامصار الاسلامية الأخرى . ففي الحقيقة

أننا نفتقر الى مؤلفات حديثة تتناول بالتحليل والتقصي حركة تطور العلوم الشرعية وانتشارها في افريقية ـ المغرب الأدنى ـ آنذاك ، وتتحسّس الأسباب الموضوعية التى أدت الى أن تحتل الدراسات الشرعية تلك المكانة البارزة من النشاط العلمي . نعم نستدرك فنقول بأن كتب التراجم والطبقات التى ألفها المغاربة وخاصة الافريقيين قد ألقت الضوء على نشاط حركة العلوم الشرعية ، ولربما وجد الباحثون في ذلك الكفاية. لكن تلك المؤلفات في الحقيقة كانت تقدم لنا المادة العلمية الغزيرة دونما بحث وتعمق في الظروف والملابسات والأسباب المؤثرة والمتأثرة . . الخ . ونستدرك ثانية فنقول بأن ثمة مؤلفات عالجت بعض جوانب الدراسات الشرعية ، مثل كتاب: المدرسة القرآنية في المغرب لمحمد عبد السلام الكنونى ، ومثل كتاب : الامام المازرى لحسن حسنى عبد الوهاب ، وكتاب: التفسير ورجاله لمحمد الفاضل بن عاشور ، وغير ذلك من المؤلفات التى لم يقدر لنا الاطّلاع عليها . ولكن هذا أوذاك ليس كافيا الى الحد الذى يوضح طبيعية تلك الدراسات التى كانت دون ريب أهم مظهر علمى بالنسبة للحياة العلمية كما أسلفنا .

وصفوة القول أنه تراءى لى أن كثيرا من جوانب الحياة العلمية الافريقية بحاجة الى ايضاحها والكشف عن مكنوناتها . ومن هنا فقد تصديت لدراسة الحياة العلمية بكل أوجهها في افريقية ـ المغرب الأدنى ـ منذ اتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ولعلي أحسب بأن هذا الموضوع بشكله الذى قصدته لم يكن موضوع دراسة أكاديمية متخصصة من قبل . نعم هناك رسائل علمية ـ حسبما هدانا اليه جهد التقصي ـ ، قد تناولت بعض جوانب الحياة العلمية في افريقية في الفترة الزمنية موضع الاهتمام مثل رسالة الدكتوراة التى أعدها الاستاذ

المصرى محمد محمد شيتا زيتون بعنوان : الحياة الفكرية في القيروان منذ نشأتها حتى رحيل الفاطميين الى مصر ٣٦٢ هـ . غير أن هذه الرسالة التى ماتزال مخطوطة لم تنشر، لم يتح لنا الاطلاع عليها ، ومن جهة ثانية فهي كما يبدو من عنوانها تؤرخ للحياة الفكرية في القيروان فقط حتى نهاية العصر الفاطمي .

كما أن الأستاذ السيد محمد أبو العزم داود أعد رسالته للدكتوراه عن : الأثر السياسى والحضارى للمالكية في شمال افريقيا حتى قيام دولة المرابطين . وهى رسالة جيدة نشرت حديثا ، لكن الواضح أن الصراع السياسى بين المذهب المالكي والمذاهب الكلامية ، والدينية السياسية قد استحوذ على جل صفحات الرسالة ، علاوة على مداها الجغرافي الذى شمل المغرب كله .

وأعد الباحث التونسي الشاذلي بويحى رسالة علمية بعنوان : الحياة الأدبية في افريقية في عهد بنى زيرى ٣٦٢ - ٥٥٥/ ٩٧٢ - ١١٠٠م للحصول على درجة الدكتوراة في الأدب . وقد طبعت في تونس باللغة الفرنسية عام ١٩٧٢م .

غير أن هذه الرسالة كما يدل عنوانها تتحدث عن الأدب والقضايا الأدبية في افريقية آنذاك من منظور أدبي صرف ، فضلا عن اقتصارها على العصر الزيرى وحده .

كما أعد الباحث الليبى صالح مصطفي مفتاح رسالة بعنوان : برقة وطرابلس من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر ، وذلك للحصول على درجة الماجستير في التاريخ من كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٦٣م. غير أن هذه الرسالة وهى عبارة عن دراسة سياسية وحضارية تقتصر على ليبيا وحدها .

هذه الرسائل العلمية التى أفدنا من بعضها تناولت كما يتضح من عناوينها بعض جوانب الحياة العلمية وليس كلها ، كما أنها اقتصرت في البعض منها على منطقة أو عصر من العصور التى تصدينا لها .

بقي أن نشير الى أن السبب الذى حدا بنا الى اختيار الاطار الزمنى للرسالة على النحو الذى حددناه آنفا كان منسجما علميا وتاريخيا مع ذلك الاطار . اذ لا يخفى أن الحياة العلمية آنذاك تمشت في تدرج طبيعى حتى وصلت ذروة تقدمها في منتصف القرن الخامس الهجرى في كثير من جوانبها المتعددة . أما بعد منتصف القرن الخامس الهجرى فقد توقف النشاط العلمي مؤقتا على إثر غزوات بنى هلال ، ودخلت افريقية مرحلة التفتت والضعف ، وظهرت دويلات الطوائف فيها حتى أذن الله للبلاد أن تستعيد مجدها العلمى بعد ذلك بقيام الدولة الحفصية .

وفيما يتصل بخطة البحث فقد بدا لى أن تتكون من تمهيد ، ثم قسمين . أما التمهيد فقد رأيت اقتضاءا للسياق المنهجي أن يكون من فقرتين الأولى بعنوان : مدلول لفظ افريقية (المغرب الأدنى) جغرافيا وتاريخيا لما لذلك من أهمية في تحديد الاطار الجغرافي الذى نشأت على أديمه الحياة العلمية التى أؤرخ لها .

والنقطة الثانية من التمهيد بعنوان : عرض موجز للأحوال السياسية في افريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، وهو اطار مهم يبحث عن مقدار تأثير الاوضاع السياسية في مسيرة الحياة العلمية سلبا وايجابا .

ولقد دعتنا طبيعة الحياة العلمية ومسيرتها في

افريقية آنذاك الى أن نجعل الحديث عنها ينقسم الى قسمين : قسم أطلقنا عليه عنوان : دراسة لأهم مظاهر النشاط العلمي في افريقية ، والقسم الثاني بعنوان : النشاط العلمي في افريقيه

أما القسم الأول فقد جهدنا أن نتتبع فيه المسببات التي هيأت المناخ الصالح للتقدم العلمي ، وكذلك البحث في الوسائل التي ازدهرت وتقدمت الحياة العلمية بها ومعها في افريقية . وهكذا فقد آثرنا أن يكون هذا القسم من ثلاثة فصول : الفصل الأول وعنونّاه بالعنوان الآتي : عوامل ازدهار الحياة العلمية في افريقية. ولقد تحدثنا فيه عبر نقاطه الأربع عن الخاصية العلمية للفتح الاسلامي ، ثم جهود الفاتحين والولاة في نشر الاسلام والثقافة الاسلامية في افريقية ، فالرحلات العلمية وأثرها في تقدم العلوم ، وأخيرا أثر قيام الدول المستقلة في النشاط العلمي .

واخترنا للفصل الثاني عنوانا هو: المراكز العلمية الرئيسية في افريقية . وقد تعرضنا من خلاله للدور الذى اسهمت به بعض المدن والاقاليم الرئيسية في الازدهار العلمي مثل : القيروان ورقادة ، والمهدية ، وتونس ، واقليم الجريد ، ثم اقليم طرابلس ، وغير ذلك من المدن العلمية الأخرى .

ولما كانت كثير من الجهود العلمية في افريقية في الفترة موضع الاهتمام قد نشطت عبر قنوات علمية مهمة ، فقد آثرنا تلك القنوات بالفصل الثالث واخترنا عنوانه هكذا : وسائط الثقافة في افريقية . ولقد قصدنا بالوسائط : المساجد ، والكتاتيب ، والرباطات ، والمكتبات العامة والخاصة وهي وسائط فعالة نشطه ذات أثر مباشر في تقدم الحياة العلمية كما هو معروف .

١٠٩٢

أما القسم الثاني الذى خصصناه للحديث عن النشاط العلمي في افريقية فيتناول بالدراسة : الدراسات الشرعية ، والأدبية والانسانية ، والطبيعية في افريقية وقتذاك .

ولما كان قد تكشّف لنا بجلاء أن الدراسات الشرعية هي جوهر الحياة العلمية في افريقية في الفترة الزمنية موضع الاهتمام فقد دعانا ذلك الى أن تستغرق هذه الدراسات ثلاثة فصول من هذا القسم .

الفصل الأول وقد خصص للحديث عن انتشار المذهب المالكي في افريقية ومكانته بها وهو فصل مهم يوضح الدور الذى أسداه المذهب المالكى لحركة الدراسات الشرعية في افريقية . وقد تناولنا الحديث فيه عن نشأة المذهب المالكى نفسه من الوجهة التاريخية والفقهية ، ثم حالة الدراسات الشرعية في افريقية قبل دخول المذهب المالكي ، ثم انتشار المذهب المالكى في المغرب الأدنى : أدواره ، وأسبابه ، ثم المكانة التى احتلها المذهب المالكي في قلوب وعقول وأفكار الافريقيين ، وأخيرا اقتضانا المنهج الموضوعى أن نلم بأوضاع بقية المذاهب الفقهية الأخرى في افريقية لما لذلك من ارتباط وثيق بحركة تطور الدراسات الشرعية .

والفصل الثاني من الدراسات الشرعية افردناه برمّته للحديث عن العلوم الشرعية : الفقه والحديث وعلوم القرآن ، وقد سرنا في هذا الفصل وفق اتجاهين اثنين . اتجاه يرمي الى ابراز العلوم الشرعية في تدرج زمنى يأخذ في اعتباره واقعها الكمي والنوعى في ظل العصور السياسية الأربعة التى تعاقبت على حكم افريقية ، وهى عصر الولاة ، وعصر الاغالبة ، وعصر الفاطميين ، ثم العصر الزيرى .

والاتجاه الآخر يسعى الى ابراز دور بقية مدن واقاليم افريقية في تلك العلوم الشرعية خلال العصور السياسية آنفة الذكر .

أما الفصل الثالثفي هذه الدراسات الشرعية فقد عالجنا فيه موضوعا علميا شائقا كما نحسب ، وهو القاء الضوء على ما اكتسبته الحياة العلمية من فوائد لذلك الصراع المذهبى الذى هبت رياحه بين المالكية والمذاهب الكلامية كالمعتزلة والمرجئة وغيرهم من جهة ، والمذاهب الدينية السياسية ؛ الخوارج والشيعة من جهة أخرى . وهكذا فقد كان عنوان هذا لفصل الثالث : الأثر العلمى للصراع المذهبي في افريقية .

وتلى الدراسات الشرعية،الدراسات الأدبية ، وقد حظيت بالفصل الرابع . ولقد جاء حديثنا عن مفرداتها : النثر ، والشعر واللغة والنحو منسجما وما ذهبنا اليه في الدراسات الشرعية من حيث التدرج الزمنى الكمى والنوعى من ناحية ، ومن حيث ابراز دور بقية مدن واقاليم افريقية الأدبى من ناحية أخرى .

واستأثرنا الدراسات الانسانية : الجغرافيا ، والفلسفة والتاريخ بالفصل الخامس . وقد سرنا خلاله في نفس الاتجاهين السابقين في الدراسات الشرعية والأدبية .

وأخيرا يتناول الفصل السادس الدراسات الطبيعية بشقيها : الطب والصيدلة ، والفلك والرياضيات على ذات النسق الذى سرنا عليه فيما سلف من مظاهر الحياة العلمية الافريقية.

وبعد هذا العرض لقسمي الرسالة - والتمهيد من قبل - وفصول كل قسم يجدر بنا أن نلفت نظر القارىء الى أن طبيعة

هذه الدراسات المختلفة في الفترة الزمنية موضوع الرسالة هي التي حددت لنا هذا التقسيم الذى يتمشى مع قواعد البحث العلمي . كما أن مما يتعين أن نُفْصِحَ به للقارئ هو أن هناك تفاوتا من حيث الحجم في معالجة هذه الدراسات المختلفة في الفصول التى خصصناها لها . ولقد جاء ذلك التفاوت نتيجة لمرتكزات وحقائق تاريخية وسياسية واجتماعية شرحنا أبعادها في ثنايا الرسالة .

وهكذا جاءت الدراسات الشرعية - وهى جوهر الحياة العلمية كما قلنا -، ثم الدراسات الأدبية لتطغيا على معظم صفحات الرسالة، في حين لم تحظ الدراسات الانسانية والدراسات الطبيعية الا بكم ضئيل من الصفحات .

وأخيرا ختمنا الرسالة بخاتمة وضَّحنا من خلالها أهم النتائج التى استخلصناها من متابعتنا لمسيرة الحياة العلمية في افريقية في الفترة موضع الاهتمام .

دراسة نقدية لأهم المصادر والمراجع والدوريات

لعل من المألوف والدراسة تتعلق بالحياة العلمية أن يكون اعتمادنا على كتب التراجم والطبقات بالدرجة الأولى ، ثم على الكتب التي تؤرخ للحياة الحضارية بافريقية ، ومن بينها الحياة العلمية بالدرجة الثانية ، ثم الكتب التي تعالج القضايا السياسية وغيرها من القضايا بالدرجة الثالثة . هذا بالاضافة الى الدوريات التي تدور موضوعاتها حول تلك الجوانب المختلفة .

وحيث أن الدراسات الشرعية وهي جوهر الحياة العلمية كما نوّهنا من قبل ـ، فقد تعددت كُتب التراجم والطبقات لعلماء الفقه والحديث وعلوم القرآن، وهي بالمناسبة في معظمها كتب تراجم كتبها مؤرخون مغاربة . ومن حق الامانة أن نشير هنا الى أن كثيرا من مصادر التراجم والطبقات المغربية التي رجعنا اليها هي لمؤرخين افرقيين ، كما أن من المصادفات التاريخية أن يكون معظم أصحابها من الذين شاركوا في النهضة العلمية الافريقية التي نؤرخ لها ، وكانت أقوالهم وترجماتهم التي كتبوها محتوية على معلومات وتفاصيل غزيرة جاءت من معاصرتهم لاصحاب تلك التراجم .

وكيفما كان الأمر فإن من أهم كتب المصادر والتراجم لعلماء المالكية ، كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهّادهم ونسّاكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم لابي بكر عبد الله بن محمد المالكي (ت ٤٥٣هـ) .

وتأتي أهمية الكتاب من عدة زوايا ، منها احتواؤه على معلومات غزيرة عن حياة فقهاء وعباد افريقية المشهورين ومصنفاتهم

العلمية و مواقفهم المذهبية والسياسية وغيرها . ومما زاد في قيمة الكتاب أن صاحبه اعتمد على مصادر كتب طبقات افريقيه سبقته ككتاب أبي العرب التميمي : طبقات علماء افريقية ، وكتاب محمد بن حارث الخشني : طبقات علماء افريقية كذلك ، وغيرهما من الكتب التي لم تصل الينا اسماؤها . والكتاب فوق هذا يحتوى على معلومات غاية في الأهمية عن الصراع المذهبي بافريقية بين المالكية والمذاهب الكلاميه والدينية السياسية .

واضافة الى هذا فإن أهمية الكتاب تزداد قدرا في التحقيق التاريخى الدقيق الذى استفدنا منه ، والذى كتبه محققا جزئي الكتاب ، وهما حسين مؤنس والبشير البكوش . أما حسين مؤنس فقد حقق الجزء الأول من الرياض ونشره عام ١٩٥١م ، وأما البشير البكوش فقد عزم على تحقيق الجزء الثاني من رياض النفوس ونشره ، ولكنه رغب في أن يعيد تحقيق الجزء الأول ، الذى كان حققه حسين مؤنس ، زيادة في التحقيق والشرح كما يقول محمد العروسى المطوى في تصديره للجزء الأول . وهكذا فقد نشر الكتاب في ثلاثة اجزاء عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

والمهم أننا قد استفدنا من تحقيق الكتاب سواء في الجزء الذى حققه حسين مؤنس ، وقد بذل فيه جهدا تاريخيا قيما في تحليلاته ، أو في تحقيقات البشير البكوش ، وخاصة في الجزء الثاني .

وهناك مصدر ثان من كتب التراجم صاحبنا في صفحات واسعات من الرسالة ، وهو كتاب : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك للقاضى عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ) . وكتاب القاضي عياض على الرغم من أنه

يترجم لعلماء المالكية في الحجاز والعراق ومصر والمغرب والأندلس الأن تراجمه لعلماء المغرب الادنى ازدادت اهميتها ليس لاقتصارها على كتب التراجم الافريقية التي سبقته فحسب ، بل لاعتماده على نقولات مشرقية واندلسية بشأن علماء افريقيين خلت منها كتب التراجم السابقة. وفي الوقت نفسه كان القاضي عياض كثيرا ما يتدخل في تسلسل وقائع حياة العلماء ومواقفهم فيدلي بآراء جد قيمة اشرنا الى بعضها في تضاعيف البحث .

والمصدر الثالث الرئيسي في كتب التراجم والطبقات المغربية الذي أفدنا منه كثيرا هو كتاب معالم الايمان في معرفة أهل القيروان لابي زيد عبدالرحمن بن محمد الانصاري الاسيدي المعروف بالدباغ (ت ٦٩٦هـ) الذي اكمله وعلق عليه عالم افريقي متأخر هو أبو الفضل أبو القاسم ابن عيسى بن ناجي التنوخي (ت ٨٣٩هـ) .

وكتاب المعالم على الرغم من اعتماده على كتب مؤرخي التراجم الافريقية مثل أبي العرب، ومحمد بن حارث الخشني ، والمالكي ، وعلى كتاب القاضي عياض وغيره ، فإن أهميته تكمن في الاشارة لبعض من التراجم التي أغفل ذكرها أولئك المؤرخون سهوا أو عمدا ، وقد أشرنا الى هذا في ثنايا الرسالة . لكن القيمة الكبيرة للكتاب بجانب ذلك ، تنحصر في التعليقات التاريخية والفقهية الجيدة التي كان يُدلي بها أبو الفضل بن ناجي مكمل ومعلق الكتاب .

وثمة مصدر رئيسي في كتب تراجم طبقات العلماء الافريقيين رافقنا كثيرا، وهو كتاب شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف . وتأتي اهميته من أنه استوعب كل جهود من سبقه لا سيما وهو من المتأخرين في الترجمة لعلماء المالكية

ليس في افريقية فحسب بل في كل الامصار وخاصة الحجاز والعراق ومصر والمغرب والأندلس .

وعلاوة على هذه المصادر الرئيسية التي أرخت لعلماء المالكية ، فإن هناك مجموعة من كتب المصادر المشرقية والأندلسية التي تحدثت عن علماء المالكية ككتاب تاريخ علماء الأندلس لابن القرضي (ت ٤٠٣هـ) وطبقات الفقهاء للشيرازي (ت٤٧٦هـ) ، وبغية الملتمس للضبي (٥٩٩هـ) وتذكرة الحفاظ للذهبي (ت ٧٤٩م) (ت ٧٤٩م) والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون (٧٩٩هـ) وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزرى (ت ٨٣٣هـ) وطبقات الحفاظ ، وطبقات المفسرين للسيوطي (ت ٩١١هـ) وغير ذلك .

وفيما يتصل بمصادر التراجم التي أرخت للحياة الأدبية في افريقية وقتذاك فقد استفدنا من عدد منها ، ونذكر على سبيل المثال كتاب الحلة السيراء لابن الابار (ت ٦٥٨هـ) الذى حققه حسين مؤنس في جزأين . ولكتاب الحلة السيراء أهمية مزدوجة فبالنسبة لمجهودات صاحبه ، فقد اعتمدنا عليها كثيرا فيما يتعلق بالشعراء الذين امتهنوا السياسة من الأمراء والولاة والخلفاء والقواد والوزراء . . الخ . وأما الاهمية الأخرى فهى التي تمثلها التحقيقيات العلمية الرصينة للمحقق حسين مؤنس .

وثمة مصدر ثان في تراجم الأدباء استفدنا منه كثيرا وهو كتاب : الوافي بالوفيات للصفدى (ت ٧٦٤هـ) . فقد زودنا بمعلومات قيمة نقلها عن كتاب ابن رشيق : المفقود أنموذج الزمان في شعراء القيروان . أما كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (ت ٦٥٨هـ) فهو على الرغم من أن تراجمه لا تقتصر

على الأدباء وحدهم ، بل هى تراجم شاملة للعلماء والأدباء والسياسيين وغيرهم ، فإنه يحتوى على معلومات مهمة استفدنا منها في حديثنا عن بعض مظاهر الحركة الادبية في افريقية .

وأخيرا لانغفل ذكر كتاب : معجم الادباء لياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ) فهو كتاب ترجم لابرز الادباء في المشرق والمغرب وقد أفدنا منه في كثير من التراجم .

وبالنسبة لطبقات اللغويين والنحويين بصفة خاصة فقد كان اعتمادنا على مجموعة مهمة من مصادرها - وهى مشرقية في أغلبها - على أن اهم تلك المصادر بالنسبة لبحثنا هوكتاب طبقات النحويين واللغويين لابى بكر الزبيدى الأندلسي (ت٣٧٩هـ) فلقد وردت فيه مجموعة تراجم لعدد من اللغويين والنحاة الافريقيين . ومما هوجدير بالتنويه أن كثيرا من تلك التراجم اعتمد عليها من جاء يترجم لطبقات اللغويين والنحاة الافريقيين ، وإن كنا قد استفدنا مما ورد من معلومات اضافية في كتابة البلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروزابادى (ت ٨١٧هـ) وبغية الوعاة للسيوطي المتوفي عام ٩١١هـ .

أما فيما يتعلق بكتب التاريخ العامة ، فإننا مُدينون جدا للمؤرخ المغربي ابن عذارى المراكشي (ت ٦٩٥هـ) وكتاب ابن عذارى عبارة عن تاريخ عام للمغرب والأندلس من الفتح العربي حتى عصر بنى مرين في المغرب الأقصى . ويقع في ٤ أجزاء . وقد حقق الأجزاء الثلاثة الاولى منه كل من ج . س كولان وليفي بروفنسال ، فيما حقق احسان عباس الجزء الرابع منه . وفي الحق فقد كانت الاستفادة كبيرة من الجزء الاول من هذا الكتاب ، وهو الجزء المختص بالحديث عن افريقية والمغرب منذ الفتح وحتى منتصف القرن السادس الهجرى .

وترجع أهمية الكتاب الى المادة التاريخية الغزيرة التى جمعها ولا سيما مايتعلق بقيام الخلافة الفاطمية وقضايا الصراع

المذهبى بين المالكية والشيعة الاسماعيلية . علما بأن المؤلف يأخذ الجانب المتشدّد ضد الشيعة في روايته للأحداث .

ومما أَعطى الكتاب أهمية بالغة أن ابن عذارى قد اعتمد في كثير من رواياته للاحداث على نقولات من مجموعة من المصادر هي في حكم المفقودة ككتاب تاريخ افريقية والمغرب للرقيق القيروانى الذى لم يبق منه سوى قطعه تشمل التأريخ لافريقية منذ الفتح وحتى نهاية القرن الثالث الهجرى ، ومثل كتاب اخبار الدولة الصنهاجية المفقود للرقيق القيرواني ، وغير ذلك .

على أن مما يعيب كتاب ابن عذارى أنه لم يكن يوضح نهاية نقولاته ، فتختلط نقولاته هاته بكلامه هو . ولكن الكتاب رغم هذا لا يمكن لاى باحث الاستغناء عنه للاهمية التاريخية التى يمثلها .

ومن كتب التاريخ العام كتاب الحلل السندسية في الأخبار التونسية لابن السراج (ت ١١٤٩هـ) ، والكتاب يقع في ٤ أجزاء فُقِدَ الرابع منه ، وقد وقف الاستاذ الحبيب الهيلة على تحقيقه فأصدر الجزء الأول في ٤ أقسام ، ثم اصدر الجزء الثانى في قسمين وكذلك الجزء الثالث . وقد أفدنا من هذا الكتاب على الرغم من تأخره ، وافدنا ايضا من تحقيقات المحقق الرصينه حسبما يتضح في ثنايا البحث .

ومن كتب التاريخ العامة التى أفدنا منها في بعض النقاط التاريخية كتاب المؤنس في أخبار افريقيا وتونس لابن أبى دينار الرعينى القيروانى (ت) وكتاب الخلاصة النقية في أمراء افريقية لمحمد الباجي المسعودى (ت) ، وغيرذلك .

على أننا قبل أن نترك الحديث عن كتب التاريخ العامة لا يفوتنا الاشارة والاشادة ايضا بمصدرين مهمين كتبهما أحد ابناء افريقية في الفترة التى نؤرخ لها . أعنى بذلك كتاب افتتاح

الدعوة وكتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان بن حيون (ت ٣٦٣هـ) وهذان الكتابان نُشِرا وحققا بعناية بعض من الباحثين التونسيين.

وبصرف النظر عما في الكتابين من اتجاهات مذهبية وفقهية لا تتفق مع اتجاه اهل السنة، الا أن الكتابين في غاية الأهمية من الناحية التاريخية. فكتاب افتتاح الدعوة يعالج الدعوة الشيعية ومبدأ امرها مذ كانت حلما الى أن تحقق قيام الخلافة الفاطمية، وهو يروى الاحداث من وجهة نظر مغايرة للرواية السنية.

أما كتاب المجالس والمسايرات فهو لا يقل أهمية عن كتاب افتتاح الدعوة، وإن كانت مادته العلمية عبارة عن خليط من المعلومات التاريخية والمذهبية والشخصية أو ما يدخل في اطار أدب السيرة الذاتية وهي سيرة الخليفة المعز لدين الله.

أما بالنسبة للمراجع الحديثة العربية والمعربة، فلعلنا لا نبالغ إذا قلنا أنها تمثل العمود الفقرى لكثير من المواضيع التي تطرقنا لها وخاصة مواضيع القسم الأول، وكان بعضها أساسيا في المفردات القسم الثاني.

ومن أهم المراجع التي أثارت لنا السبيل في القسم الاول كتاب تاريخ المغرب العربي لسعد زغلول عبد الحميد. والكتاب يقع في جزأين، الجزء الاول يتصدى للحديث عن تاريخ المغرب العربي من الفتح الى بداية عصور الاستقلال أى حتى قيام الدويلات المستقلة في المغرب، أما الجزء الثاني فهو مختص بالحديث عن تاريخ الاغالبة والرستميين وبنى مدرار والادارسة حتى قيام الفاطميين

وكتاب تاريخ المغرب العربي لسعد زغلول لست في

حاجة الى التنويه به. فمنذ أن أخرج صاحبه الجزء الأول منه عام ١٩٦٤م ، أصبح المعول عليه في استخلاص المادة التاريخية الغزيرة التي يحتاجها الباحثون عن المغرب . وهو من النا حية التاريخية السياسية أشمل كتاب من نوعه . غير أنه يقف بتاريخ المغرب حتى الخلافة الفاطمية ، وإن كانت النية متجهة لدى مؤلفه للتأريخ للمغرب العربي في ظل الدولة الفاطمية.

وبالا ضافة الى كتاب سعد زغلول عبد الحميد هذا ، فإن هناك مرجعا مهما آخر يعالج النواحى التاريخية والا قتصاد ية والعمرانية ، وهو كتاب تاريخ المغرب في العصر الا سلامي للسيد عبد العزيز سالم.

وفيما يتصل بالكتب التى أرخت للخوارج في المغرب نذكر على رأسها كتاب الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى لمحمود اسماعيل عبد الرازق . وهذا الكتاب هو رسالة دكتوراه في الأصل ، وقد نشرها صاحبها عام ١٩٧٦م . ولقد استفدنا من كثير من تحليلاته في دخول المذهب الخارجي بلاد المغرب .

ومن الكتب المهمة التى استفدنا منها في تأريخنا للاثار العلمية للصراع المذهبي بين المالكية والا باضية كتاب الأباضية بين الفرق الا سلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث ، وكتاب الا باضية في الجزائر للمؤرخ والباحث الا باضى على يحيى معمر.

ولقد أفدنا في الحقيقة من الكتابين وخاصة كتاب الا باضية بين الفرق الا سلامية وذلك فيما يتعلق بوجهة نظر الا باضية في كثير من القضايا الفقهية والعقائدية ، وكذلك في التعرف على تراجم علماء وأدباء الا باضية في اقليم الجريد وجبل نفوسة .

وتأتى موسوعة حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية في طليعة الكتب التى كتبها

الباحثون التونسيون من حيث الأهمية لبحثنا . والحق أننا لا نستطيع ان نفي حسن حسني عبد الوهاب حقه وأفضاله على تاريخ المغرب الأدني . فلقد كانت كتبه النبراس الذى استفاد منه الباحثون. أما موسوعته : الورقات فهي درة فريدة وموسوعة شاملة تتنقل بالقارئ من موضوع لموضوع في تشويق وتنويع محبب . وقد أفدنا منه حق الافادة لكن ما يعيب كتاب الورقات ، الذى يقع في ثلاثة أقسام ، هو اهمال المؤلف توثيق كثير من اخباره ومعلوماته .

ولحسن حسني عبد الوهاب سلسلة من الكتب الاخرى التى أنارت لنا الطريق في بعض القضايا ، ككتاب بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ، وكتاب خلاصة تاريخ تونس والامام المازرى ، وغير ذلك.

وما دمنا نتحدث عن مصنفات الباحثين التونسيين لا يفوتنا الاشارة الى الاهمية التى تمثلها الكتب التالية ، شخصيات أدبية من المشرق والمغرب لابى القاسم كرو وعبد الله شريط وكتاب سيرة القيروان لمحمد العروسي المطرى ، وكتاب القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية في المغرب العربي للحبيب الجنحانى ، وكتاب مراكز الثقافة بالمغرب من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر لعثمان الكعاك ، وغيرها من الكتب التى أرخت للحياة الحضارية لتونس في الفترة التى تخصنا وكذلك في فترات لاحقة .

وهناك الكثير من المراجع الهامة التى استفدنا منها والتى يضيق بنا المجال أن نتتبعها هنا . ولذلك فإننا نكتفي بما أوردناه منها هنا محيلين القارئ الى قائمة المصادر والمراجع في نهاية الرسالة .

أما عن الكتب المعربة فإننا لا نستطيع اغفال الاهمية الكبيرة للكتاب الموسوعي : تاريخ الأدب العربي للمستشرق

الالمانى كارل بروكلمان فهوكتاب لاغنى عنه للباحثين ، وقد استفدنا منه في نقطه جديدة ومفيدة لم يسعفنا غيره في الاشارة اليها سوى عبدالعزيز بنعبدالله في كتابه : الموسوعة المغربية للاعلام البشرية . تلك النقطة هى الاشارةالى الشروحات والاختصارات والتعليقات التى حظيت بها اشهر مصنفات الرجال الذين أرخنا لهم هنا في الرسالة سواء كانوا فقهاء او أطباء أو أدباء .

وفيما يتصل بالرسائل الجامعية التى أعدت لنيل درجة الماجستير او الدكتوراه من الجامعات العربية ، فقد استفدنا من الرسالة التى أعدها الباحث المصرى السيد محمد ابو العزم داود عن الأثر السياسى والحضارى للمالكية في شمال افريقيا حتى قيام دولة المرابطين المنشورة عام ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م والرسالة التى أعدها الباحث التونسي عبدالعزيز المجذوب بعنوان : الصراع المذهبى بافريقية حتى قيام الدولةالزيرية ، المنشورة عام ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م ، وذلك للحصول على شهادةالكفاءة في البحث من الكليةالزيتونية وأصول الدين بتونس عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م .

وأخيرا نذكر الرسالة التى أعدها الباحث الليبي صالح مصطفي مفتاح بعنوان : برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر ، وذلك للحصول على درجة الماجستير في التاريخ من كلية الاداب - قسم التاريخ بجامعة القاهرة ، عام ١٩٧٦م .

وفيما يتعلق بالدوريات فقد أتيح لنا الاستفادة من كثير من المقالات والابحاث التى نشرتها بعض المجلات العلمية المتخصصة ، وخاصة التونسية مثل البحث الذى نشره محمد

البعلاوى في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، عام ١٩٧٠م بعنوان : شعراء افريقيون معاصرون للدولة الفاطمية والمقال الذى نشره الشاذلي بويحيى في مجلة حوليات الجامعة التونسية ايضا العدد الاول عام ١٩٦٤م . بعنوان : حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصرى وغيرهما من الابحاث التى تتضح للقارىء في قائمة المصادر والمراجع والدوريات .

وفي الختام لايسعنى قبل أن أضع القلم الا أن اتقدم بأجزل الشكر وأعظم الامتنان الى استاذى المشرف الاستاذ الدكتور احمد السيد دراج الذى ما انفك يمدنى جزاه الله خيرا بسديد آرائه وبليغ توجيهاته برحابة صدر ، وطول اناة حتى خرج هذا البحث الى حيز الوجود . وفي الحق فلست أجد من العبارات ماتفي بشكره ، فله من الله حسن الثواب .

كما لا يفوتنى أن أعرب عن جميل تقديرى لكل من قدم لي يد العون والمساعدة في ابراز هذا البحث واخراجة الى المستوى المطلوب .

والله أسأل أن يوفقنا سواء السبيل وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدا ، إنه القادر سبحانه على ذلك ، وآخر دعوانا أن الحمد لله .

والله ولى التوفيق

تمهيد

تمهيـــــد

- مدلول لفظ إفريقية(المغرب الأدني) جغرافيا وتاريخيا .
- عرض موجز للاحوال السياسية في افريقية المغرب الأدنى ، فى الفترة الزمنيه موضوع الرسالة .

مدلول لفظ إفريقيّة (المغرب الأدنى) جغرافياً وتاريخياً :-

لعل من الضرورى قبل أن نتحدث عن تفاصيل الحياة العلمية في إفريقيّة (المغرب الأدنى) أن نلمّ بجغرافية هذا الإقليم الذى نشأت على أديمه تلك الحياة العلمية التى سنؤرخ لها لاحقاً إن شاء الله ذلك أن الحديث عن الحياة العلمية تلك لا يستقيم له معنىً إلا بتسليط الضوء على هذا الإقليم من حيث اسمه ومدلوله ومعناه. غير أن المغرب الأدنى ليس إلا جزءاً من إقليم أكبر وأوسع هو المغرب الكبير ، أو المغرب العربى مطلقاً . ومن هنا فليس أمامنا كى يستقيم المعنى موضوعياً إلا الافاضة في ذكر هذا المغرب الكبير الذى يضم حقل دراستنا في الفترة الزمنية موضوع الرسالة.

معنى لفظ المغرب : لغويا - جغرافيا - تاريخيا :-

فالمَغْرِبُ لغوياً هو كل ماهو خلاف المَشْرِق [1] ، والغَرْبُ والمَغْرِبُ عند كثير من علماء اللغة سواء ، أى بمعنى واحد [2] ، بل هو عند بعض المؤرخين والجغرافيين كذلك [3] . ولقد جاء في القرآن الكريم مايدل على هذا المعنى اللغوى للفظي : المشرق والمغرب ، فقد قال تعالى : (رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المَغْرِبَيْنِ) [4] . والمغرب كما ذكر ابن منظور [5] : (مَوْضِعُ الغُرُوبِ (أى غُيوبُ الشمس) ، ثم استعمل في المصدر والزمان ، وقياسه الفتح ، ولكن استعمل بالكسر كالمَشْرِقِ والمَسْجِدِ) .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، الجزء الثانى ، ص ١٢٩ .
(٢) أنظر مثلا ابن منظور ، نفس المصدر أعلاه والجزء والصفحه .
(٣) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، الجزء الأول الخاص بالفتح الى بداية عصور الاستقلال (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) ، حاشة رقم ٥ ، ص ٦٣ (نقلاً عن عدد من المؤرخين والجغرافيين القدامى) .
(٤) سورة الرحمن ، آية : ١٧ .
(٥) لسان العرب : نفس المصدر والجزء والصفحه أعلاه .

أما من حيث معناه الجغرافي ، والتاريخى ، فإنه - أى لفظ المغرب - جاء في نظر بعض الجغرافيين المسلمين الأوائل من أن أهل مصر ، كانوا يسمون مايلى أيمانهم - أى مايلى أياديهم اليمنى - اذا ما استقبلوا الجنوب : مغرباً ، ويسمون مايلى شمائلهم - أى مايلى أياديهم اليسرى - : مشرقاً (١) .

غير أن أحد الباحثين المحدثين يرى أن التسمية : المغرب، إنما هو اسم الاتجاه الأصلى الذى يحدّد مغرب الشمس (٢) - وهو هنا يتفق مع التعبير اللغوى - بمعنى أن لفظ المغرب هذا كان ومازال ذا دلالة جغرافية تعنى البلدان التى تقع في اتجاه مغرب الشمس ، مثلما هو الشأن بالنسبة للبلدان الواقعة تجاه مشرق الشمس . وعلى هذا الأساس ، فإن لفظ المغرب يدل على كل مايقابل المشرق من أمصار. (٣)

ولقد ظهر هذا التقسيم الاصطلاحي في الدولة الاسلامية في عهد الخلافة العباسية . ذلك أن الخليفة المهدى بن المنصور، قسّم دولته بين ولديه : الهادى والرشيد ، فعهد للهادى بالمشرق كله وآذربيجان وأرمينيه ، وعهد للرشيد بالمغرب كله من الأنبار الى افريقية (٤) . بيد أن هناك من يرجع هذا التقسيم الادارى الى الرشيد نفسه ، وليس لأبيه المهدى ، فالرشيد كما ذكر قسّم دولته بين ولديه : الأمين والمأمون على نفس النسق السابق . وعلى أية حال فإن الدولة العباسية اعتبرت بغداد العاصمة كما يقول سعد زغلول (٥) عبد الحميد

---

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، المجلد الأول ، ص٤٥ .
(٢) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، الجزء الأول ، ص ٦١ .
(٣) أحمد مختار العبادى : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١١.
(٤) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع أعلاه والجزء ، ص ٦١، وحاشية رقم ٢٠ - ص ٦١ - ٦٢ .
(٥) نفس المرجع أعلاه والجزء ، ص ٦١ .

بمثابة خط جرينتش اليوم بالنسبة لخطوط الطول .

يبقى أن نشير أخيراً الى أن لفظ المغرب ، ومن ثم لفظ افريقية كان معروفاً عند المسلمين منذ العهود الأولى للاسلام ، بل أن بعض كتب التراجم التى ترجمت لعلماء المغرب أوردت عدة أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ذُكر فيها لفظ المغرب كاسم علم للقطر المغربى نفسه (١) ، ونحن هنا بطبيعة الحال لسنا في وارد تبيان قوة تلك الأحاديث أو ضعفها (٢) ، فما يهمنا هو الاشارة الى الحقيقة التاريخية وحدها . على أن الأمر الذى لا يرقى اليه شك هو أن المسلمين عرفوا على وجه الخصوص لفظ افريقية منذ عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (٣)

---

(١) من تلك الأحاديث : روى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول : (لا تزال عصابة من أمتى بالمغرب يقاتلون على الحق حتى تقوم الساعة لا يضرهم من خالفهم ، حتى يرواغما ما فيقولوا " غشيتم " فيبعثون سراعا خيلهم ينظرون ، فيرجعون اليهم فيقولون : الجبال قد سيرت فيخرون سجدا فتقبض أرواحهم) . وعن أبى عبد الرحمن الحبلى قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ينقطع الجهاد عن البلدان كلها فلا يبقى الا بموضع من الغرب يقال له افريقية ، فبينما القوم بازاء عدوهم ، نظروا الى الجبال قد سيرت ، فيخرون لله تبارك وتعالى سجدا ، فلا ينتزع أخلاقهم الا خدمهم في الجنة) . الى غير ذلك .
أنظر أبو بكر المالى : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقيه وزهادهم وعبادهم ، وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، الجزء الأول ، تحقيق حسين مؤنس ، ص: ٣-٥ مع الحواشي - الدباغ : معالم الأيمان في معرفة أهل القيروان ، اكمله وعلق عليه أبو الفضل بن ناجي التنوخى ، الجزء الأول بتعليق وتصحيح ابراهيم شبوح ، ص ٤ وما بعدها .

(٢) أشار مكمل ومعلق كتاب معالم الأيمان المذكور أعلاه أبو الفضل بن ناجي التنوخى الى أن تلك الاحاديث يغلب على الظن أنها موضوعة ، وقصد بها تحبيب بلاد المغرب الى ساكنيه .
إنظر معالم الايمان ، الجزء الأول ، ص٦ وما بعدها .

(٣) ابو بكر المالى : نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص٩ .

عند ما طلب منه عمرو بن العاص فاتح مصر السماح بفتح افريقية ، فأجابه بالرفض . وعرف اللفظ أيضا في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان الذى سمح بغزو [١] افريقية ، وعرف كذلك في عهد الخليفة معاوية إبّان بناء عقبة بن نافع لمدينة القيروان ، حيث قال عقبة : (إن افريقية إذا دخلها امام أجابوه الى الاسلام ، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله الى الكفر . فأرى لكم يامعشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للاسلام الى آخر الدهر) [٢] .

أما لفظ المغرب ، فإنه قد ظهر منذ عهد معاوية بن أبى سفيان عند ما ولى مسلمة بن مخلد الأنصارى ولاية مصر والمغرب كله [٣]، ثم عند ما ولي يزيد بن معاوية عقبة بن نافع ثانيةً افريقية والمغرب [٤] كله . ثم أخذ لفظ المغرب يشيع في عهد الدولة الأموية في العهد المرواني ، فنرى بعض المؤرخين ينسب الى الخليفة الوليد بن عبد الملك تولية موسى بن نصير افريقية والمغرب [٥] واتضح معناه بصورة اكثر تفصيلاً عند ماولى الخليفة سليمان بن عبد الملك ، محمد بن يزيد مولى قريش افريقية والمغرب ، فلقد قال له مانصه : (قم قيما وليتك بالحق والعدل ، وقد وليتك افريقية والمغرب كله) [٦]

---

(١) أبو بكر المالكى : نفس المصدر ، والجزء ، ص ٨-٩
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الأول ، تحقيق ومراجعة ج . س. كولان وليفى بروفنسال ، ص ١٩
(٣) ابن عذارى : نفس المصدر أعلاه ، ج ١ ، ص ٢١ .
(٤) ابن عذارى : نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ٤٣ .
(٥) ابن عذارى : نفسه ، ص ٤١ ، ٤٧ .
(٦) ابن عذارى : نفسه والجزء ، ص ٤٧ .

مدلول لفظ المغرب : جغرافيا وتاريخيا :-

ماقدمناه من شرح إنما كان ايضاحاً للفظ المغرب : لغويا وجغرافيا وتاريخيا . أما عن مدلوله الجغرافي والتاريخي ، فهو ماسيكون موضع الشرح الآن . والواقع أن مدلول لفظ المغرب جغرافياً كان مثار نقاش بين المؤرخين والجغرافيين قدامى ومحدثين ، بل كان موضع اختلاف فيما بينهم . ففي الوقت الذى نرى فيه بعض المؤرخين والجغرافيين يعتقد أن مدلول لفظ المغرب جغرافيا هو كل مايلى مصر غرباً حتى المحيط الأطلسى ، بما في ذلك الأندلس والجزر الموجودة في البحر الأبيض المتوسط كجزر البليار ، وصقلية وسردينيا ، وكورسيكا (١) نلاحظ أيضا أن هذا المفهوم يزداد اتساعاً عند البعض الآخر وعندهم أيضا . فيرون أن مصر نفسها داخلة ضمن مفهوم المغرب (٢) . بل لقد زاد مدلول اللفظ اتساعا ، فشمل بالاضافة لما ذكرناه : بلاد الشام (٣) .

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض، ص ٦٤- ٦٥ - المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، الطبعة الثانيه ، بغداد ، ص ٢١٥- ٢١٦ - سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ١ ص ٦٣ نقلا عن الاصطخرى صاحب كتاب المسالك والممالك) - السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الاسلامى ، ص. ٤ - أحمد مختار العبادى : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص: ١١ .

(٢) ابن حوقل : نفس المصدر أعلاه ص ٦٥ - ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ١ ص ٥ - ٦- المقدسي : نفس المصدر أعلاه ص ٢١٦ . وأنظر عبده عبد العزيز قلقيلة : النقد الادبى في المغرب العربي ، الجزء الأول ، ص ١٣-١٥ (حيث ينقل عن ابن سعيد المغربي في كتابيه : المغرب في حلى المغرب ، وكتاب الجغرافيا ، مايفيد هذا المعنى ، بل وكتابه الثالث : عنوان المرقصات والمطربات . حيث يتحدث عن أدباء مصر مع أدباء المغرب) .

(٣) أحمد مختار العبادى ، نفس المرجع أعلاه ، ص ١١- ١٢ .

وذلك عند ما قسّم الخليفة العباسي هارون الرشيد دولته بين ولديه : الأمين والمأمون ، فعهد للأمين بالمغرب كله ، وشمل بلاد الشام والعراق ومصر وافريقية ، وعهد للمأمون بالمشرق كله ، وشمل بلاد فارس وما يليها شرقا كما أشرنا سابقا . غير أنه لا يعزب عن القول بأن ذلك التقسيم لا يعدو أن يكون مجرد تقسيم اداري ، اكثر منه واقع جغرافي طبيعي .

واذا ما نحينا الاختلاف حول هذه النقطة - أي حد المغرب شرقا - جانبا ، فإن أولئك المؤرخين والجغرافيين يختلفون على حد المغرب جنوبا - وغربه بالطبع - فهم يرون أن المغرب يمتد طبيعيا جنوبا حتى تخوم السودان [1] ، وبالتحديد تخوم الدويلات الافريقية المستقلة اليوم التالية : تشاد ، وغربي جمهورية السودان من جنوبها الشرقي ، ومالي ، والنيجر من وسطه ، والسنغال من جنوبه الغربي [2] .

وأيا كان الأمر فإن مدلول لفظ المغرب إنما يعني الآن : المغرب العربي الافريقي بتنظيماته السياسية المعروفة اليوم ، وهي الجماهيرية الليبية ، الجمهورية التونسية ، الجمهورية الجزائرية ، المملكة المغربية ،

---

(١) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص٤ ٦-٥ ٦ - البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك له ، ص ٤٨ - ٤٩ ، وص ١٥٦-١٥٧ ، وص ١٦٠ ومابعدها - ابن السراج : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ٢٣٥ .

(٢) أنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ١ ص ٦١ - عبده عبد العزيز قلقيلة : النقد الأدبي في المغرب العربي ، ج ١ ، ص: ١٤ - محمد علي دبوز : تاريخ المغرب الكبير الجزء الاول ، الطبعة الاولى ، ص ٣ - محمود شيت خطاب : عقبة بن نافع الفهري - قادة فتح المغرب الاسلامي ، ط٤ ، ص ١٦ .

ثم جمهورية موريتانيا ، التى كانت ضمن المغرب الأقصى (١) . هـذا ويطلق على المغرب العربى أحيانا : شمال افريقيا ، لوقوعه شمال القارة الافريقية .

وقبل أن نغادر هذه النقطة ينبغى لنا الاشارة الى أن بعضا من الباحثين ، رغم كونهم يتفقون على مايدل عليه مدلول لفظ المغرب حديثا ، الا أنهم يتحفظون على اعتبار ليبيا جزءا من المغرب الكبير ، فهم يرون أن ذلك المدلول ينطبق تخصيصا على الأقاليم الاتية : تونس - الجزائر - المغرب الأقصى ، الذى كان يعرف حتى وقت قريب بمراكش ، وطبعا موريتانيا . وحجتهم في ذلك أن هناك وحدة تضاريسيه جغرافية واحده بين هذه الأقطار الثلاثة دون ليبيا ، وخاصة مظهرها الرئيسى ، وهو جبال الأطلس التى تمتد من الغرب الى المشرق أفقيا من المغرب حتى تونس. (٢)

لكن هذا التحفظ في الواقع ليس بذى بال لعدة اعتبارات منها آراء المؤرخين والجغرافيين القدامى السالفة الذكر . والاعتبار الثاني هو أننا اذا سلمنا بأن بعض أجزاء من ليبيا تخالف تضاريسيا

---

(١) أنظر سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق والجزء ص ٦١ - السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ، ص ٤٠-٤١ - أحمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ١٢-١٣ محمود شيت خطاب : المرجع السابق أعلاه ، ص ١٦ .

(٢) أنظر عبده عبد العزيز قلقيلة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١-١٧ نقلا عن نقولا زيادة في كتابه : صفحات مغربية ، وكذلك نقلا عن صلاح العقاد في كتابه : المغرب العربى (الجزائر - تونس - المغرب الأقصى) . والواقع أن عبده قلقيلة قد كفانا الرد على هذا الرأى لهذين المؤرخين المحدثين .

بقية أجزاء المغرب كاقليم أو ولاية برقة التى تكاد تكون إمتداداً طبيعياً لأرض مصر نحو المغرب دون أى فواصل طبيعية (١) تذكر . نقول اذا سلمنا بهذا ، فإننا لا نستسيغ تعميم هذا على بقية الأراضي الليبية ، فاقليم طرابلس ، وهو أحد أقاليم ليبيا الثلاثة يكاد يكون امتدادا جغرافيا للمغرب، فجبل نفوسة الذى يظل المدينة - أى مدينة طرابلس - كالهلال يشكل في رأى كثير من المؤرخين (ذراعاً وامتداداً لسلاسل جبال أطلس المعروفة بجبال درن في المغرب الأقصى) . (٢)

والاعتبار الثالث والأهم ، هو أنه حتى لو خالفت ليبيا بقية أجزاء المغرب تضاريسيا ، فإن هناك كثير من العوامل التى لا تبيح اطلاقا سلخ أو إقصاء ليبيا عن المغرب ، فليبيا عدا ماذكرنا من امتداد بعض أجزائها طبيعيا نحو المغرب، فإنه تجمعها واياه مظاهر مشتركة اقتصادية واجتماعية وفكرية وسلالية ، علاوة على الوحدة الدينية والتاريخية .

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، والجزء ، ص ٦٤-٦٥ .

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق أعلاه والجزء ، ص ٦٦ .

أقسام بلاد المغـــرب :

مدخـــل :-

اصطلح الجغرافيون والمؤرخون المسلمون على تقسيم بـــــلاد المغرب العربى الى ثلاثة أقسام رئيسية انطلاقا من المفهوم الواســـع لمدلول لفظ المغرب الذى أشرنا اليه آنفاً من جهة ، وتحديداً لمبـدأ القرب والبعد عن المشرق من جهة أخرى . (١)

بيد أن مبدأ التقسيم هذا لم يكن في الحقيقة سبقاً اسلاميـــاً صرفاً . ذلك أن القوى الغازية التى تعاقبت على حكم المغرب قبـــل الفتح الاسلامي، وهم الفينيقيون والرومان والوندال والبيزنطيـــون ، قسمت هذه البلاد الواسعة الممتدة من مصر شرقاً حتى المحيـــط الأطلسى غرباً الى عدة أقسام نتيجة لضرورات إدارية وعسكرية فرضتهـــا الظروف السياسية آنذاك .

فلقد قسمت تلك القوى هذه البلاد التى كانت تعرف منـــذ عهود تاريخيه قديمة باسم : ليبيا (٢) أو لبيو (٣) أو لوبية (٤) وهـو الاسم الذى أطلقه اليونان على شمال افريقيا باستثناء مصر، أو موريتانيا (٥) " MAURITANIA " دون طرابلس الى هذه الأقسام الآتيه :

١- ليبيا التى اقتصر مدلولها الجغرافي منذ القرن التاسع عشـــر ق . م على برقة وطرابلس ، وقد امتد هذا الاقليم أوهـــذا

---

(١) محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير، ج ١ ، ص٤ - أحمـــد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ١٢ .
(٢) محمد على دبوز : نفس المرجع أعلاه والجزء ، ص ٥
(٣) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ، ص ٣٩ .
(٤) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق والجزء ، ص ٤٦ مع الحواشي
(٥) محمد بن عبد السلام بن عبود : تاريخ المغرب، الجزء الاول ، ص ١٩ .

القسم من (غرب الاسكندرية الى شرق مدينة قابس في خليج سرت الأصغر) (١) . ومما هو جدير بالذكر أن بلاد طرابلس كانت تعرف باسم بزاسين أو بزسيوم (٢) ، أما المدينة نفسها فقد كان اسمها طربليطة " TRIPOLITAINE " ومعناه المدن الثلاث باليونانية وهى اياس (طرابلس الحالية) ولبدة وصبراته أو سبرت (سبراته الحالية) (٣) .

٢- افريقية ، ويمتد هذا القسم من مدينة قابس من الساحل الشرقي لتونس شرقاً الى مدينة طبرقة (٤) غرباً . وهو ما يشمل اليوم معظم أو كل القطر التونسي بحدوده الآن تقريباً ، وكان يعرف بولاية افريقية القنصلية . (٥)

٣ - نوميديا وتمتد من مدينة طبرقة شرقاً وتنتهى غرباً بمدينة بجاية (٦) . ويشير أحد الباحثين الى أن نوميديا هى اقليم الزاب (٧) الجزائرى المعروف الآن ، والذى كان في عهد الدولة الاغلبية تابعاً من الناحية السياسية فقط لافريقية (المغرب الأدنى) .

---

(١) محمد على دبوز : المرجع السابق ، ص ٦

(٢) محمد بن عبد السلام بن عبود : تاريخ المغرب ، ج ١ ، ص ٢١

(٣) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق والجزء ، ص ٦٦ مع حاشية رقم ٢٢ من نفس الصفحة .

(٤) محمد على دبوز ، نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٦ .

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٣٩

(٦) محمد على دبوز : نفس المرجع السابق اعلاه والجزء والصفحة .

(٧) عثمان الكعاك : تاريخ الجزائر ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

٤- موريتانيا . وموريتانيا كما عرفنا كانت تطلق على المغرب كله دون طرابلس ثم في عهد الامبراطور الروماني كلاوديو[1] " CLAUDIU " قسمت موريتانيا الى قسمين : موريتانيا الشرقية ، وكانت تشمل المنطقة الممتدة من بجاية شرقاً حتى وادى ملوية غرباً ، وتضم من الجزائر الآن عمالة الجزائر وعماله وهران تم جزء صغير من القطر التونسي شرقاً[2] . وكان هذا القسم يعرف أيضاً بموريتانيا القيصرية[3]

٥- القسم الآخر هو موريتانيا الغربية ، وهو الذى يشمل كل أراضي المغرب الأقصي تقريباً بحدوده المعروفة اليوم مع جمهورية موريتانيا ماعدا جزء صغير من شرقه[4] . ويعرف هذا القسم أيضا بموريتانيا التانجتانيه (الطنجية) وعاصمته في العهد الرومانى مدينة تنجيس (طنجة) .[5]

---

(١) أنظر محمد بن عبد السلام بن عبود : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩ .

(٢) محمد على دبوز : المرجع السابق ، والجزء ، ص ٦ .

(٣) محمد بن عبد السلام عبود : المرجع السابق والجزء ، ص ١٩ .

(٤) محمد على دبوز : المرجع السابق والجزء ، ص ٦ - ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ - عرض لاحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينيه والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ماقبل الاسلام الى العصر الحاضر الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، ص ٥٨

(٥) محمد بن عبد السلام بن عبود : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١٩ .

وأيا ماكان الأمر فان الشيء الجدير بالملاحظة هو أن :-
تقسيمات المسلمين للمغرب لم تختلف كثيراً عن هذه التقسيمات القديمة فيما عدا اختلاف المسميات بالطبع . وعلى أية حال فإن الجغرافيين والمؤرخين المسلمين اصطلحوا كما ذكرنا على تقسيم المغرب الى ثلاثة أقسام رئيسية هي :-

١- المغرب الأدنى (افريقية) : ويمتد هذا الاقليم من طرابلس شرقاً حتى مدينة بجاية أوتاهرت (في الجزائر الحالية) غرباً . وعاصمة هذا الاقليم أو القسم مدينة القيروان .(١) ولافريقية مفهومان : عام وخاص سنتطرق لهما بعد . ولكن الذى يهمنا هنا هوالاشارة الى أن افريقية في مفهومها الخاص بل والمنطقي هى المنطقة التى تمتد من الأجزاء الشرقية من المغرب أو ماكان يعرف بافريقية القنصلية في عهد الرومان . بمعنى أن افريقية تعنى كل البلاد التونسية اليوم مع بعض الأجزاء الغربية من ولاية طرابلس بما في ذلك المدينة نفسها ، وأجزاء من بلاد الجزائر الحالية أى التخوم الشرقية للجزائر حتى مدينة بجاية أو تاهرت (٢) . ويعرف هذا القسم أيضا عند بعض المؤرخين . والجغرافيين ببلاد القيروان .(٣) ويرى بعض الباحثين المحدثين أن افريقية تعتبر أول أقاليم المغرب الحقيقى إعتماداً على بعض أقوال تنسب لعدد من المؤرخين القدامى كابن عبد الحكم وغيره .(٤)

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٤١ .
(٢) أنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق والجزء ، ص٦٨ مع الحواشي رقم : ٣٢-٣٥ أحمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ١٢ - محمود شيت خطاب : عقبة بن نافع الفهرى، ص ١٦-١٧ .
(٣) أنظر مثلا البكرى : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص٤٧- سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق والجزء ، ص ٧٠ . (نقلا عن الاستبصار في عجاب الامصار لمؤلف مجهول ،) .
(٤) أنظر سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق والجزء ، ص٦٧

٢- المغرب الأوسط ، ويمتد من بجاية أو تاهرت شرقاً حتى وادى ملوية وجبال تازا غرباً[١] : (فيما بين مدينتى تلمسان وتازا التى تعتبر ممراً يربط بين المغرب الأوسط والأقصى) [٢] . ويكاد المغرب الأوسط يشكل حالياً بلاد الجزائر الآن [٣] . أما عن عاصمته ، فقد تعدَّدت بتعدد الدول التى حكمته ، ففي عصر الدولة الرستميه كانت العاصمة مدينة تاهرت ، وفي عهد الدولة الحمادية أصبحت العاصمة مدينة أشير ، وفي عهد الدولة العبد وادية أو بنى عبد الواد ، غدت تلمسان هى العاصمة ، ثم أصبحت جزائر بنى مزغنة (الجزائر العاصمة الآن) هى عاصمة القطر الجزائرى . [٤]

٣- المغرب الأقصى ، ويمتد من وادى ملوية وجبال تازا شرقاً ، حتى المحيط الأطلسى غرباً[٥] ، أو بالتحديد حتى الساحل المغربى على المحيط الأطلسى . ويكاد

---

(١) أنظر السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص٤١- محمد على دبوز : المرجع السابق والجزء ، ص٤ - سعد زغلول عبد الحميد المرجع السابق والجزء ، ص ٦٩ .

(٢) محمود شيت خطاب المرجع السابق ، حاشية رقم (١) ، ص١٧

(٣) أنظر السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع السابق ، ص: ٤١ - أحمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص١٣- سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٦٩- محمود شيت خطاب : نفس المرجع السابق ، ص ١٦-١٧ .

(٤) أحمد مختار العبادى : نفس المرجع السابق ، ص١٣

(٥) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع السابق ، ص ٤١ - محمد على دبوز : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٤ .

يشكل المملكة المغربية[١] بحدودها المعروفة اليوم مع موريتانيا . وقاعدته أو عاصمته تعددت أيضا بتعداد الدول التى حكمته . ففي عهد الأدارسة كانت العاصمة مدينة فاس ، ثم مراكش في عهد المرابطين فالموحدين . وتنقلت العاصمة بعد ذلك بين فاس ومراكش الى أن استقرت أخيراً في مدينة الرباط إبّان الاستعمار الفرنسي للمغرب .[٢]

هذه التقسيمات التى أوردناها لم تكن محل اجماع بين المؤرخين والجغرافيين على السواء على السواء . ففي الوقت الذى نرى فيه معظم المؤرخين والجغرافيين القدامي كياقوت[٣] الحموى وصاحب الاستبصار[٤] فيعجائب الأمصار ، وابن حوقل[٥] ، ثم بعض من الباحثين المحدثين يدمجون ليبيا بولاياتها الثلاث ضمن مفهوم افريقية ، نجد السيد عبدالعزيز سالم يرى أن برقة وطرابلس تشكلان جزءاً أو قسما مغربيا مستقلا قائما[٦] بذاته . والبعض الآخر من هؤلاء المحدثين يرى أن برقة تكاد تكون إمتداداً طبيعياً لمصر ، حيث لا فوارق طبيعية[٧] تذكر . وينفرد نفر قليل جداً ، فلا يعتبر ليبيا أصلاً من المغرب كما مر بنا .[٨]

وما نستطيع قوله من خلال الاستقراء لهذا الموضوع ، هو أننا فيما عدا ماذكره السيد عبدالعزيز سالم المشار اليه قبل قليل

---

(١) احمد مختارالعبادى : المرجع السابق ، ص١٣ - محمود شيت خطاب : المرجع السابق ، ص ١٧ .
(٢) راجع احمد مختار العبادى : نفس المرجع السابق ، ص١٣-١٤
(٣) معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٨ .
(٤) فيما ينقله عنه سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق والجزء ، حاشية رقم ٣٤ ، ص٦٨ .
(٥) صورةالأرض، ص ٧١ .
(٦) أنظر السيد عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ، ص. ٤
(٧) أنظر قبل ، ص٣٣ .
(٨) أنظر أيضا قبل ، ص٣٢.

لم نعثر في المصادر القديمة أو المراجع الحديثة على ما يسوغ فصل ليبيا عن افريقية . بل ان اغلب الاقوال تشير الى أنها داخلة ضمن مفهوم افريقية ،أو على الأقل ولاية طرابلس وما يليها غرباً .

ولهذا فإن الباحث يميل الى الأخذ في الاعتبار ما سبق ذكره من تحديد لافريقية (المغرب الأدنى) بما في ذلك ولاية طرابلس. هذا أمر ، والأمر الآخر هو أنه يجب عدم افتراض وجود تناقض بين هذا المفهوم الذى يجعل من ليبيا ،أوعلى الأقل بعض أجزائها من افريقية ، وبين ماسبق أن ذكرناه من أن ليبيا داخله ضمن مفهوم المغرب فكون بعض أجزاء ليبيا تعتبر جغرافياً وتاريخياً ضمن مفهوم افريقيه ، لا يعنى التشكيك في مغربيتها كما أشرنا الى ذلك مراراً .

وعدا الاختلاف هذا في تبعية اقليم ليبيا لافريقية (المغرب الأدنى) فإن مفهوم افريقية (المغرب الأدنى) ، نفسه لم يكن واضحاً في حدوده بالضبط عند كثير من اولئك المؤرخين والجغرافيين . فافريقية في عهد الأغالبة والفاطميين كانت تعنى تونس الحالية تقريباً ، أما في عهد الزيريين ، خلفاء الفاطميين على المغرب، فقد زاد مفهوم افريقية اتساعا فشمل بعض أجزاء من المغرب الاوسط . والدولة الحمادية التى تأسست في المغرب الأوسط ، وهى دولة جزائرية بكل المقاييس توسعت حدودها فشملت بعض أراض من افريقية (١) ، لكننا نستدرك فنقول بأن هذه التفسيرات إنما هى سياسة بالدرجة الاولى ، ولا تمس حقيقة الواقع الجغرافي الطبيعى .

---

(١) اسماعيل العربى : دولة بنى حماد ملوك القلعة وبجاية ، ص٤٣-
عبد الحليم عويس : دولة بنى حماد - صفحة رائعة من التاريخ الجزائرى ،الطبعة الاولى ، ص ٧٨ ومابعدها .

والحـــدود متداخلة بين افريقية (المغرب الأدنى) والمغرب الأوسط ، ففي حين يذكر بعض من الجغرافيين أن اقليم قسنطينـــــة - في الجزائر الآن - يعتبر آخر بلاد افريقية[1] ، يرى نفر آخر ، ومنهـــم أبو الفدا ، صاحب كتاب تقويم البلدان فيما ينقله عنه عبد الحليم عويس [2] (أن المغرب الأوسط هو الذى يمتد من شرق وهران عند تلمسان مسيـــرة يوم في شرقيهـا الى آخر حدود مملكة بجاية) . والمقصود بمملكة بجايـــة هي دولة بنى حماد التى إتخذت من بجاية عاصمة لها بعد مدينتـــــى القلعة وأشير .

والأدريسى صاحبكتاب نزهة المشتاق فيما ينقله عنـــــــه عبد الحليم عويس [3] أيضا لم يشر بالضبط الى المنطقة التى يشغلهـــــا المغرب الأوسط ، وانما أشار فقط الى المدن التى يتشكل منها المغـــرب الأوسط دون رسم خط امتدادها شرقاً وغرباً . ومع هذا فقد فاتـــــه ذكر بعض مدن أصيلة في المغرب الأوسط جغرافياً وتاريخياً كتلمســـان ووهران . [4]

وابن حوقل [5] يجعل تاهرت من مدن افريقية ، بينما جـــلّ المؤرخين والجغرافيين يرون أنها من مدن المغرب الأوسط ، ولا أدل على هذا من قول صاحب كتاب الاستبصار فيما ينقله عنه ابراهيم [6] العـــدوى

---

(١) عبد الحليم عويس : دولة بنى حماد . صفحة رائعة من التاريخ الجزائرى ص ٨١
(٢) نفس المرجع السابق اعلاه ، ص ٨٢
(٣) نفســه ، ص ٨٢ .
(٤) أنظر عبد الحليم عويس : نفســـــــه ، ص ٨٢ - ٨٣ .
(٥) صورة الأرض ، ص ٩٣ .
(٦) المجتمع المغربي - مفهوماته الاسلامية العربية مع مدخـــــل عن بلاد الجزائر ، ص ١٩٦ .

مانصه : (ومن مدن المغرب الأوسط المشهورة مدينة تاهرت ، وهي مدينة مشهورة قديمة .. الخ) .

والمراكشي صاحب كتاب : المعجب في تلخيص أخبار المغرب فيما ينقله عنه عبد الحليم [1] عويس كذلك لا يفرق بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى ، بل يرى أنهما مغرب واحد . وفي هذا الصدد يتفق احمد مختار [2] العبادى مع المراكشى في هذا الرأى ، معتمدا في ذلك على التأكيد على انعدام الفواصل الطبيعية بينهما ، ويشير الى أنهما كثيراً ماكوّنا دولة واحدة في معظم العصور التاريخية . وحتى نهر ملوية ، وهو الحد الطبيعى الذى يفصل بين المغربين الأوسط والاقصى يعتبر في رأى العبادى حداً غير ثابت . ومن هنا اختلفت وجهات النظر بين القطرين كثيراً .

والآن وقد استعرضنا أقسام بلاد المغرب في العصر الاسلامي وفي العصور التى سبقته نجد من الضرورى ان نوضح معاني الألفاظ التى كثر استخدامها هنا كافريقية ، المغرب الأدنى ، المغرب الأوسط ، المغرب الأقصى .

أما لفظ افريقية من حيث أصله ومعناه واشتقاقاته فسنؤخر الحديث عنه متيحين الفرصة أولاً لشرح معانى ألفاظ : مغرب أدنى ، أوسط ، أقصى ، ثم نتصدى بعد ذلك لشرح كلمة افريقية .

يعتقد سعد زغلول [3] عبد الحميد أن لفظي : مغرب أوسط

---

(١) دولة بنى حماد ، ص ٨١ .
(٢) في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٠٣ .
(٣) المرجع السابق والجزء ، ص ٦٩ مع الحواشي .

وأقصى ظهر ابتداءا من القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى عند ما دعت الحاجة المسلمين للتمييز بين أقاليم المغرب الواسع ، فظهر لفظ المغرب الأوسط وعنى به البلاد الجزائرية اليوم تقريبا ، وعاصمته تلمسان كماذكرنا ، مع الاختلاف فيما يدخل ضمن هذا القسم شرقا وغربا حسبما وضحنا قبل قليل . ثم ظهر لفظ المغرب الأقصى وقصد به كل مايلى بلاد المغرب الأوسط شرقا حتى المحيط الاطلسى ، وهو مايعرف اليوم بالمملكة المغربية مع موريتانيا . ويتراءى لسعد زغلول (١) عبدالحميد أيضا أن تعبير المغرب الأقصى الذى كان أسبق في الظهور من تعبير المغرب الأوسط فرضته ضرورةمنطقية ، وذلك لأن بلاد الجزائر كانت تعرف مغربا بالنسبة لافريقية - وهو ماأشرنا اليه قبل ذلك من تعيين الوليد ابن عبدالملك ثم سليمان أخاه ولاه على افريقية والمغرب(٢) - ولما كانت بلاد الجزائر في نفس الوقت مشرقا لما بقى من اراضى المغرب الممتدة حتى المحيط الأطلسى وجب أن يطلق لفظ أقصى على هذه الأرض المتبقية ، فهو (مغرب بالنسبة لمادونه من الأقاليم ، وهو ليس مشرقا بالنسبة لأى أقليم) . ومن هنا كان من المنطق أن يطلق على هذا الجزء من المغرب : المغرب فقط أوالمغرب الأقصى . (٣)

واخيراً ينبغى الإشارة الى أن اصطلاح المغرب الأدنى لم يعرفه المؤرخون والجغرافيون القدامى (٤) ، بل عرفوا مايدل عليه باسمافريقية أو بلاد القيروان كما ذكرنا . ويعود الفضل في استخدامه كما يبدو لى للباحثين المحدثين (٥) الذين رأوا أنمن ضرورات المنطق

---

(١) المرجع السابق والجزء ، ص ٦٩ .
(٢) أنظر قبل ، ص ٢٩ .
(٣) سعد زغلول عبدالحميد ، نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٧٠ .
(٤) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٦٩-٧٠
(٥) أنظر السيد عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ، ص٣٩- ٤١ - أحمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص١٢- ١٣ - محمد على دبوز : المرجع السابق والجزء ، ص ٤-٥ .

أيضاً أن يشار الى هذه الأراضي التي تعرف باسم افريقية بالمغرب الادني طالما أن هناك مغربا أوسط وأقصى ، وهذا الاستنتاج يبدو لي أنه يحمل كثيرا من عناصر الوجاهة .

أما التعبير الفني : أدني - أوسط - أقصى ، فقد جاء انطلاقا من بعد أو قرب هذا الاقليم أوذاك من المشرق ، أو بالتحديد من عاصمة الدولة الاسلامية في المشرق . فقيل أدنى لانه أدنى ، أو أقرب بلاد المغرب لدار الخلافة بالحجاز والشام والعراق ، وقيل أقصى لأنه أبعد أو أقصى أقسام المغرب عن دار الخلافة . (١)

- كلمة افريقية : أصلها - معناها ومفهومها :-

لكلمة افريقية عند المؤرخين والجغرافيين قدامى ومحدثين عربا اكانوا أم غير ذلك عدة تفسيرات متباينه كثيرا . ولا تخلو بعض تلك التفسيرات في الواقع من الطابع الاسطورى ، بل وطابع الطرافة أيضا . ولم تقتصر تلك التفسيرات على أصل الكلمة فحسب بل تعدت الى مفهومها أوماتدل عليه جغرافيا . وهذا التباين شمل بالاضافة لذلك الاختلاف في البناء الاملائي للكلمة نفسها .

فبادئ ذي بدء ، اذا أردنا أن نرسم بناء الكلمة الاملائي لوجدنا أن هناك من يرسم كلمة أو لفظة افريقية بكسر الهمزة ، وبعض آخر يصر على فتح الهمزة غير أن ماتجب الاشارة اليه هنا ، هو أن معظم المؤرخين والجغرافيين القدامى والمحدثين يميلون الى كسر الهمزة . والأمر أعسر من أن نسوق الاثباتات على هذا من بطون تلك المؤلفات التاريخية والجغرافية ، فهى مبثوثة في كل سطر ،

---

(١) أنظر السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٤١ - محمد على دبوز : المرجع السابق ، والجزء ، ص ٤ .

وردت فيه كلمة أو لفظة افريقية . أما الذين يميلون الى الفتح كما قلنا فانهم لا يشكلون سوى نسبة ضئيلة جدا . (١)

وثمة خلاف املائي آخر بين اولئك المؤرخين والجغرافيين ، فالغالبية منهم يضبطون كلمة افريقية على الصورة التالية : إِفْرِيقِيَّةَ ، (بكسر الهمزة ، وسكون الفاء ، وبعد الراء المكسورة ياء ساكنة ، وقاف مكسورة ، وياء مشددة) . (٢)

غير أن دائرة المعارف الاسلامية تنسب في مادة افريقية للمستشرق فليشر Flischer قوله : إن افريقية بتخفيف الياء أضبط من افريقية بتشديد الياء . (٣) وكأنما كان فليشر ينظر بطرف خفي لأبي الفداء في كتابه : تقويم البلدان ، فيما ينقله عنه محقق كتاب الرصاع (٤) في رسمه لكلمة افريقية ، اذ يقول : (افريقيا قال في تقويم البلدان بقصد المحقق أبا الفداء - بفتح الهمزة وسكون الفاء وكسر الراء المهملة ، وسكون الياء ،

---

(١) من أولئك النفر اليسير ، أبو الفداء صاحب كتاب تقويم البلدان ، فيما ينقله عنه محمد العنابي محقق كتاب فهرست الرصاع ، الحاشية رقم ٣ ، ص٦٨ - ومن المحدثين كذلك هناك اسماعيل العربي في كتابه : دولة بني حماد - ملوك القلعة وبجاية ، ص١٧-٣٥ وغير ذلك من الصفحات .

(٢) الطاهر أحمد الزاوى : معجم البلدان الليبية ، الطبعة الاولى ، ص٨ (نقلا عن كتاب معجم ما استعجم للبكرى) .

(٣) أنظر دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، المجلد الثالث، ص٥٨١ .

(٤) نفس المصدر اعلاه ، والحاشية والصفحه .

المثناة تحت وكسر القاف ومثناه بعدها في الآخر) .

والغريب في الأمر أن محقق الرصاع فهم اعتراض فليشر مقلوباً ، فبعد أن أورد رسم الكلمة على النحو المشار اليه آنفاً ، قال : وهذا أضبط من افريقية بتشديد الياء ، وهو ما يراه الباحث فليشر[1] . ن . هـ. ومع أن فليشر كما مر بنا هو الذى أشار الى أن التخفيف أضبط لليـاء من التشديد .

ولا خلاف بين معظم المؤرخين والجغرافيين في رسم الكلمة بحروفها السبع : افريقية الا ماورد قليلاً في اختلاف رسمها على هذا النحو :افريقيا بحذف التاء المربوطة ، وإبدالها ألفا ممدوة . ومن أولئك ابى الفداء في كتابة تقويم البلدان ، فيما ينقله عنه محقق الرصاع كما ذكرنا سابقا ، ثم ابن حوقل الذى يرسمها كذلك في بعض مواطن كتابه سالف الذكر[2]

وما نود أن نختتم به الحديث حول هذه النقطة هو أن معظم أولئك المؤرخين والجغرافيين القدامى والمحدثين قد تعارفوا - الاّ قليلاً منهم - على رسم كلمة افريقية بدون استخدام التشديد مع اهمال كسر الهمزة أحيانا . وهذا فيما يبدو لى ربما يكون من قبيل التصور بأن كسر الهمزة وتشديد الياء غدا أمرا مبتوتا فيه ، بحكم شيوع الاتفاق عليها . ومن هنا تساهلوا في اهمال ذلك عرفا .

أما أصل كلمة افريقية وما تعنيه ، فهو ما تباينت فيه وجهات

---

(١) أنظر الرصاع : فهرست الرصاع ، حاشية رقم٣ ، ص٦٨ .
(٢) انظر صورة الأرض ، ص ٩٣

النظر كثيراً بين المؤرخين الجغرافيين المسلمين وغيرهم من القدامى والمحدثين . ولم يثبت البحث التاريخي حتى الآن صحّة أصل هذه الكلمة ، وما دار ويدور من نقاش ، إنما هو مجرد إفتراضات فحسب .

والتباين متشعب ، فمن الاختلاف في كون الكلمة هي في الأصل اسم لمكان ، الى الاختلاف في أنها اسم لقبيل أو لشخص ، ثم أعطيت للمكان ، الى القول بأن معناها مشتق من معنى لغوى ، إرتبط بالكلمة . . الخ .

وعلى أية حال فإن من الأقوال التى حبّذت أنها اسم لمكان ما ذكره سعد زغلول [1] عبد الحميد من أنها اسم للمكان الذى حددناه سابقا لافريقية . أما ما ذكر من أنها اسم لقبيل ، ثم اعطيت للمكان ، فهو ما ورد من أنها نسبة الى الافارقة الذين هم أهلها - وهم أحد الشعوب الذين وجدهم العرب في المغرب إبّان الفتح وينسبون الى فارق [2] أو فاروق [3] بن مصريم أومصرايم - وعند القلقشندى في كتابه صبح الأعشى فيما ينقله عنه سعد زغلول [4] عبد الحميد ، فاروق ابن بيصر بن نوح .

أما التفسيرات اللغوية التى استشفت من لفظ الكلمة اللغوى ،

---

(١) المرجع السابق والجزء ، ص ٦٧

(٢) البكرى : المغرب في ذكر افريقية والمغرب، ص ٢١ .

(٣) ابن أبى دينار : المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، الطبعة الثالثة تحقيق وتعليق محمد شمام ، ص ١٩ .

(٤) نفس المرجع اعلاه والجزء ، حاشية رقم ٣١ ، ص ٦٧-٦٨ .

فقد تعددت أيضا . ففريق من الغربيين (١) يرى ان افريقية ، كما يذكر الحسن بن محمد الوزان الزياني ، وابن ابى دينار مشتقة من كلمة فَرَقَ ، ذلك لأن بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) قد فرق بينها وبين قارة أوروبا ، مثلما فرق البحر الأحمر بينهما وبين قارة آسية . وهى مفرقة أيضا لأنها واقعة بين الشرق والغرب .

وثمة تفسير لغوى آخر ، أشار اليه ابن ابى دينار (٢) ، فيما ينقله عن ابن الشَّباط التوزرى صاحب كتاب :" صلة السمط وسمة المرط " ، وهو أن افريقية تدعى أيضا ابرقية ، أى مشتقة من البرق ، أو البريق ، وعلل ذلك بأن افريقية تخلو من السحاب . غير أن ابن ابى دينار تصدى لهذا التعليل ، فذكر بأن هذا القول بعيد ، لأن افريقيا كانت كثيرة السحب، ولا تكاد سماؤها تخلو منه معظم العام . ومدينة القيروان قصبتها - أى عاصمتها لفترة طويلة من الزمن - تظللها السحب دائما .

ومن التفسيرات اللغوية أيضا ما استخلصه البعض من الباحثين من قول عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص، حينما استأذنه بفتح افريقيه فقال له : (افريقية المفرقه ثلاث مرات ، لا أوجه اليها أحدا ما مقلت عينى الماء) . فاستخلصوا من هذا تفسيرا لغويا يتعلق بصعوبة فتح ذلك الاقليم من المغرب. (٣)

ويعتقد المستشرق ديسبورج " DESBOURGH " أن كلمة افريقية مأخوذة من الكلمة السنسكريتية : ابرا " APARA " وكلمة

---

(١) انظر دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثالث، ص ٥٨١ - ٥٨٢ .

(٢) أنظر المؤنس في أخبار افريقيا وتونس ، ص ١٩ - دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثالث ، ص ٥٨١ .

(٣) أنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق والجزء ، حاشية رقم ٣١ ، ص ٦٧-٦٨ وكذلك حاشية رقم ٥٣ ، ص ١٤٣ .

ابرا ، هذه تطلق في اللغة الهندية على ماوراء نهر الكنج ، وفي نفس الوقت تدل على الاتجاه القوى . وكلمة ابرا APARA قريبة من كلمة APRICA ابريكا القريبة الشكل من الكلمة الأوربية أفريكا" (١)

غير أن اسماعيل العربى ، يقلّل من قيمة هذا الاستنتاج الذى توصل اليه ديسبورج ،فهو يستبعد أن تكون كلمة ابرا ذات المعنى الغامض يقصد بها افريقيه التى تبعد عن الهند آلاف الأميال وكان ممكنا في رأيه لهذا الإفتراض أن يكون وجيها ،لو أن هذا اللفظ أطلق على مايلى الهند غربا من البلاد الآسيوية وغيرها . (٢)

ومن الاشتقاقات اللغوية التى تحمل طابع الطرافة أكثر مماتحمل من التعليل العلمى ماأورده اسماعيل العربى من اشتقاق لغوى لكلمة افريقية يعزى الى الشاعر اللاتينى : فرجيل . اذ يذكر فرجيل أن معنى هذا الأسم إما أن يكون ذا أصل لاتينى " AFRICA " ويعنى حينئذ الأرض المعرضة للشمس ، وإمّا أن يكون من اصل اغريقى " " فيصبح معناه الأرض المحرومة من الشمس . (٣)

وأخيرا فان المستشرق بوشار " BOCHART " الذى يصفه اسماعيل العربى بأنه أحد علماء اللغات القديمة يرى ان افريقية مشتقة من لفظ فينيقى معناه : السيف ،وأن هذه التسمية " افريقية " ترمز الى مايتوفر في هذا الأقليم من خصوبة وخيرات. (٤)

---

(١) اسماعيل العربى : دولة بنى حماد ، ص ١٩ .
(٢) اسماعيل العربى : نفس المرجع أعلاه ، ص ١٩-٢٠
(٣) اسماعيل العربي : نفسه ، ص ٢١ .
(٤) اسماعيل العربى : نفسه ، ص ١٩ .

ولندع الآن هذه التفسيرات ، لنستعرض التفسيرات الأخرى التى كانت بحق الأكثر تداولا وشيوعا . والواقع أن هذه التفسيرات التى سنتعرض لها تتكون من اتجاهين : اتجاه غربى يقوده بعض من المستشرقين الأجانب - ويوافقهم عليه بعض من الباحثين المسلمين - واتجاه آخر قاده معظم المؤرخين والجغرافيين والاخباريين المسلمين القدامى . وهذا الاتجاه سنؤخر الحديث عنه لكى نعرض الاتجاه الغربي .

يرى كثير من الباحثين الغربيين ، ويوافقهم عليه بعض من الباحثين المسلمين أن لفظ افريقية محرف عن الكلمة اللاتينية أفريكا " AFRICA " التى أطلقها الرومان على أرض قرطاجنة أو بالاحرى دولة قرطاجنة الفينيقية ، وذلك بعد أن نظمت شؤون هذه البلاد إبّان احتلالهم لها . وعلى هذا فقد أصبح هذا اللفظ يشتمل على بلاد البربر التي هي بلاد المغرب(١) . ثم عرفت بعد ذلك - أى هذا الجزء من المغرب - باسم افريقية القنصلية كما مر بنا سابقا . (٢)

ومع أن بعض الباحثين المسلمين اليوم يتفقون مع هذا التفسير إلا أنهم يرون أن الذى أطلق لفظ أفرى " APHRI " الذى أشتقت منه كلمة افريقية هم الفينيقيون ، وقد أطلقوه على أهل البلاد الأصليين - البربر - الذين كانوا يقطنون مدينه UTICA يوتيكا ، العاصمة القديمة قبل أن تصبح قرطاجنة العاصمة الجديدة للبلاد ، وعن الفينيقيين استمد الرومان ذلك اللفظ وأطلقوه بدورهم على أهل البلاد الأصليين . وهكذا فقد أصبحت تلك المنطقة من المغرب تعرف

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثالث، ص ٥٨١ .
(٢) أنظر قبل ص ٣٥ .

بأفريكا ، أى بلاد الأفرى . (١)

واتسع المدلول شيئا فشيئا باتساع نفوذ الرومان على افريقية والمغرب، وأخذت الشعوب التى تلت الرومان في حكم المغرب وهم الوانـدال ، والبيزنطيين هذا اللفظ وبذلك التحديد ، حتى جاء العرب الى هذه البلاد فاتحين ، فأخذوا اللفظ من البيزنطيين (٢) بعد أن عرّبوه الى افريقية.

والذى يبدو من هذه الأقوال أن محرر مادة افريقية في دائرة المعارف الاسلامية ، وكذلك حسين مؤنس فيما ينقله عنه سعد زغلول عبدالحميد ، ومحمود شيت خطاب فيما ينقله عنهما قد اعتمدوا رواية المؤرخ الفرنسي " أ . ف جوتييه" GAUTIER " في كتابه : ماضى شمال افريقيا أو العصور الغامضة للمغرب، فهو كما يظهر أول من أشار الى هذا التفسير. (٣)

وأخيرا وفيما يتصل بهذا الاتجاه ، يعتقد اسماعيل العربى أن الرواية الغربية التى يمكن قبولها نظراً لاعتمادها على مصادر قيمة في رأيه ، هى التى تشير الى أن (افريقية كان هو الاسم القديم لقرطجنة وقد أطلقت التسمية فيما بعد ، لتشمل المناطق التى تمتد شرقا حتى مصر ، ثم اتسع مدلولها عند الرومان وأوروبا اللاتينية ليشمل غير هذه المنطقة) . (٤)

---

(١) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق والجزء ، ص ٦٧-٦٨ مع حاشية رقم ٢٦ - محمود شيت خطاب: المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٢) محمود شيت خطاب: المرجع السابق ، ص ١٥-١٦

(٣) أنظر اسماعيل العربي : المرجع السابق ، ص١٩

(٤) دولة بنى حماد : ص ٢١

والآن ماذا تقول الرواية العربية لكلمة افريقية والتى غطت اكبر مساحة من التفسيرات التى تناولت هذا الموضوع ؟ نقول هذا مع ضرورة الملاحظة بأن في صلب هذه الرواية العربية أقوال أقل اجماعا من البعض الآخر .

يقول البكرى في تفسيره لكلمة افريقية : (قال قوم إنها افريقية أى صاحبة السماء)[1] ، وفي موضع آخر يقول : وقيل سميت بافريق ابن ابراهيم عليه السلام من زوجته الثانية فطورى[2] ، كما يذكر مانصه أيضا : (وقد زعموا أن اسم افريقية لبيية سميت بنت ياقوه بن يونش الذى بنى مدينة منفيش بمصر وهى التى ملكت ملك افريقية أجمع قسمي بها)[3]

ويعلق سعد زغلول عبد الحميد على هذه الآراء بقوله انها روايات يمنية الأصل وتنسب الى الأخبارى اليمنى المشهور : وهب بن منبه الذى يشكك كثيرون في أقواله .[4]

ومن الأقوال أيضا أن افريقية نسبة الى الأفارق الذين سموا بهذا الاسم لأنهم من ولد فارق بن مصريم أومصر ايم أ فارق بن بيصر بن نوح كما مر بنا في التفسير اللغوى .[5]

هذه الروايات أقل اجماعا عند المؤرخين والجغرافيين

---

(١) المصدر السابق : ص ٢١
(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٢١ .
(٣) نفس المصدر والصفحه .
(٤) أنظر المرجع السابق والجزء ، حاشية رقم ٣١ ، ص ٦٧ - ٦٨ .
(٥) أنظر قبل ، ص ٤٧ .

القدامي ، غير أن الرواية الأكثر تداولا وشيوعا ، هي التي تذكر بأن افريقية سميت بذلك الاسم نسبة الى افريقيش بن ابرهة بن الرائشي الذى غزا هذه البلاد في وقت غير محدد تاريخيا ، وقتل ملكها وأمر أن تبنى مدينة هناك : تسمى افريقية التي اشتق اسمها من اسمه ، تم مالبث أن نقل اليها الناس . ولم يمض وقت طويل حتى نسيت البلاد كلها الى هذه المدينة . (١)

على أن معظم أولئك المؤرخين والجغرافيين فيما ينقلوه عن هشام بن الكلب عالم الأنساب العربي المعروف يذكرون نسبا آخر لافريقش، فيقولون انه يدعى أيضا افريقش ابن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان (٢) ، ويشيرون الى أنه هو الذى غزا المغرب وسمي البربر بهذا الأسم ، عندما لاحظ اختلاط أصواتهم غير المفهومة ، فقال لهم : ما اكثر بربرتكم ، ثم غادر المغرب تاركا فيه بعض قبائل حمير كصنهاجة وكتامة . (٣)

---

(١) أنظر البكرى : المصدر السابق ، ص٢١ - ياقوت الحموى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٨ - ابن ابى دينار : المؤنس في أخبار افريقيا وتونس ص ١٩ - دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثالث ، ص ٥٨١ ، سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق، الجزء الثانى ، حاشية ٣١ ، ص ٦٧ - ٦٨ اسماعيل العربى : المرجع السابق ، ص ٢٣ ، الطاهر احمد الزاوى : معجم البلدان الليبيه ، ص ٣٨ . (نقلا عن البكرى في معجم ما استعجم) .

(٢) أنظر مثلا ابن ابى دينار : نفس المصدر اعلاه ، ص ١٩ - اسماعيل العربي : نفس المرجع السابق اعلاه ، ص ٢٤ .

(٣) ابن أبى دينار : المصدر السابق أعلاه ، ص١٩ .

ومما يذكر في هذا الصدد أن لفظ افريفس بالسين المهملة ثم عربه العرب بالسين المعجمة [١] ، وقد خفف هذا اللفظ افريقيس كما يذكر البكرى في كتابه : معجم ما استعجم فيما ينقله عنه الطاهر أحمد الزاوى الى اقريقس [٢] . ويعقب الزاوى بقوله : (ثم تصرف فيها الى أن صارت افريقية) . [٣]

ويرى ابن خلدون فيما ينقله عنه اسماعيل العربى [٤] ان غزوات التبابعة للمغرب قد تعددت ، وقام بها من ملوكهم : العبد بن أبرهة أخ افريقيش المذكور سابقا ، ثم ناشر بن عمر بن يغفر الذى يعرف بياسر أنعم .

ولا يرى اسماعيل العربى [٥] ، ونحن نميل الى ما يرى في هذه الأقوال ما يرقى بها الى التسليم والموافقة . فلقد مضى يفند ها تفنيدا لا يتسع المجال هنا الى ايراد ذلك . بل انما ما يمكن استخلاصة من ردوده هو أن تلك الروايات التى تصعد الى ابن الكلبى مشكوك فيها جملة وتفصيلا ، ويرى أن الرواية تلك التى تعزو لافريقش الحميرى غزو افريقية (تخلط بين اشخاص في عمل واحد تفصل بينهم نيف وألف وخمسمائه سنة ، وذلك في نسيج مهلهل يسوده الطابع الأسطورى) وهذا الرأى الذى توصل اليه اسماعيل العربى هو نفسه تقريبا ما استخلصه سعد زغلول عبد الحميد من تلك الرواية العربية المضطربة ، فهو يراها

---

(١) ابن ابى دينار : المصدر السابق ، ص ١٩
(٢) معجم البلدان الليبيه ، ص ٣٨ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٨ .
(٤) دولة بنى حماد ، ص ٢٤ - ٢٦
(٥) نفس المرجع السابق ، ص ٢٦ - ٢٩

يراها أقرب للطابع الأسطورى من التعليل العلمى الحقيقي . (١)

ونختتم الحديث عن هذا الاتجاه بقول اسماعيل العربى (٢) (على أن المشكلة الجوهرية في رواية غزو افريقش لأفريقية الشمالية تتصل بالمصدر الذى نقلت عنه ، أو بالأحرى بالثقة التى يمكن أن نوليها لذلك المصدر ، وهو هشام بن الكلبى) .

والآن وبعد هذه الجولة الواسعة مع التفسيرات المختلفة لكلمة افريقية لا يبقى أمامنا الا تحديد مفهوم هذا اللفظ . والواقع أنه حتى فيما يتعلق بمفهوم هذه الكلمة تعددت الآراء والأقوال ، فالبكرى (٣) يذكر أن (حد افريقية طولها من برقة شرقا الى طنجة الخضراء غربا) ويوافقه في رأيه هذا ياقوت الحموى (٤) ، وصاحب كتاب الاستبصار فيما ينقله عنه اسماعيل العربى (٥) وهذا المفهوم كما يتضح لنا يعادل تقريبا مفهوم المغرب كله .

على أن هناك من المؤرخين والجغرافيين من يذكر أن مدلول أو مفهوم افريقية هو ماسبق وأشرنا اليه من أنه يعنى البلاد التونسية الان مع أجزاء من ليبيا وكذلك أجزاء من الجزائر . ومن هؤلاء : ابن سعيد المغربى فيما ينقله عنه اسماعيل العربى (٦) ، وابن ابى دينار (٧) وابن خلدون فيما ينقله عنه عبده قلقيلة . (٨)

---

(١) تاريخ المغرب العربى ، ج ١ ، ص٦٧- ٦٨ مع الحواش ٣٠ ، ٣١
(٢) دولة بنى حماد : ص ٢٩ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢١
(٤) المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٨
(٥) نفس المرجع السابق اعلاه ، ص ٣٤ - حاشية رقم ٣٨
(٦) نفس المرجع السابق اعلاه ، حاشية رقم ٣٩ ، ص ٣٤
(٧) المؤنس في اخبار افريقيا وتونس، ص ١٩
(٨) النقد الأدبى في المغرب العربى ، ص ١٥

ومهما يكن من أمر ، فقد غدا لافريقيةمفهومان [1] :
مفهوم عام ،وهو الذى يكاد يعادل مفهوم المغرب كله تقريبا ومفهوم خاص، وهو الذى يعادل المغرب الأدنى كما ذكرنا من قبل . هذا بالاضافة الى اطلاق اسم افريقية على القارةكلها ،وهو من قبيل اطلاق الجزء على الكل ، واطلاق الكل على الجزء .

وعلى أية حال ،فان المفهوم الذى سنعتمده كاطار جغرافي للحياة العلمية في الفترة الزمنية التى حددناها للبحث ، هو مفهوم افريقية (المغرب الادنى) الخاص الذى يمتد من طرابلس شرقا حتى مدينة بجاية ، أو تاهرت (في الجزائر الحالية) غربا .أىالمفهوم الذى يعنى الآن كل البلاد التونسية اليوم ، مع الأجزاء الغربية من ولاية طرابلس في ليبيا ، وبعض الاجزاء الشرقية من الجزائر الآن .

---

(١) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق ،والجزء ص ٦٨ - محمود شيت خطاب : المرجع السابق ،ص ١٥ .

- عرض موجز للأحوال السياسية في افريقية (المغرب الأدني) في الفترة الزمنية موضوع الرسالة :-

في دراسة مظاهر الحياة العلمية لمدينة أو اقليم أو دولة ما ، تستدعى الحاجة المنطقية ايضاح صورة وشكل المناخين : الجغرافي والسياسي ، اللذين نشأت فيهما وبهما تلك الحياة العلمية . ذلك لأنه لا يمكن فهم طبيعة الحياة العلمية بما تحتويه من أوجه المعارف والعلوم المختلفة ، دون أن نسترشد بالواقع الجغرافي الذى يحتويها وكذلك بالواقع السياسى الذى يغذيها وينميها سلبا أو ايجابا .

أما وقد تهيأ لنا ايضاح الجانب الأول من هذا التصور ، وهو مدلول لفظ افريقية (المغرب الادنى) - والمغرب لكل اقتضاءً - ، جغرافيا وتاريخيا ، فلا يبقى أمامنا سوى أن نستعرض بايجاز -غير مخل - الأحوال السياسية في مغربنا الأدنى في الفترة الزمنية موضوع الرسالة.

ولعل من تحصيل الحاصل الاشارة الى أن ازدهار الحياة العلمية في المغرب الأدنى - وفي المغرب عامة - قد إرتبط المناخ السياسي بصورة يصعب فصلها أو اجتزاؤها ، بل إن الحياة العلمية تدين في كثير من تقدمها وتطورها للعامل السياسى الذى يتعهدها ويحوطها بكل أسباب التفوق والنموغالبا .

فكرة فتح المغرب :

لم يكد يمر عقد واحد من السنين على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى كانت الأقطار التى تقع شمالى الجزيرة العربية وغيرها تخضع للنفوذ الاسلامي . فلقد قُدِّر للمسلمين ان يضعوا ايديهم على مقدرات الأمور في كل من الشام والعراق وفارس ومصر في هذه الفترة الزمنية القصيرة جدا .

ولقد تطلع عمرو بن العاص فاتح فلسطين ومصر الى متابعة الجهاد والغزو في سبيل الله فيما يلى مصر غربا ، أى برقة وطرابلس اللتين تعتبرا ، أول بلاد المغرب من جهة ، ولتأمين فتح مصر وبلاد الشام من جهة أخرى (١) ، ولذلك فماكادت تستقر له وللمسلمين الأوضاع في مصر ، حتى يمّم وجهه نحو المغرب قاصدا برقة ، وذلك في سنة ٢١ (٢) ، أو ٢٢ (٣) هـ . ولقد تهيّأ لعمرو بن العاص ولقادته العسكريين من أمثال عقبة بن نافع وغيره ، أن يفتح ليبيا بولاياتها

---

(١) يرى كثير من المؤرخين المحدثين - وهم محقين في ذلك - أن تطلع عمرو بن العاص لفتح افريقية ، كان ضرورة استراتيجيه لتأمين فتح مصر ، ويرون أنه كما فرضت الظروف فتح مصر لتأمين فتح فلسطين وبلاد الشام ، فقد فرضت هنا فتح المغرب لتأمين فتح مصر والفتوحات كلها . تماما مثلما فرضت الضرورة العسكرية فتح فارس لتأمين فتح العراق وفتح فارس قاد ايضا الى فتح اواسط آسيا والهند .
أنظر محمد التونجي : عقبة بن نافع فاتح ليبيا والمغرب ، ص ٢٤ - ٢٥ ، ص ٢٩ - سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق والجزء ، ص ١٣١ .

(٢) أنظر السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٥٥

(٣) أنظر سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١٢٧ ، ١٣٠ ومابعدها .

الثلاث : برقة وطرابلس وفزان في مدة قصيرة وبسهولة ويسر ودونما مقاومة تذكر . (١)

وعندما فرغ من فتح ليبيا ، فكر في فتح افريقية التي كانت تخضع لنفوذ القائد البيزنطي جريجوريس (٢) ، أو جرجير كما تسميه المصادر الاسلامية ، إلاّ أنه فضل استئذان الخليفة عمر بن الخطاب في ذلك. لكن الخليفة رفض ذلك وطلب اليه العودة ، فعاد عمرو أدراجه نحوالفسطاط مكرها . وسواء أكان ذلك تنفيذا لطلب الخليفة كما ذكرت المصادر ، أم كان نتيجة لتخوف عمرو بن العاص نفسه من التوغل في أرض افريقية الشرقية ، حيث وطن جرجير نفسه للمقاومة ، أم كان رجوعه الى مصر لتدارك الأوضاع فيها بعد أن نكث الروم بعهدهم فإن عمرا عاد الى الفسطاط لتفاجأ الأمة الاسلامية بمقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب في أواخر سنة ٢٣هـ/ ٦٤٣م. (٣)

---

(١) عن فتح ليبيا بولاياتها الثلاث ، راجع سعد زغلول عبدالحميد نفس السابق والجزء ، ص ١٣٠ - ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ (فيما ينقله عن المصادر الاسلامية الاولى ككتاب فتوح مصر والمغرب والاندلس لابن عبدالحكم ، وكتاب فتوح البلدان للبلاذري وغيرها)- السيد عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٥٥ - ٦٤ (فيما ينقله عن المصادر الاسلامية الاولى ايضا) .

(٢) أنظر السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٥٥ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٥٣ - أحمد مختار العبادي : المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٣) عن هذه الاحداث والآراء المتباينه في مسألة عودة عمرو بن العاص الى الفسطاط ، راجع سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١٤٣ - ١٤٤ ، ١٤٥ (فيما ينقله عن المصادر والمراجع العربية والمعرّبة الكثيرة) .

مراحل فتح بقية المغرب العربي : ٢٣ - ٩٠هـ :

استغرق فتح المغرب مدة طويلة (٢٣ - ٩٠هـ) مقارنة بغيرة من الفتوحات الاخرى . ويعزو كثير من المؤرخين والباحثين المحدثين ذلك الى عدة عوامل ، كانت سببا في اطالة أمد [1] الفتح وبطبيعة الحال فنحن لا يهمنا من هذا الاّ الإشارة الى أن المغرب شهد خلال تلك الفترة عدة حملات ، بعد أن مهدت حملة عمرو بن العاص الطريق الى ذلك ، فلقد تتابعت الحملات بدءا بحملة عبد الله بن سعد بن ابي السرح ، وحملة معاوية بن حديج ، ثم حملة عقبة بن نافع الأولى ، فحملة أبي المهاجر دينار ، ومرورا بحملة عقبة بن نافع الثانية ، فحملة زهير بن قيس ، وانتهاء بحملتي حسان بن النعمان ، وموسى بن نصير.

ولقد تمخض عن هذه الحملات عدة نتائج ايجابية إنعكس أثرها على بلاد المغرب وعلى الفتح الاسلامي نفسه ، مثل القضاء على النفوذ البيزنطي تماما في بلاد المغرب [2] ، ثم اسلام البربر بجذعيهم الكبيرين :

---

(١) عن العوامل التي أدت الى اطالة أمد الفتح ، أنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، والجزء ، ص ١٢٩ - أحمد مختار العبادي : المرجع السابق ، ص ٤٩ - ٥٠ - ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، الجزء الأول ، ص ٨٧ - ٨٩ . وغير ذلك من المراجع .

(٢) عن القضاء على النفوذ البيزنطي في المغرب ، وجهود عبد الله ابن سعد بن أبي سرح ، وحسان بن النعمان في ذلك أنظر المالكي : رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٣٠ - ١٣٨ - ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٣٤ - ٣٩ - ابراهيم حركات ، نفس المرجع اعلاه والجزء ص ٩٦ - ٩٧ - سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق أعلاه والجزء ص ٢١٤ - ٢٤٥ - السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ١٥٤ - ١٦٥ - حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقية ، الجزء الاول ، ص ١٥٩ .

البترو البرانس ، بعد أن نجحت جهود بعض هؤلاء الفاتحين في استمالتهم نحو الاسلام . والحق أن البربر لم يستجيبوا في بداية الأمر للاسلام والمسلمين ، فقاوموا أشد المقاومة[1] . ولكن عندما تبين لهم حقيقة الدين الاسلامي وتعاليمه السمحه ، أقبلوا على اعتناقه اقبالا عظيما ، الى الدرجة التى يمكن القول معها بأن فتح المغربين الأوسط والأقصى إنما تم بمشاركة العرب والبربر المسلمين حديثا ليس هذا فحسب ، بل إن فتح اسبانيا يدين في كثير من جوانبه لهؤلاء البربر .

ولقد ترتب على هاتين النتيجتين الكبيرتين ، وهما زوال النفوذ البيزنطى ، واسلام البربر ، أن خلص المغرب جميعه الى النفوذ الاسلامي ، واصبح بذلك ولاية من ولايات الدولة الاسلامية ، مُصّرت مثلها مثل غيرها من الأمصار الأخرى المفتوحة. هذا ولا يفوتنا في هذا الصدد أن نشير الى الأثر الايجابى الذى ترتب عليه بناء القيروان على يد عقبة بن نافع عام ٥٠ هـ . فلقد أدى بناؤها الى تثبيت الفتح الاسلامي في هذه البلاد . [2] علاوة على الدور العلمى والثقافي الذى لعبته منذ تأسيسها في نشر الاسلام بين البربر .

---

(١) عن مقاومة البربر للمسلمين ، ثم إعتناقهم للاسلام بعد اقتناعهم ، واسهامهم في فتح بقية المغرب واسبانيا ، أنظر المالكى : نفس المصدر السابق والجزء، ص ٢٩ ـ ٣١ - ٣٨ ابن عذارى : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ٢٥ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٨ - سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ، ص ١٩٠ - ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ - السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٥٨ ، ١٦٤ - حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقية ، ج ١ ص ١٥٩ ، ومابعدها - شارل اندرى جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية - تونس - الجزائر - المغرب الاقصى من الفتح الاسلامي الي سنة ١٨٣٠م ، الجزء الثاني النشرة الثانية ، ص ٢٠ .

(٢) عن القيروان وظروف بنائها ، وأسباب اتخاذها في ذلك الموضع أنظر محمد التونجي ، عقبة بن نافع فاتح ليبيا والمغرب ، ص ٢١ - ٢٢٢ - محمود شيت خطاب : المرجع السابق ، ص ١٢٢ - ١٢٧

يبقى أن نشير أخيرا الى أن ضرورة التسلسل التاريخي والموضوعي للأحوال السياسية للمغرب في تلك الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، هي التي قادتنا الى ذكر هذه الخلاصة عن فتح المغرب ومراحله والاّ فإنه من غير المنطقي أن نبحث خلال هذه الفتوحات عن الحياة العلمية بكافة أوجهها ، لأن ذلك أمر لا يستقيم له منطق في ظل الفتوحات وعدم الاستقرار . ومع ذلك فلا يمكننا ان نستبعد ظهور مؤشرات حركة علمية توحي بها المحاولات المستمرة لنشر الاسلام بين البربر . وهل يمكن حدوث ذلك دون أن تصحبه عملية تعلم البربر لاصول ومبادئ الاسلام على يد الصحابة والتابعين الذين كانوا يصحبون هذه الحملات في غدوها ورواحها ؟؟ . مع ما يصحب ذلك من انتشار اللغة العربية وعاء الدين ؟ ؟

عصر الولاة : ٩٦ - ١٨٤هـ/٧١٥ - ٨٠٠م :

يلوح لبعض المؤرخين القدامى والمحدثين ، الاشارة الى أن عصر الولاة في المغرب ، هو الذى يبدأ من عام ٥٠هـ ، أى منذ حملة عقبة بن نافع الاولى (١) ، ويصر بعضهم على ذلك فيذكر أن عددهم بلغ ستة وعشرين أميرا بدءا بعقبة بن نافع وحتى محمد بن مقاتل العكى ، أى منذ عام ٥٠ هـ - حتى عام ١٨٤هـ . (٢)

لكننا في الحقيقة لا نذهب هذا المذهب ، فعصر الولاة كما يتراءى لنا لم يبدأ الاّ منذ اللحظة التى تم فيها فتح المغرب جميعه ، بحيث يكون الوالى : حاكما مدنيا أكثر منه حاكما عسكريا (٣) . ولهذا فحتى حملة موسى بن نصير - ناهيك عن حملة حسان بن النعمان - كما يبدو لنا لا تنطبق عليها هذه الصفة . (٤) وعلى هذا فإننا مع الرأى

---

(١) أنظر مثلا المالكى : المصدر السابق والجزء ، ص ٦ - ٨ ، ١٨-٢٨ - ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ص ١٩ - ٤٦ - الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ، قطعة منه تبدأ من اواسط القرن الأول الى أواخر القرن الثانى الهجرى ، ص ٣٩ - ٨٩ - سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق والجزء ص ١٨٣ - ٢٦٥ .

(٢) الطاهر أحمد الزاوى : تاريخ الفتح العربى في ليبيا ، ص ٢٠٤ .

(٣) يذهب السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ١٧٥ الى أن عصر الولاة هو الذى تلى حملة موسى بن نصير ، وعنده أنه هو الذى يبدأ بولاية محمد بن يزيد مولى قريش ، وقد مهد لذلك بقوله (ولاة المغرب بعد موسى بن نصير) - أما رابح بونار فيذكر في كتابه : المغرب العربى تاريخه وثقافته ص ١٨ ، بأن عصر الولاة يطلق على الفترة التى أعقبت الفتح الاسلامي لشمال افريقيا ، ويقول ما نصه بالحرف الواحد (وقد كان الوالى فيها حاكما مدنيا اكثر منه حاكما حربيا) .

(٤) رابح بونار : نفس المرجع اعلاه والصفحة .

الذى يعتبر أن عصر الولاة هو الذى يلى حملة موسى بن نصير وحتى ولاية محمد بن مقاتل العكى .

وانطلاقا من هذا يمكننا أن نقول بأن محمد بن يزيد مولى قريش الذى ولاه سليمان بن عبد الملك ولاية افريقية والمغرب هو أول والٍ لبلاد المغرب ، وقد حكم المغرب بين عامي : ٩٦ - ١٠٠هـ، ٧١٥ - ٧١٨م ، ثم تتابع الولاة بعد ذلك في عهدى الدولة الأموية فالعباسية ، فجاء افريقية والمغرب بعده واليا كل من : اسماعيل ابن عبد الله بن أبى المهاجر ١٠٠ - ١٠٢هـ/ ٧١٨ - ٧٢٠م، ويزيد بن ابى مسلم ١٠٢ هـ/ ٧٢٠م وبشر بن صفوان الكلبى ١٠٢ - ١٠٩هـ/ ٧٢٠ - ٧٢٨م ، وعبيدة بن عبد الرحمن السلمي ١١٠-١١٥هـ /٧٢٨- ٧٣٣م ، وعبيد الله بن الحبحاب ، ١١٦-١٢٣هـ / ٧٣٤ - ٧٤١م ، وكلثوم بن عياض القشيرى ١٢٣ هـ / ٧٤١م، ثم حنظلة بن صفوان الكلبي [1] -١٢٤ - ١٢٧هـ/ ٧٤٥م ، ثم عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى الذى تغلّب على افريقية والمغرب ، وبدأ معه حكم الأسرة الفهرية حيث إعترفت به الدولة الأموية قبل سقوطها فالعباسية واليا ، لكنها مالبثت أن سحبت اعترافها به . وقد حكم

---

(١) عن هؤلاء الولاة ، أنظر الرقيق القيروانى : المصدر السابق ، ص ٩٣ - ١٢٢ - ابن عذارى ، المصدر السابق والجزء ، ص ٤٧ - ٥٩ - ابن ابى دينار: المصدر السابق ، ص ٣٩ -٢٢- محمد الباجى المسعودى :الخلاصة النقية في امراء افريقية، ص ١٢- ١٥ - سعد زغلول عبد الحميد المرجع السابق والجزء ص ٢٥٩ - ٣١٠ - السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٢٠٢ - ٢٣٧ .

المغرب من هذه الأسرة بالاضافة لعبد الرحمن ١٢٧ - ١٣٧هـ / ٧٤٥ - ٧٥٥م كل من : إلياس شقيقه ١٣٧ - ١٣٨هـ / ٧٥٥ - ٧٥٦م ، ثم حبيب ابنه أي ابن عبدالرحمن ١٣٨ - ١٤٠هـ/ ٧٥٦ - ٧٥٧م[1]

ثم عهدت الدولة العباسية بالولاية على افريقية لمحمد بن الأشعث الخزاعي ١٤٢ - ١٤٨هـ/ ٧٦٠ - ٧٦٥م، فالأغلب بن سالم التميمي ١٤٨ - ١٥٠هـ/ ٧٦٥ - ٧٦٧ م، ثم عمر بن حفص بن قبيصة المهلبي ١٥١ - ١٥٤هـ / ٧٦٨ - ٧٧١م، وبه بدأ عصر الاسرة المهلبية في المغرب كولاة من قبل الخلافة العباسية . وبعد مقتل عمر بن حفص أسندت الخلافة الولاية ليزيد بن حاتم ١٥٥ - ١٧٠هـ/ ٧٧٢- ٧٨٨م ، ثم عندما توفي خلفه ابنه داوود واليا مؤقتا ١٧٠- ١٧١هـ/ ٧٨٨م ، ثم روح حاتم شقيق يزيد ١٧١- ١٧٤هـ/ ٧٨٨ - ٧٩١م، فنصر ابن حبيب ١٧٤ - ١٧٧هـ / ٧٩١ - ٧٩٣م ، وأخيرا الفضل بن روح بن حاتم ١٧٧ - ١٧٨هـ/ ٧٩٣ - ٧٩٤م ، وبه إنتهى عهد الولاة من أسرته . [2]

---

(١) عن هؤلاء أنظر الرقيق القيروانى : المصدر السابق ، ص١٢٣- ١٤١ - ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٦٠-٧١ ، محمد الباجى المسعودى : الخلاصة النقيه في أمراء افريقية ، ص ١٥ - ١٨ سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق والجزء ، ٣١٠- ٣٣٩ - السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق ، ٢٣٧ - ٢٥٢ ،

(٢) الرقيق القيروانى : نفس المصدر السابق ، ص ١٤٢- ٢٠٢ - ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٧٠ - ٨٢ ، ٨٤- ٨٨ - محمد الباجى المسعودى : نفس المصدر اعلاه ص ١٨ - ٢٠ سعد زغلول عبدالحميد : نفس المرجع السابق والجزء ص ٣٤٢ - ٣٨٦ - السيد عبدالعزيز سالم : نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٣ - ٢٧٤ .

وقد رأت الدولة العباسية أن تسند الولاية لهرثمة ابن أعين ١٧٩ - ١٨١ هـ/ ٧٩٥ - ٩٩٧ - ٨٠٠م الذى كان آخر والٍ للدولة العباسية قبل أن يتم الاتفاق بينها وبين ابراهيم بن الأغلب ، وهو الاتفاق الذى ظهرت بموجبة الدولة الأغلبية نسبة الى مؤسسها ابراهيم بن الأغلب . (١)

عصر الولاة هذا في المغرب شهد أحداثا جساما ضخمة، وكان المظهر العام للمغرب خلالها - تقريباً - الفوضى الشاملة والاضطرابات والفتن . ولم تشهد افريقية والمغرب فترات من الهدوء والسلام الاّ في بعض عهود الأسرة المهلبية ، وفترات قصيرة جداً في عهود بعض الولاة .

---

(١) الاتفاق أو العقد السياسى الذى تم بين الرشيد وبين ابراهيم بن الأغلب كان ينص على أن يتنازل ابراهيم بن الأغلب عن الإعانة السنوية التى كانت ولاية افريقية تتلقاها من الخلافة ومقدارها ، مائة الف دينار، وقد تعهد ابراهيم بن الأغلب أيضا بأن يدفع لخزينة الدولة أو الخلافة سنويا مبلغ اربعين ألف دينار، مقابل أن تكون إمرة افريقية له ولبنيه من بعده .
أنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩ - ٣١
وكذلك محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ) سياستهم الخارجية ، ص ٢٩ - ٣٢ ، وأنظر أيضا حاشية رقم ٨٦ ، ص ٢٩ (حيث يردّ محمود اسماعيل عبد الرزاق على من ينفى أن العقد خلا من الإرتباطات المالية).

ولقد تنوعت تلك الأحداث ، لكن معظمها في الحقيقة لم يكن الا نتيجة للحدث المؤسف وهو إساءة معاملة البربر ، والحرص على أخذ الجزية منهم رغم اسلامهم ، واعتبار أرضهم أرض فيئ . ولقد حمل وزر هذا التصرف بعض الولاة ، الذين كانوا ينقذون بلاشك رغبات بعض خلفاء بنى امية في إصلاح الوضع المالى للدولة .(١)

وعاصر هذا تسرب الآراء الخارجية الى المغرب بمذهبيها : الصفرى والإباضى حيث لقيت تلك الآراء هوى في نفوس البربر ، الذين رأوا في كثير من آرائها سنداً لموقفهم من الولاة الذين أساءوا معاملتهم وفرّقوا في المعاملة بينهم وبين العرب . ولقد تتابعت الأحداث سراعاً . فأعتنق معظم البربر الآراء الخارجية نكاية بالعرب وببعض الولاة الذين يتحملون تبعة تلك السياسة العصبية العنيفة . فكان أن وقعت الثورة الكبرى للبربر في بلاد المغرب والاندلس ضد الدولة الأموية وولاتها . واسفرت موقعتنا : الأشراف وبقدورها عن إهتزاز مركز الخلافة الأموية في بلاد المغرب ، مما خشي منه خروج المغرب من سلطة الدولة الأموية ، حتى تمكن أحد الولاة المحنكين ، وهو حنظلة بن صفوان الكلبى من إعادة الأمور الى نصابها في البلاد . (٢)

---

(١) أنظر مثلا سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق والجزء ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ ، ٢٨٢ - ٢٨٤ مع الحواشى (فيما ينقله من مصادره المتعددة التى تحدّثت عن هذا الموضوع)

(٢) تقصّى سعد زغلول هذه الاحداث بإستفاضة وموضوعية في كتابه السابق ، معتمدا على أقوال المؤرخين والاخباريين المسلمين ، وهوكذلك فيما ينقله عن بعض الباحثين المحدثين . أنظر المرجع السابق والجزء ، ص ٢٨٤ - ٣١٠ مع الحواشي .
وأنظر كذلك السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٢١٣-٣٣٦ .

بيد أن افريقية والمغرب دخلا في دوامة جديدة من الفتن والقلاقل إبّان حكم عبدالرحمن بن حبيب بن ابى عبيدة بن عقبة ابن نافع، الذى أطاح بالوالى الشرعى حنظلة بن صفوان ، وتولى الولاية بدلا منه ، وظلت الفوضي السياسية ضارية أطنابها طيلة حكم هذه الأسرة القهرية ، إذ نشب الصراع العائلي بين افرادها في الوقت الذى عادت للبربر قوتهم وسيطرتهم على البلاد ، حيث خلص المغرب كله للصفرية والإباضية من جديد ، وتكلّل ذلك بتأسيس دولة صفريةفي سجلماسة عام ١٤٠هـ ، هى الدولةالمدرارية(١)

ولقد راع الدولة العباسية قسوة تلك الأحداث في المغرب فدفعت بوالٍ جديد هو : محمد بن الأشعث الخزاعى الذى استطاع بعد جهدأن يقضى على نفوذ الاباضيةويقتل زعيمهم أبا الخطاب المعافرى ، وأتاح هذا لاحقا الى أن يستجمع البربر لقواهم ، حيث نجحوا في تأسيس دولة إباضية في تاهرت بالمغرب الأوسط عام ١٦١هـ ، هي الدولة الرستمية. (٢)

---

(١) عن دولة بنى المدرار أو الدولة المدرارية وظروف قيامها والأحداث التى مرت بها حتى سقوطها ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٠٧-٤١٧ - محمود اسماعيل عبدالرازق : الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ص ١١٢ - ١٤٣ ، ٢١٠-٢١٨ . فقد تتبّعا ونقصّيا في تحليل تاريخي دقيق كل تلك الأحداث نقلا عن المصادر القديمة والمراجع العربية والمعربة ، وبما توصلا اليه من تعليلات واستنتاجات تاريخيه قيمة .

(٢) عنالدولة الرستمية ، وظروف قيامها والأحداث التى مرت بها حتى سقوطها ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفس المرجع السابق أعلاه والجزء ، ص ٢٨٦ - ٤٠٦ (بتوسع شديد) - محمود اسماعيل عبدالرازق : نفس المرجع اعلاه ، ص ١٤٤ - ٢٠٨ ، ص ٢٢٩- ٢٣٤ - على يحى معمر الاباضية في الجزائر " الاباضية في موكب التاريخ " الطبعة الاولى ، ص١١- ١٢٦ . فهؤلاء المؤرخين المحدثين هم خير من كتب عن الدولة الرستمية.

لكن المغرب شهد بعد ذلك صراعا آخرا ،أبطاله هذه المرة زعماء الجند العرب المقيمين في المغرب ، الذين رأوا أنفسهم أحق بالمغرب من الجند العرب القادمين الى افريقية[1] تواً. وأسفرت الأحداث عن عزل الوالى محمد بن الأشعث ومقتل الوالى الجديد الأغلب بن سالم التميمى عام ١٥٠هـ /٧٦٧م ولقد استمرت الأمور كذلك تصل كل يوم حد الهاوية ،الى أن رأت الخلافة أن تعهد بالولاية لأحد أبناء الاسرة المهلبية ذائعة الصيت ، وهكذا عهدت الدولة بالولاية لعمر بن حفص بن قبيصة لتدارك أمر المغرب .

واذا كان عمر بن حفص المهلبى لم يستطع مقاومة التيار الزاحف الجامح من ثورات البربر جميعا ضد الخلافة : صفرية واباضية حيث انتهى الأمر بمقتله ، فإن سلفة يزيد بن بن حاتم المهلبى استطاع أن يواجه ثورات البربر بحزم وشدة ، حتى أتيح له أخيرا أن يعيد لافريقية والمغرب هدوءهما المفقود[2] ؛ واستمرت الأمور هادئة حتى وفاته سنة ١٧٠هـ/٧٨٨م كما مر بنا .

---

(١) عن هذه الأحداث أنظر ابن الأبار : الحلة السيراء ،الجزء الأول ، الطبعة الاولى ،ص ٩ ومابعدها - سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، الجزء الأول ،ص ٣٤٤ - ٣٥٠ .

(٢) الرقيق القيروانى : المصدر السابق ،ص ١٤١ - ١٦٨ - ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ،ص ٧٥ = ٨٢ - الباجى المسعودى : الخلاصة النقية في أمراء افريقية ،ص ١٩- ٠ ٢- سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق ص ٢٦٤= ٢٧٣.

وبوفاته عادت الفوضي السياسية الى المغرب ، وعاد البربر يثيرون المتاعب في وجه خلفه داوود بن يزيد ، وتزامن ذلك بنجاح أحد أبناء الأسرة العلوية في الفرار الى المغرب الاقصي حيث قُدِّر لإدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب أن يؤسس دولة علوية في المغرب الأقصى عام ١٧٢هـ، عرفت بالدولة الأدريسية نسبةً إليه (١) . وحاول خلفاء يزيد بن حاتم تهدئة الأمور في افريقية والمغرب الاّ أن الصراعات العنيفة عادت لتظهر من جديد في ولاية الفضل بن روح بن حاتم عام ١٧٧هـ/٧٩٣م وذلك بين الجند في المغرب (الأبناء) (٢) ، وبين الجند القادمين حديثا ، وانجلت الأمور عن مقتل الفضل بن روح ، وبالتالى زوال الوجود المهلبى عن المغرب .

ورأت الخلافة أن تعهد بولاية افريقية لأحد قادتها العسكريين المعروفين وهو هرثمة بن أعين . وقد نجح هرثمة في أن يعيد للبلاد بعض هدوئها ، الاّ أنه مالبث أن طلب الإعفاء ، فعيّنت الدولة محمد بن مقاتل العكى بدلا منه . غير أن ثورات الجند

---

(١) عن الدولة الادريسية ، وظروف قيامها ، والأحداث التى مرت بها حتى سقوطها ، أنظر ابن ابى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس ص ١٢ - ١٠٢ - سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤١٩ - ٤٧٩ - ابراهيم حركات المرجع السابق ، ص ١١١ - ١٤١ .

(٢) أنظر ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ٧٧ - ٨٤ مع الحواشي ، سعد زغلول عبدالحميد : نفس المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٧٩ - ٣٨٦ .

مالبثت أن لاحقته ونجحت في عزله عن الولاية . بيد أن ابراهيم ابن الأغلب بن سالم التميمى الذى كان عاملاً على اقليم الزاب تدخّل لمصلحة الوالى الشرعى وأعادة لولايته ثانية.(١)

وقد دفع هذا الأمر الخليفة هارون الرشيد الى أن يعهد لابن الأغلب بولاية افريقية نظراً لكفاءته . ولقد أدى هذا الى ظهور دولة مستقلة في المغرب الأدنى استقلالاً ذاتياً عن الخلافة تنفيذا للإتفاق أو العقد السياسى الذى وافق الخليفة بموجبه على قيام الدولة الأغلبية كما ذكرنا سابقاً.

---

(١) عن هذه الاحداث أنظر الرقيق القيروانى : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ - ٢١٢ - ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ص ٨٦ - ٩٣ الباجي المسعودى : الخلاصة النقية ، ص ٢٢ - ٢٥ - سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ص ٣٨٣ - ٣٩٥ - السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٢٧٤ - ٢٧٩ .

الدول المستقلة في افريقية (المغرب الأدني) :-

الدولة الأغلبية : ١٨٤-٢٩٦هـ/ ٨٠٠-٩٠٨م

فاز ابراهيم بن الأغلب بموافقة الخلافة العباسية على تأسيس دولة له ولبنيه من بعده ، نظير تعهده بالوفاء للشروط التى تم التعاقد على أساسها كما ذكرنا . وظهرت بذلك دولة مستقلة ذاتياً عن الخلافة العباسية . ولقد قُدِّر لهذه الدولة التى حكمت افريقية (المغرب الأدني) أن يستمر نفوذها مائة واثنتى عشر عاماً (١٨٤-٢٩٦هـ) أى ما يقارب مائة وثمانية أعوام ميلادية .

والواقع أن الخلافة العباسية لم تكن لتقبل بهذا الوضع لا سيما وأنها أول سابقة في تاريخها لو لم تكن هناك دوافع عديدة ، حتّمت الخضوع لذلك الاتفاق ، أو العقد السياسي . وفي الحقيقة فإن ظروف المغرب السياسية وقتها كانت هي السبب الرئيسى في قبول الخلافة بقيام هذه الدولة في افريقية . فالخلافة كما رأينا أعيتها الحيلة أمام الفتن والاضطرابات المتواصلة التى كان البربر والجند العرب يثيرونها دائماً ضد الولاة ، الذين أزداد تقاطرهم نحو المغرب لاصلاح أوضاعه . ولم تفد تلك المحاولات شيئا ، بل تمكن البربر من إقامة دولتين لهما في المغربين الأوسط والأقصى ، وهما الدولة المدرارية والدولة الرستمية كما ذكرنا . غير أن الخطر الحقيقى الذى استشعرته الدولة العباسية ، هو نجاح العلويين في تأسيس أول دولة لهم في المغرب الاقصي ، وهى الدولة الأدريسية . (١)

---

(١) أنظر السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٨٦-٢٨٩
محمود اسماعيل عبد الرازق : الاغالبة سياستهم الخارجية ، ص ٣٠ - ٣١ مع الحواشي .

ولقد راع الخليفة هارون الرشيد وهو الذى يعرف الدلالة الخطيرة التى ينطوى عليها قيام دولة علوية من تهديد مباشر للخلافة من قبل أناس يرون أنهم أحق بالأمر من العباسيين . وقدّر الخليفة أن الأدارسة إذا نجحوا في تسكين المغرب الأقصى بالذات وهو الذى كانت تعصف به الثورات ، فإن نجاحهم في تسكين أوضاع المغربين الأدني والأوسط لصالحهم ، أمر لا يحتاج لكبير عناء . وبعد هذا فلا يحول بينهم وبين مصر فالمشرق حائل ، لا سيما وأن ادريس بن عبدالله بدأ فعلاً يراسل المصريين من أتباعه (١) أضف الى ذلك أن دولة بنى رستم ودولة بنى المدرار ، وإن كانتا دولتين خارجيتين الا أنهما تشتركان مع الادارسة في العداء للعباسيين

ولذلك رأى الخليفة أن يبقى على النفوذ العباسى في المغرب ، حتى ولو كان إسمياً ، بأن يضع عائلة تكون حاجزاً بينه وبين الادارسة ، تتحمل هى من واقع مصالحها الذاتيه عبء مدافعة الأدارسة بالدرجة الأولى ، وعبء التصدى لفتن البربر والجند العرب بالدرجة الثانية ، وعلى ضوء هذا نستطيع فهم الاتفاق السياسي الذى تم بين الخليفة هارون الرشيد ، وابراهيم بن الأغلب أما مايثار من أقوال بأن متاعب الخلافة في المشرق ، أو وصول الخلافة الى تصور واضح ، وهو عجزها عن مواجهة أحداث المغرب ، ومن ثم نفض يدها من المغرب جملةً بذلك الاتفاق مع الأغالبة ،أو الرضي بالعرض المالى الذى (٢) عرضه ابراهيم ، فإنه لا يعوّل عليه ولا يمكن

---

(١) السيد عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٢٨٨ - محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغالبة سياستهم الخارجية ، ص ٣١ مع الحواشي .

(٢) أنظر محمود اسماعيل عبدالرازق ، نفس المرجع أعلاه ، ص ٣٠ - ٣١ .

أخذه كسبب أو أ اسباب رئيسية في قبول الخلافة بالا تفاق مع ابراهيم ابن الأغلب ، ولكن أوضاع المغرب التى شرحناها هى السبب الرئيسى في ذلك .

وكيفما كان الأمر ، فقد قامت الدولة الأغلبية في افريقية (المغرب الأدنى) نتيجة لذلك الا تفاق السياسي الذى تم بين الخلافة العباسية وبين ابراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة . وسنشير هنا في إيجاز لمجمل الاحداث التى شهدتها افريقية في عهد الأغالبة كما أوردنا من قبل وهو أن نتعرض للأحوال السياسية في المغرب الأدنى في الفترة موضوع البحث في إيجاز يوضح لنا المناخ السياسي وقتها .

ولعل أول ما يمكن ملاحظته في عهدهم هدوء الثورات التى كان يشعلها البربر والجند العرب ، وماظهر من مقاومة في بعض الفترات ، استطاع الأمراء الاغالبة أن يقضوا عليها أخيرا ، وخاصة ثورات الجند العرب في عهد زيادة الله الأول (١) بن ابراهيم ابن الاغلب : (٢٠١-٢٢٣هـ/٨١٧-٨٣٨م) . أما البربر الخوارج وبعد أن أفلحوا في تأسيس دولتين خارجيتين لهما وهما الدولة

---

(١) كانت الثورة التى أشعلها منصور الطنبذى في مدينة تونس ، وهو أحد القادة العرب المعروفين في افريقية آنذاك أخطر ثورات الجند العرب التي شهدتها الدولة الأغلبية ، ورغم أن عهد أبيه شهد ثورة عمران بن مجالد ، وهو أحد رؤساء الجند العرب أيضا ، إلاّ أن ثورة منصور الطنبذى كانت أخطر وأعنف ، وكادت تؤدى بالدولة الأغلبية . أنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٦ - ٥٩ - محمود اسماعيل عبد الرازق : الاغالبة سياستهم الخارجية ص ٣٣ - ٣٥ ، ٣٧ - ٣٨ .

الرستمية والدولة المدرارية ، فقد سكنت ثوراتهم تقريباً ، إلاّ من بعض أحداث متفرقة(١) ، ويبدو أن البربر قد وجدوا في قيام الدولة الأغلبية تحقيقاً لامانيهم وإرضاءً لنزعاتهم الاقليمية ، وتتويجاً لنضالهم من أجل الاستقلال عن سلطان الخلفاء(٢) ، ومما يساعد في توضيح هذ الأمر أيضا ، الاشارة الى أن المغرب الأدنى لم يكن تتركز فيه كثافة سكانية بربرية كتلك التى كانت موجودة في المغربين الأوسط والأقصى .

وعلى عهد الأغالبة فتحت جزيرة صقلية ليس هذا فحسب ، بل وأجزاء من الجنوب الايطالى ، وكذلك بعض الجزر الايطالية الأخرى ، وهو فتح مجّد دور الأغالبة في التاريخ ، وغدت صقلية في وقت من الأوقات الرئة التى تتنفس عن طريقها افريقية والمغرب .(٣)

واتسمت العلاقات في عهدهم مع الدول التى استقلت عن الدولة العباسية في النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى - وبعضها قبله كدولة بنى مدرار والأموية سواء في المغرب أو في الأندلس - بطابع العداء . غير أن ذلك العداء اختلف وقعه بين النفور

---

(١) عالج محمود اسماعيل عبد الرازق هذه النقطة بتقصّى شديد من مصادر ومراجع عربية وأجنبية - أنظر المرجع السابق ص ١٠١ - ١١٢ (فقرة بعنوان : الاغالبة والرستميون) .

(٢) محمود اسماعيل عبد الرازق : نفس المرجع اعلاه ، ص ٢٢ .

(٣) عن الفتح الأغلبي لجزيرة صقلية والجزر الاخرى فى الجنوب الايطالى ، أنظر أحمد توفيق المدنى : المسلمون في صقلية وجنوب ايطاليا ، ص ٤٧ - ١٠٨ - عزيز أحمد : تاريخ صقلية الاسلامية ، نقله الى العربية وقدم له مع اضافة حواشى وتعليقات مناسبة أمين توفيق الطيبى : ص٨- ١١ ، ١٣- ٣١ ، احسان عباس : العرب في صقلية ، دراسة في التاريخ والأدب ، ص ٣١ - ٣٩ .

والتصادم المسلح بينهم وبين كل من : الدولة الرستمية في تاهرت ، والدولة المدرارية في سلجماسه والدولة الادريسية في فاس ، والدولة الأموية أخيرا في الأندلس .(١)

وعلى عهد الأغالبة شهدت افريقية استقرارا اقتصاديا ، وتمتعت البلاد ببحبوحة من العيش الرغيد (٢) ، وشمل التطور الحياة الاجتماعية (٣) ، حيث ذابت الخلافات العنصرية تقريبا بين العناصر التى كانت متصادمة أبداً - العرب البربر - ولم يكن الجانب العمراني بمنأى عن هذا التطور ، فقد خلّدت كتب التاريخ والأدب لهم أعمالاً عمرانية (٤) مرموقة ، يأتى على رأسها تأسيس بعض المدن التى أصبحت ذات شأن بعيد كالعباسية (القصر القديم)(٥) ورقادة .

---

(١) أنظر محمود اسماعيل عبد الرازق : الاغالبة سياستهم الخارجية ، ص ٩٧- ١٣٣ .

(٢) راجع السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص٣٢١-٣٢٨

(٣) راجع سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ٢ ، الفصل الاول (قيام الأغالبة في القيروان - السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٣٢٩ - ٣٣٥ - وأنظر كذلك حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية وهو عبارة عن موسوعة أدبية وتاريخيه وثقافية وفنية لافريقية في العصور الاسلامية في عهود الولاة والاغالبة والفاطميين والزيريين . ويصعب ايضاح الصفحات عن هذه المجالات التى أوردناها في المتن بسبب أنها مبثوثة في كل صفحات هذه الموسوعة دون ترتيب .

(٤) عن منشآت الاغالبة العمرانية أنظر السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٣٣٦ - ٣٧٥ .

(٥) عن العباسية ورقادة أنظر ، بعد ص ١٦٧٠١٦١ .

وعلى عهدهم قُدِّر للحياة العلمية أن تقوى وتشتد في جميع أوجه معارفها المختلفة من دراسات شرعية وأدبية ، الى علوم إنسانية وتجريبية . ولقد تمَّ ذلك في بعض أوجهه الى العناية التى كانوا يولونها للعلم والعلماء ، والأدب والأدباء بالاضافة الى جهود العلماء والأدباء الفردية ممَّا سنوضحه في مكانه المناسب . وسيطرق سمعنا لاحقاً إن شاء الله أسماء العديد من أولئك الأمراء الأغالبة ، وسنبين مجهوداتهم في دفع الحياة العلمية في افريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة .

على أن هذه الدولة دب فيها أخيراً داء الأمم الذى يصيبها بعد أن تصل الذروة ، فبدأت سطوتها تضعف نتيجة لإنتهاج آخر الأمراء من الأغالبة لسياسات سيئة عجَّلت بسقوط دولتهم وتزامن ذلك مع إزدياد النفوذ الشيعى الذى تسلل الى المغرب في فترات ضعف الدولة ، وأنتهى الأمر بسقوط هذه الدولة على يد داعى الفاطميين الشيعة ، أبو عبد الله الشيعى ، عند ما فضل زيادة الله الثالث آخر حكام هذه الدولة الإنزواء في المشرق بعد أن أسقط كل شيء في يده . (١)

هذا المصير الذى لاقته الدولة الأغلبية على يد الفاطميين تعرضت له الدويلات الأخرى المستقلة في المغرب ، كالدولة الرستمية والمدرارية ، حيث سقطت جميعها بيد الفاطميين في مدة زمنية متقاربة .

---

(١) عن هذه السياسة السيئة أنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٦ - ١٤٨ ، ١٦٠ - ١٨٠ ، محمود اسماعيل عبد الرازق : المرجع السابق ، ص ١٩١ - ٢٠٨ .

الدولة الفاطمية (العبيدية) : ٢٩٦ - ٣٦٢/٦١هـ/٩٠٨-٩٧٣م :

في الفترة الأخيرة من عهد ابراهيم بن أحمد بن محمد ابن الأغلب نجح دعاة الشيعة الاسماعيلية (١) في التسلل نحو المغرب ، وخاصة المغرب الأوسط ، حيث استطاعوا أن يتصلوا بزعماء قبيلة كتامة ، وهى إحدى أشهر القبائل البربرية على الاطلاق . ولقد نجحت جهودهم في استمالة أعداد كبيرة من أبناء قبيلة كتامة وغيرها . ثم أتبع المشرفون على الدعوة الاسماعيلية هؤلاء ببعث أحد أشهر دعاة الاسماعيلية ، وهو أبو عبدالله الحسين بن أحمد الصنعانى المعروف بالشيعى ، واستطاع أبو عبدالله أن يتصل بزعماء كتامة ، كما أستطاع أن يستأنف الدعوة للمذهب بينهم وقد نجح في مسعاه ذلك نجاحاً كبيراً . (٢)

---

(١) عن الشيعة الاسماعيلية ، الذين يدعون إلى إمامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، أنظر برنارد لويس : أصول الاسماعيلية بحث تاريخى في نشأة الخلافة الفاطمية . نقله الى العربية خليل أحمد جلو وجاسم محمد الرجب وقدم له عبد العزيز الدورى ، ص٤٨ - ١٦٣ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١- ٤٣ وقد تتبعا في تقصى تاريخى دقيق بداية المذهب الشيعى وفرقة المختلفة من بطون المصادر والمراجع العربية والمعرّبة قديما وحديثا .

(٢) عن هذه الأحداث التى أدت في النهاية الى قيام الدولة الفاطمية ، أنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص١٦٣- ١٨٣ - السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص٥٠٧ - ٥١٥ - حسن ابراهيم حسن : نفس المرجع اعلاه ، ص٤٣ - ٥٦ - محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها ، ص١٨-٢٤ . هذه المراجع اهتمت بالتفاصيل الواسعة لهذه الاحداث وعالجتها بتعليلات علمية مهمة .

ورأى أبو عبدالله الشيعى أن ينتقل بالقضية من مرحلة الدعوة والاعداد ، الى مرحلة المواجهة مع القوى الكبرى في المغربين : الأدنى والأوسط . وهم الأغالبة و الرستميون وكانت الدولة الأغلبية قد بلغت في الفترة الأخيرة من عمرها مرحلة سيئة من الضعف والانحلال وخاصة في عهود أمرائها الثلاث الأواخر : ابراهيم ابن أحمد و ابنه عبدالله ، ثم زيادة الله ابن عبدالله . (١)

وأتاح هذا للدعاة الاسماعيلية استغلال أحوال الدولة الاغلبية السيئة ، فكثّفوا جهودهم في نشر الدعوة الشيعية بين البربر بقيادة داعى الاسماعيلية الخطير أبى عبدالله الشيعى وهو ما تحقق لهم بالفعل ، فانتقلوا بالقضية كما ذكرنا من مرحلة الدعوة والاعداد الى مرحلة المواجهة العسكرية مع الدولة الأغلبية. ولا يهمنا من تفاصيل الصراع والمواجهة العسكرية بين أبى عبدالله الشيعى وجيشه من البربر وبين الأغالبة ، إلّا ما تمخضت عنه الأحداث في النهاية ، من سقوط الدولة الأغلبية نهائياً عام ٢٩٦هـ ، وسقوط الدويلات الاخرى ، المستقلة بالمغرب : المدرارية والرستمية ، ومن ثم بعد الادريسية . وقد ترتب على هذا بطبيعة الحال ، خلوص المغرب جميعه للفاطميين الاسماعيلية ، الذين نجحوا في تأسيس دولة شيعية في المغرب كله . وهو ما أعلنه عبيد الله المهدى أول خلفائهم من منبر رقّادة عام ٢٩٧ .

ولقد تعاقبت على حكم المغرب خلال الفترة التى عاشها الفاطميون هنا ، أربعة خلفاء هم : عبيد الله المهدى : مؤسس الدولة ٢٩٧ - ٣٢٢هـ/ ٩٠٨ - ٩٣٤م، ثم ابنه أبو القاسم

---

(١) عن هذه الأحداث ، أنظر محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغالبة سياستهم الخارجية ، ص ١٩١ - ٢٠٨ .

محمد بن عبيد الله ويدعى نزار أيضا ، ولُقِّبَ بالقائم بأمر الله ٣٢٢ - ٣٣٤هـ/ ٩٣٤ - ٩٤٦م ، ثم ابنه ابو الطاهر اسماعيل ابن محمد بن عبيد الله ، الذى لُقِّبَ بالمنصور ٣٣٤ - ٣٤١هـ / ٩٤٦ - ٩٥٣ م ، وأخيرا ابنه أبو تميم معد بن اسماعيل بن محمد بن عبيد الله الذى لقب بالمعز لدين الله ٣٤١ - ٣٦٥هـ/ ٩٥٣ - ٩٦٦م ، والذى غادر المغرب نهائيا الى مصر عام ٣٦٢/٦٠هـ .

يبقى أن نشير الى أن للمؤرخين القدامى والمحدثين من المؤرخين المسلمين وكذلك نفر من المستشرقين أقوال مختلفة في مسألة صحة نسب هؤلاء الفاطميين الى على بن أبى طالب رضى الله عنه والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها . فمن منكر شديد الإنكار الى مؤيد يدعم رأيه بالحجج والبراهين كما هو حال المنكرين (١) . ونحن لا يهمنا ، بل ليس من شرطنا أو شرط بحثنا الوقوف عند هذا الموضوع ، ولذلك فإننا سنمر عليه عند إقتضاء الحاجة لذلك في القسم الثانى مرورا سريعا .

---

(١) مسألة نسب الفاطميين من أعصى المسائل التاريخية التى اختلف حولها كثيرا . ولم يثبت أى طرف من المعارضين والمؤيدين الوجهة التاريخية الحقيقية بشأنها . ولقد انقسم المؤرخون القدامى وبعض من الباحثين حول هذه المسألة الى فريقين : معارض ومؤيد ، وأدلى بعض المستشرقين بدلوه أيضا حول هذا الموضوع . أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباه أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس، المجلد الثالث، ص ١١٧ ، وأنظر كذلك الحاشية رقم ١٠ - ص ١١٩ التى علق بها المحقق على موضوع نسب الفاطميين ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، تحقيق ودراسة التهامى نقرة وعبد الحليم عويس، ص ٣٥ ، وأنظر بعناية المقدمة التى قدم بها المحققان الكتاب، وأنظر كذلك رقم (١) ، (٣) من ص ٣٥ حيث علقا على قول ابن خلدون الذى يذهب الى صحة نسب الفاطميين ، والذى أورده ابن حماد في المتن بقولهما بأن ذلك يعد من اكبر هفوات ابن خلدون التاريخيه - جلال الدين السيوطى : تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ص٤ - ٦ ، ٥٢٤ - ٥٢٥ ابن أبى الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، الجزء الاول ، ص ١٥٥ ، وأنظر الحاشية رقم٥ من نفس الصفحة - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص١٧٥ - ٧٩ - برنارد لويس : أصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية ، ص ٤٨ - ١٦٣ .

ولقد شهدت افريقية والمغرب في عهد هؤلاء الفاطميين أحداثا جساما سنجملها هنا إقتضاءً لما ذهبنا إليه من الإيجاز. وأول ما يمكن ملاحظته من خلال حكمهم لبلاد المغرب كله، أنهم لم يلقوا قبولاً من معظم سكان المغرب، نظراً للإختلاف المذهبي الواضح بينهم، وبين جل السكان الذين يتمذهبون بالمذهب المالكي، والذين يشككون بالإضافة الى ذلك في صحة نسب عبيد الله المهدى وبنيه وسنتبين هذا الأمر بوضوح من خلال حديثنا عن أثر الصراع المذهبى بين المالكية والشيعة على الدراسات الشرعية (١). الأمر الثاني الذي يمكن استخلاصة من حكمهم في المغرب، هو أن المغرب جميعه لم يستكن لهم، فبجانب الخلاف مع السنة الذين يشكلون غالبية السكان، تعدد ثورات البربر في المغربين الأوسط والأقصى، وأمضى معظم خلفائهم أوقاتا عصيبة في مواجهة الثورات المتلاحقة عليهم من البربر (٢)، وحتى قبيلة كتامة، وهى الساعد الأيمن الذى اعتمد عليه أبو عبد الله الشيعى في قيام الدولة الفاطمية شعرت بأنه لم ينلها من المكاسب والمصالح شيئا وأن جهودها ذهبت هباء. (٣)

---

(١) أنظر بعد ص ٥٢٨ ومابعدها

(٢) أنظر ابن حماد: أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ٣٥ - ٩٢ - ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص ١٤٩ - ٢٢٢ ابن خلكان: وفيات الأعيان، المجلد الأول، ص ٢٣٤ - ٢٣٦ - المجلد الخامس، ص ١٩ - ٢٠ وص ٢٢٤ - ٢٢٨ - حسن ابراهيم حسن: المرجع السابق، ص ٨٣ - ٩٧ - محمود اسماعيل عبد الرازق: الخوارج في بلاد المغرب ص ٢١٠ - ٢٥٤.

(٣) أنظر السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٥١٥ - ٥١٧.

غير أن الحدث الضخم الذى هزّ الدولة وكيانها هزاً عنيفاً كان الثورة الكبرى التى أشعلها الثائر البربرى الخارجى أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الذى كاد أن يطيح بالدولة الفاطمية نهائياً . وشغلت ثورته التى أندلعت في أواخر عهد الخليفة المهدى ، كل خلافة القائم بأمر الله ، وجزءاً من خلافة المنصور بن القائم حتى أستطاع المنصور أخيرا أن يقضى على ثورته العظمى هذه عام ٣٣٦هـ كما سيتضح لنا لاحقا في مكانه من القسم الثانى إن شاء الله.(١)

وفي عهد الفاطميين في المغرب تتابعت جهودهم في مواصلة الفتوحات في الجزء الجنوبي من إيطاليا ، كما تتابعت إهتماماتهم بجزيرة صقلية بالإعتناء في إختيار الولاة عليها ، كالأسرة الكلبية التى قدر لها أن تتولى أمر صقلية من قبلهم مدة زمنية طويلة (٢) . وفي عهدهم كان المغرب الأقصى بين مد وجزر في تبعيته للدولة الفاطمية ، أو الدولة الأموية في الاندلس أو زعماء قبيلة زناتة ، الذين كانوا كثيرا ما يبسطون نفوذهم على المغرب الأقصى خالعين طاعة الفاطميين (٣) . وأدى هذا بالدولة الفاطمية الى أن تصطنع قبيلة بربرية أخرى منافسة لزناته ، هى قبيلة صنهاجة ، التى غدت الساعد الأيمن للخلافة الفاطمية ضد خصومها . (٤) وهيّأ هذا الصنهاجة

---

(١) أنظر بعد ص: ٥٣٤

(٢) أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب ايطاليا ، ص ١٠٩-١٣٣ - عزيز أحمد : تاريخ صقلية الاسلامية ص ٣٢ - ٤٨ - احسان عباس : العرب في صقلية ، ص ٣٩ - ٤٨ .

(٣) ابن حماد : المصدر السابق ص ٤٤ ومابعدها - المالكى: المصدر السابق والجزء ، المقدمة التى قدم بها المحقق حسين مؤنس الكتاب ص ١٨م - ١٩م- السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٥٢٣ - ٥٣٢ .

(٤) أنظر المالكى : المصدر السابق ، والجزء ، مقدمة المحقق ص ١٥م - ١٦م - عبد الحليم عويس: المرجع السابق ، ص ٣٧ - ٣٨ مع الحواشى

تولى أمور المغرب جميعه بالنيابة عن الفاطميين ، عندما قرروا الرحيل الى مصر.

ولقد كان التطلع الى مصر والشرق الهاجس الذى يشغل بال كل الخلفاء الفاطميين إبتداءاً من المهدى ومروراً بالقائم والمنصور ، وانتهاءاً بالمعز لدين الله. ولا أدل على ذلك من أن كل هؤلاء الخلفاء ماعدا المنصور، الذى شُغِلَ بالقضاء على أبى يزيد اليفرنى - جَرَّبَ أو عمل فعلاً على إرسال الجيوش لفتح مصر، وهو الأمر الذى تحقق أخيرا للمعز ولقائده جوهر الصقلي. (١)

واخيراً فإن المتتبع للأوضاع الإقتصادية والإجتماعية والعلمية والأدبية والعمرانية (٢) وغيرها ، لا يمكن إلاَّ أن يقرر بأن المغرب

---

(١) كان حسن ابراهيم حسن أفضل من تتبع هذا الموضوع بكل ظروفه وأسبابه ، سواء كان ذلك في المصادر القديمة أم الحديثة أم في المراجع الاجنبية.
انظر تاريخ الدولة الفاطمية ، الباب السرابع كله ، ثم ص ١٤٩-١٥١ من الباب الخامس .

(٢) من جلائل الانشاءات العمرانية التى تنسب الى الفاطميين في المغرب بناؤهم لعدة مدن أصبحت في وقت من الأوقات ذات أهمية كبرى ، فالخليفة المهدى مؤسس الدولة ، إبتنى مدينة جديدة له الى الشرق من مدينة سوسة وأمامها على طرف داخل في البحر كهيئة كف مفصل بزند بالبحر، وسميت المهدية نسبة اليه نفسه . وكان ذلك عام ٣٠٣هـ ، عندما شعر بعدم الامان في مدينتى القيروان ورقادة ، حيث المعارضة البربرية والسنية . أما ابنه ابو القاسم القائم بأمر الله محمد ، فقد إبتنى هو الاخر مدينة في المغرب الأوسط، وبالذات في اقليم الزاب سميت بالمسيلة ، وكان ذلك عام ٣١٥هـ ، وتسمى أيضا المحمدية نسبة اليه . وبنى المنصور مدينة جديدة إحتفاءاً بإنتصاره على ثورة ابى يزيد مخلد بن كيداد الخارجي ، وقد سميت المنصورية نسبة إليه ، اى الى المنصور سنة ٣٣٧هـ وهى تبعد عن القيروان نصف ميل وتسمى كذلك مدينة صبرة .
أنظر البكرى : المصدر السابق ص ٢٩ ومابعدها ، ٥٩ ومابعدها و ص ٢٥ عن صبرة أو المنصورية - ابن خلكان : المصدر السابق ، المجلد الأول عن بناء المسيلة ، ص ٢٣٥ - وص ٢٣٥ عن مدينة المنصورية ، المجلد الثالث، ص ١١٨ عن المهدية الكناني القيرواني : تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الايمان في أولياء القيروان ، تعليق رقم ٢٥٩ - ص ١٨٦ - حسن حسنى عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ص ٩٧-٩٨ ، ص ١٠٠ ، ١٠٤

شهد بهذه الأوضاع تطوراً ورقياً لا يقل إن لم يفق ما شهدته البلاد في عهد الأغالبة (١) . وسيتضح لنا من الحديث عن الحياة العلمية بكل أوجه معارفها التي سنرصدها مقدار ما بلغته من تقدم وازدهار في عهدهم . وهذا شيء يمكن توقعه وحصوله اذا ما تبينا حقيقة مهمة ، وهي أن خلفاء الفاطميين بالمغرب، كانوا علماء وأدباء في نفس الوقت . ومن هنا أعطوا الحياة العلمية حق قدرها .

---

(١) أنظر موسوعة حسن حسني عبدالوهاب : الحضارة العربية بافريقية التونسية .

الدولة الزيرية أو الصنهاجية : ٣٦٢ - ٥٤٣هـ/ ٩٧٢ -١١٣٨م :-

لم تكد الدولة الفاطمية تقوم في المغرب حتى وجدت في قبيلة صنهاجة السند والمعين القوى ، وفي الوقت الذى أخذت فيه قبيلة كتامة تراجع حساباتها ، كان زيرى بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة ، ومن ثم إبنه بلكين أو يلقين يقفان قلباً وقالباً مع الخلافة ضد خصومها .

ولقد كانت المشكلة التى تقلق بال الخليفة المعز لدين الله وهو يتهيأ للرحيل النهائى الى مصر هى كيفية المحافظة على النفوذ الفاطمي في المغرب، وخاصة وهو الذى يعرف اكثر من غيره صعوبة ذلك ، حتى في ظل وجودهم الفعلى . ولذلك فقد توصل الى حقيقة مهمة ، وهى ضرورة إشغال المغرب في فتن متلاحقة يضرب قبائله بعضها ببعض حتى لا تفكر هذه القبائل في الخروج على الدولة ، ولو موقتا . (١)

وهكذا فقد استدعى المعز بلكين بن زيرى بن مناد ، الذى لعب دورا بارزا في تثبيت سلطة الدولة الفاطمية ، وعهد اليه بحكم المغرب من بعده . ورغم ممانعة بلكين في ذلك ، الا أنه لم يجد مفراً من القبول . ولم يكتف الخليفة بذلك ، بل أنعم عليه بلقب سيف الدولة ، أو سيف العزيز بالله ، وكناه بابى الفتوح ، بل أطلق

---

(١) في هذا الصدد راجع التعليق الموضوعى الذى علّق به أحمد مختار العبادى في مقاله : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس الذى نشر في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧م/١٣٧٧هـ

عليه اسماً آخر هو يوسف(١) . وما أن غادر المعز الى مصر، حتى بدأت الدولة الزيرية أو الصنهاجية فعلاً - وكان هذا الحدث في الحقيقة نقطة تحول تاريخية في المغرب كله، اذ بقيام هذه الدولة انتهى حكم العرب الفعلي في المغرب كله(٢) . وكان قيامها إيذاناً بنشوء الدول البربرية المستقلة، وأصبح ينظر إليها من قبل البربر في المغرب الأدنى على أنها أول دولة بربرية صرفة تعبر عن الشعور بالاستقلال والخروج عن التبعية العربية(٣)، وعلى الرغم من صحة هذا القول فإن الواقع التاريخي يُقرّ بأن هذه الدولة وغيرها من الدويلات البربرية المستقلة بعدُ على الرغم من بربريتها إلا أنها ظلت عربية المنزع(٤)

وكيفما كان الأمر فقد تعاقبت على حكم هذه الدولة ثمانية أمراء أولهم أبو الفتوح بلكين أو بلقين بن زيرى كما ذكرنا ٣٦٢-٣٧٣هـ ثم ابنه المنصور بن بلكين الذى أتاه تكليف الدولة الفاطمية

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٨ ومابعدها - ابن خلكان المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ٢٨٦-٢٨٧- ابن ابى الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان ، ج ١ ، ص ١٦٢ - ١٦٥ - خير الدين الزركلى الاعلام . قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، الجزء الثاني ، ص ٧٤ .

(٢) عبد الحليم عويس : المرجع السابق ، ص ٣٩

(٣) عبد الحليم عويس : نفس المرجع السابق ، ص ٣٨

(٤) أنظر المالكى : المصدر السابق ، ج ١ ، مقدمة المحقق ، ص ٢٥م - وأنظر كذلك عبد لحليم عويس : نفس المرجع السابق ، حاشية رقم (١) ص ٣٩ .

٣٧٣ - ٣٨٦ هـ ولُقِّبَ بعدَّه العزيز بالله ويكنى بأبى (١)الفتح ، ثم ابنه باديس ابن المنصور ٣٨٦ - ٤٠٦هـ ولقّبته الخلافة بنصير الدولة ويكنى بأبى (٢) مناد . ثم ابنه المعز بن باديس ٤٠٦ - ٤٥٤ هـ ويلقب بشرف (٣) الدولة . وفي عهد المعز انقسمت الدولة الزيرية (٤) الى دولتين بعد أحداث وانشقاق أسرى : دولة في افريقية وعاصمتها القيروان ثم المهدية ، وتعرف بالدولة الزيرية التى إحتفظت أو إحتفظ لها المؤرخون بالتسمية الأصلية لمؤسس الدولة : زيرى ، ودولة أخرى في المغرب الأوسط عاصمتها أشير كاثم(٥) القلعة،ثم بجاية ، وتعرف بالدولةالحمادية نسبة

---

(١) ابن عذارى المصدر السابق والجزء ، ص ٣٣٩-ابن ابى الضياف : المصدر السابق ،ج ١ ، ص١٦٧ .

(٢) ابن عذارى : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ٣٤٧-ابن خلكان : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٥ -الزركلى الاعلام ،ج ٢ ، ص٤١ .

(٣) ابن عذارى : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ٢٦٧- ٢٦٩ - ابن خلكان : نفس المصدر السابق اعلاه ، المجلد الخامس ، ص ٢٣٣ - ٢٣٦ - الزركلى : نفس المرجع اعلاه ،ج ٢ ، ص٢٦٩

(٤) عن هذا الانقسام الأسرى فالسياسى ، راجع اسماعيل العربى : المرجع السابق ، ص ٨٩ - ١١٨-عبد الحليم عويس : نفسه ص ٤٧-١٢٠ . وقد خلدا الدولة الحمادية بمصنفين إعتماداً على معظم المصادر والمراجع العربية والاجنبية التى تحدثت عن هذه الدولة بعد إنشقاق زعيمها حماد بن بلكين عن الزيريين .

(٥) مدينة أشير والقلعة (قلعة حماد) كانتا عاصمتى الدولة الحمادية ، قبل مدينة بجاية . ومدينة أشير وتنطق بمد الهمزة ،أو بدون ذلك ،وكسر الشين ،وسكون الياء المثناة من تحتها ،ثم راء مهملة ، تقع الى الطرف الغربى من مدينة بجاية في المغرب الأوسط ،وقد بناها والد مؤسس الدولة الزيرية : زيرى بن مناد ، الذى ينتسب اليه الزيريون والحماديون على السواء ، وذلك في عام ٣٣٤هـ ، ثم أصبحت عاصمة للدولة الحمادية . أما مدينة القلعة أو قلعة بنى حماد بدون (بنى) فتقع في مكان حصين في جبل يدعى جبل عجيبة البر . في المغرب الأوسط . وقد بناها حماد مؤسس الدولة الحمادية عام ٣٩٨هـ، واتخذها عاصمة له . أنظر عبد الحليم عويس : نفسه ص ٨٦ ، ٨٩ ، ص٨٩-٩٢ (نقلا عن عدة مصادر ومراجع مختلفة) .

الى حماد بن بلكين بن مناد الذى نازع المعز حفيد أخيه النصـــــور بعد أن كان قائده وبده اليمنى الباطشة التى يضرب بها خصومة.

وخلف المعز ابنه تميم الذى تقلص نفوذه في شريط ساحلـــــى ضيق يضم مدن المهدية وقابس وسفاقس وجزيرة جربة، ذلك بعـــــد الأحداث التى ترتبت على الانفصال السياسي والمذهبي للدولـــــة الزيرية عن الخلافة الفاطمية، الذى قاده المعز والده على ماسنذكـــر في موضعه. وقد حكم تميم من سنة ٤٥٤ حتى سنة ٥٠١ هـ ثم خلفـــه ابنه يحيى بن تميم (٥٠١ - ٥٠٩هـ) ثم ابنه على بن يحيى (٥٠٩ - ٥١٥هـ) واخيرا الحسن بن على بـــــن يحيى بن تميم بـــــن المعز بن باديس بن المنصور بن بكلين بن زيرى (٥١٥- ٥٤٣هـ) الذى ختم به عهد الدولة الزيرية من فرع باديس من المنصور بن بلكيـــــن. وذلك عندما سقطت عاصمته المهدية بيد النورمانديين حكام صقليـــــة عام ٥٤٣هـ/١١٣٨هـ. (١)

وعلى الرغم من أن الفترة الزمنية لموضوع الرسالة تقف عنـــــد عهد المعز بن باديس، الا أننا لانرى ضيرا في أن نسوق هـــــذا التسلسل التاريخى الى أن نقف بالدولة الزيرية أو الصنهاجيـــــة عند نهايتها الفعلية، وهو أمر يفرضه التسلسل الموضوعى للأحـــــداث أحيانا.

---

(١) عن هذه الأحداث أنظر ابن عذارى: المصدر السابق والجزء، ص٢٩٨- ٣١٥ - الباجى المسعودى: المصدر السابـــق، ص٤٩ - ٥١- ابن أبى الضياف: المصدر السابق، ج١، ص١٧٤ - ١٨١ - السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق ص٥٨٥ -، ص٥٨٨ - ٥٩٦ - عبدالحليم عويس: المرجع السابق، ص ١٥٦ - ١٦٣.

ولقد شهدت هذه الدولة أحداثا سياسية وعسكرية خطيرة وأول ما يمكن ملاحظته من تلك الأحداث هو النزاع القبلى الخطير بين البربر البتر ممثلين في قبيلة زناته والبربر البرانس ممثلين في قبيلة صنهاجيه ، فلقد أمضى ثلاثة من أمراء هذه الدولة الأول حياتهم تقريبا في النزاع المسلح مع قبيلة زناته في المغربين الأوسط والأقصي . وظلت مواجهة زناته كأنما هي إرث تقليدى يتقلده الخلف عن السلف من أمراء الدولة الزيرية(١) ، غير أن هذه المواجهة إنتهت بقيام الدولة الحمادية في المغرب الأوسط التى تولت بعد ذلك هذا الإرث العدائي حتى قيام الدولة المرابطية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى . (٢)

وكما كانت المواجهة مع زناته بمثابة إرث تقليدى عند صنهاجية ، كانت المواجهة مع الدولة الأموية في الأندلس على زعامة أرض المغرب الأقصى كذلك ، ولم تكن هذه المواجهة في الحقيقة إلا استمراراً لموقف الدولة الفاطمية من الدولة الأموية غريمتها (٣) . وقد تسلمت الدولة الحمادية هذ الدور أيضا

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص٢٣١-٢٣٢ ، ٢٣٧ - ٢٣٩ - ٢٤٢ - ٢٤٩ - ٢٦٦ - ابن ابى الضياف : المصدر السابق : ج ١ ، ص ١٦٦ - ١٦٨ - السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٥٥٥ - ٥٦٣ - عبد الحليم عويس المرجع السابق ، ص ٣٩ - ٤٣ .

(٢) أنظر عبد الحليم عويس : المرجع السابق ، ص ١٧٥ - ١٧٧ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص٢٣١ ، ٢٣٨ ، ثم ص ٢٦٩ وفيها نص هام يدل على ان الزيريين كانوا يراقبون الأوضاع في الاندلس بدقة بالغة يقول ابن عذارى ان الخليفة الحاكم بأمر الله بعث في سنة ٤١١ هـ الى المعز بهدية وخلعه وسجل فيه تشريف له ثم يقول : (.. وورد أيضا محمد ابن عبد العزيز بن أبي كدية بسجل آخر من الحاكم ، جوابا للمعز عما كان فيه من أخبار الأندلس وانقراض الدولة الاموية منها ، وقيام القاسم بن حمود (الادريسى) فيها فشكره على ذلك ، وبعث اليه خمسة عشر علما منسوجة من الذهب) .. الخ

في بعض فترات حياتها . (١)

ومن الأحداث المهمةكذلك انقسام الدولة الصنهاجية على نفسها الى قسمين أو دولتين كما ذكرنا . وكان هذا الانقسام السبب الرئيسى في انحلال أمر الدولة الزيرية التى لو قدر لها أن تمارس دورها دون هذا الانقسام لتغير وجه المغرب كله .

على أن الحدث الخطير والأهم من بين كل الأحداث هو الانفصال السياسي والمذهب عن الدولةالفاطميةعام ٤٤١ هـ على الأرجح ، الذى قاده المعز بن باديس كما ذكرنا .

ولم تقف الدولةالفاطمية مكتوفة الأيدى ، وهى ترى هذا التحول الخطير الذى يمس كرامتها وهيبتها ، فقررت مواجهة تلك الأحداث بسرعة وحزم ، وبيد و أن الظروف وقتها لم تسمح بعمل عسكرى منظم ، لذلكفقد توصلت الى الرد على المعز بطريقة لا تكلفها كثيرا ، فبعثت اليه بقبائل بنى هلال وسليم التى كانت تعيش في صعيد مصر ، وأباحت لها ملك المعز ود ولته كما هو مبثوث في كتب التاريخ والأدب .

وأخيرا تهاوى ملك المعز تحت أقدام القبائل العربية التى بسطت نفوذها وسيطرتها على افريقية كلها تقريبا . وأنكمش المعز في مدينة المهدية مع ابنهتميمحيث لم يبق لهما سواها وأحوازها ، وتوفى أخيرا حزينا كاسف البال عام ٤٥٤ هـ كما سنعرف

---

(١) أنظر عبد الحليم عويس : المرجع السابق ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

بعد عند الحديث عن أثر الصراع المذهبي بين المالكية والشيعة على الدراسات الشرعية. (١)

وفيما يتعلق بالأحوال الاقتصادية (٢) والاجتماعية والعمرانية والعلمية فإن عهد الدولة الزيرية كان إمتداداً لعهد الدولة الفاطمية بل والاغلبية ، وشهدت افريقية في عهدهم تطوراً ورقياً كبيرين في هذه المجالات عامةً وفي الحياة العلمية خاصةً حسبما سنعرفه في مكانه إن شاء الله .

---

(١) أنظر بعد ، ص ٥٤٠-٥٤١

(٢) عن تطور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية في الدولة الزيرية كتب أحمد بن عامر المؤرخ التونسي كتاباً أطلق عليه العنوان الاتي : الدولة الصنهاجية صفحة من العصر الذهبي للحضارة التونسية تتبّع فيه بالتفصيل كل مناحي التطور والرقي ، في تلك المجالات التي ذكرناها في المتن .

الفصل الأول

عوامل ازدهار الحياة العلمية في افريقية (المغرب الأدنى)

- الفتح الاسلامي فتح عقائدى علمي
- جهود الفاتحين والولاة في نشر الاسلام وأهمية البعثات العلمية في الازدهار .
- قيام الدول المستقلة
- الرحلات العلمية

شهدت افريقية (المغرب الأدنى) تقدماً وتطوراً كبيرين شمل معظم أوجه العلوم والمعرفة منذ اللحظةالتىتم فيها فتح المغرب عموماً ، بل مع المحاولات الأولى للفتح وحتىمنتصف القرن الخامس الهجرى ، وهى الفترة الزمنية موضوع البحث ، وذلك بطبيعة الحال في تدرج طبيعى .

والمتتبع للحياة العلمية ومسيرتها من خلال تلك الفترة سيسترعى انتباهه بلاشك ذلك التقدم والتطور العلمى ، وسيخرج باقتناع مفادة أن ذلك التطور والتقدم لابدأن يكون وليد عوامل وأسباب هيّأت له ذلك .

الفتح الاسلامى فتح عقائدى علمى

ولعل أول مايمكن ملاحظته من تلك العوامل أن الفتح الاسلامي للمغرب كان فتحاً عقائدياً علمياً بالدرجة الأولى . فهذا الفتح كان يحمل معه كتابا فيه قوام عقيدة ودستور حياة ، فتح عيون السكان الأصليين ، وأعنى بهم البربر ، على ذلك الدين الذى يمثله هذا الكتاب الذى حمله الفاتحون العرب فاندفعوا في دهشة وفضول يستكشفون كنهه ، حتى إذا ماوجدوه قريباً من أفئدتهم وفطرتهم الأصلية زالت دهشتهم وزال فضولهم ، فأقبلوا عليه يحاولون فهمه وتدبر معانيه وأحكامه ، وتأتّى ذلك لهمعلى يد العلماء منالصحابة والتابعين ، الذين جاءوا مع الفتح وبعده .

علىأنه ماكان لهم أن يَسْبُرُوا غَوْرَ هذا الدين ، الاّ بعد أن استفتحت أمامهم مغالق اللغة التىجاء بها القرآن الكريم ، إذلا يخفى

أنه لا يمكن أداء شعائر الدين الاسلامي ، إلاّ بفهم اللغة التي تنزل بها على أقل تقدير . ولقد أدرك المواطن المغربي الأصيل أن وجه هذا الفتح بيد وله مغايرا لغيره من الفتوحات . فهو اذ يتلفت حول ماضيه البعيد فالقريب نسبيا لا يرى إلاّ غزاةً بدءاً بالفينيقيين ومروراً بالرومان والوندال ، وإنتهاءا بالبيزنطيين جاءوا الى بلاده ، وكان همهم الإستيطان والإستيلاء على خيرات البلاد وليس من أجل غرس عقيدة أو نشر ثقافة كما يقول ابراهيم العبيدى (١) التوزرى .

نعم لا نستطيع أن نغفل أن ثمة بعض التأثيرات الثقافية التي تركها الرومان بين الطبقات البربرية التي ربطتهم وأياهم مصالح مشتركة (٢) . وكذلك فيما وجد من مسارح عثر عليها في بلاد المغرب تدل على نشاط ثقافي (٣) . وكذلك لا نستطيع أن ننكر أن الديانة المسيحية التي حملها البيزنطيون معهم قد استطاعت أن تجتذب إليها نفراً من البربر، وخاصة البرانس ، الذين كانوا يعيشون في المدن الساحلية ، التي تتركز فيها الجاليات البيزنطية والرومانية . (٤)

ولكن هذا وذاك لا يمكن إلاّ أن يظل أثراً ثقافياً محدوداً لا يعتبر شيئا أمام الانتشار الواسع للاسلام ذو الخاصية العقائدية العلمية، الذى إنتشر بين البربر السكان الاصليين للبلاد .

---

(١) تاريخ التربية بتونس ، الجزء الأول ، ص ٧٦

(٢) عباس الجرارى : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، الجزء الأول ، ص ٢٥ - ٣٠ .

(٣) ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ، الجزء الأول ، ص ٧٦ .

(٤) ابراهيم العبيدى التوزرى : تاريخ التربية بتونس ، الجزء الأول ، ص ٧٦

ويبقى من بين تلك الأمم الغازية التى تقاطرت على بلاد المغرب : الفينيقيون والوندال . أما الوندال ، فقد كان تاريخهم دموياً في المغرب ، إضافة الى أنهم كانوا وثنيين عندما اكتسحوا الامبراطورية الرومانية ، ولم يعتنقوا الديانة المسيحية بعد احتلالهم بلاد المغرب وخاصة الأدنى (١) إلاّ موخراً .

واما الفينيقيون فلعلهم الوحيدين الذين ينظر اليهم على أنهم رغم إنحصار إهتمامهم في الاتّجار والثراء كان لهم حضور ثقافي في المغرب (٢) . وهو لا يرقى أو يتناسب بطبيعة الحال مع طول المدة الزمنية (٣) التى قضوها في المغرب من جهة ، والأثر الثقافي العلمى الاسلامي من جهة أخرى ، ولكن مع هذا فقد كان لهم أثر ثقافي غير مباشر وتمثل في سرعة قبول البربر للغة العربية لما فيها من تشابه مع اللغة الفينقية ، كما يوكد كثير من الباحثين المحدثين (٤) . على أنه حتى إذا صح هذا ، فإن ذلك التأثير الثقافي يظل هامشياً أو غير مباشر كما أسلفنا .

أما الفتح الاسلامى ، فقد كان فتحاً عقائدياً علمياً بالدرجة الاولى ، لم تشهد البشرية له مثيلا . والواقع أن الأدلة على أن الفتح الاسلامي - بصرف النظر عن الاقليم المفتوح - إنما

ابراهيم العبيدى التوزري :

(١) تاريخ التربية بتونس ، ج ١ ، ص٧٦ ، وأنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص١١٩ - ١٢٠ .

(٢) أنظر مثلا عباس الجرارى : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه الجزء الأول ، ص ٢٠ - ٢٥ .

(٣) إمتد الحكم والجود القرطاجنى في المغرب ، من عام ٨١٤ق . م - ١٤٦م . أنظر ابراهيم حركات ؛ المغرب عبر التاريخ ، الجزء الأول ، ص٤١ .

(٤) أنظر مثلا عباس الجرارى : نفس المرجع أعلاه والجزء ، ص ١٧ - ١٨ - عبد العزيز بنعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية أوتاريخ الحضارة المغربية ، الجزء الأول ص٢٦ - ابراهيم العبيدى التوزرى ، نفس المرجع اعلاه والجزء والصفحة .

هو فتح عقائدى علمى في المقام الأول- كثيرة ومتعددة . وهل يفوتنا ونحن في هذا السياق الاشارة الى أن أول آية نزل بها القرآن الكريم كانت وما زالت تحث على القراءة والعلم؟ قال تعالى: ﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ - خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ - اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ - الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ - عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(١)! وهل نستطيع إغفال الأحاديث النبوية العديدة التى تحث على العلم والتعلم(٢) ؟

ثم إن اشتراط الاسلام على الشعوب المفتوحة بلادها كأحد خيارات ثلاث ، ألا يعطينا الدليل على أنه-أى الاسلام- يحمل في طياته تلك الخصوصية؟ ، و هي خصوصية الثقافة والعلم. إن إختيارهم للاسلام ستتبعة بالضرورة خطوات هي من العلم والاخذ بالثقافة بمكان كبير ، لا سيما وأن العلوم الدينية هى التى كانت تملاء ساحة العلم، بجانب الأدب في الفترة التى تمت فيها الفتوحات .

ولهذا كله ليس غريباً أن نقول إن افريقية (المغرب الأدنى) بل والمغرب عموماً كان من أوائل الاقاليم المفتوحة التى تجاوبت مع الاسلام ، ومع خصوصياته العلمية ، إذ لم تكد تمر على اتمام الفتح سوى سنوات يسيرة حتى كان المغرب يتفاعل ويتأثر بالثقافة العربية والاسلامية .

---

(١) سورة العلق ، آية ١-٥ .
(٢) أنظر مثلا الاحاديث التى تحث على العلم والتعلم والتى أخرجها البخارى : في صحيحه : باب كتاب العلم، الجزء الأول ص ٢٢- ٤٥ .

ويؤكد أحد الباحثين المحدثين على هذا الأمر بقوله (. . . ويمكننا أن نقول في اطمئنان أن القرن الثانى للهجرة أظلّ بلاد المغرب ، وقد أصبحت قطراً اسلامياً ينفعل مع التفكير الاسلامي الذى شاع في العصر الأموى) (١)

ويقول باحث آخر مانصّه : (وكانتالقيروان في منتصف القرن الثانى للهجرة مرجلاً يغلو بالدراسات والمناقشات المذهبية ، وصارت حلقاتها نوادى تفكير اسلامي . ومسارح ملل ونحل وفلسفات) (٢)

ولقد صاحب انتشار الاسلام بالمغرب - انتشار اللغة العربية بالضرورة ، لاسيما وهى وعاء الثقافة الاسلامية ، التى عن طريقها يمكن أداء الشعائر الدينية كما ذكرنا سابقاً . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لا يمكن فهم خصائص التعاليم والتشريعات التى جاء بها القرآن ، إلاّ عن طريق فهم اللغةالعربية ، ولذلك إنتشرت اللغة العربية في المغرب جنباً الىجنب مع الاسلام.

ويرى حسن أحمد محمود (٣)في سبيل المقارنة بين إنتشار اللغة العربية في كل من مصر والمغرب ، أنها - أى اللغة العربية - كانت أوسع إنتشاراً في المغرب منها في مصر . ذلك أن اللغة العربية واجهت في مصر لغة ذات أصالة وعراقة هى اللغة القبطية ، فضلاً عن وجود اللغةالاغريقية هناك بصورة واضحة ، مع ملاحظة أن مسيرة إنتشار الاسلام وبالتالى اللغة العربية كانت بطيئة

---

(١) حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقية الجزء الأول ، ص ١٦٢ .

(٢) عثمان الكعاك : محاضرات في مراكز الثقافة بالمغرب من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر، ص ١٦ .

(٣) الاسلام والثقافة العربية في افريقية ، الجزء الاول ، ص ١٦٢-١٦٣ .

ولم يتم اسلام أغلبية المصريين إلاّ في أواخر القرن الثالث الهجرى . بينما إختلف الأمر في المغرب ، فبجانب الانتشار السريع للاسلام ، فإن اللغةاللاتينية واليونانية لم تنتشر بين البربر الاّ على نطاق محدود . أما اللغة المحلية وهي البربرية ، فقد كانت أضعف من أن تقاوم تأثير اللغة العربية الكبير ، لا سيما وأنها لم تكن لغة مكتوبة . كما أنها - أى البربرية - تفتقر الى المقردات والقدرة البلاغية والتصويرية التى تحتوى عليهااللغة العربية بمافيها من جرس موسيقى يأسر النفوس . (١)

ولمتفد محاولات بعض الدول المغربية ، كالدولةالرستمية في تاهرت بالمغرب الأوسط مثلاً في إحلال اللغة البربرية محل اللغة العربية في كل مجالات التعبير والأدب . كما فشلت محاولة نقل القرآن الكريم الى تلك اللغة ، حيث ذهبت كل تلك المحاولات أدراج الرياح . (٢)

على أنهذا الأمر وإن كان صحيحاً ، إلاّ أنه لا ينفى في نظر كثير من المحدثين أناللغة البربرية تنتمى كما يظهر من البحث اللغوى الى مجموعة اللغات الحامية السامية ، وذلك لوجود تشابه بين هذه اللغة ، وأخواتها الحاميةالسامية سواءاً من الناحية البنيوية أو النحوية ، أو الجرس الموسيقى أو عن طريق تشابه الخطوط. (٣)

---

(١) عثمان الكعاك : المجتمع التونسى على عهد الأغالبة، ص٣٧ .
(٢) عثمان الكعاك : نفس المرجع أعلاه ، ص ٣٧ .
(٣) عباس الجراري : الأدب المغربى من خلال ظواهروقضاياه ، الجزء الأول ، ص ١٨ .

والواقع أن هذا الأمر يقودنا للبحث عن الأسباب الأخرى التي جعلت البربر يقبلون في لهفة وتسرع على الاسلام ولغته العربية إذ لا يخفى أن الاسلام قد وصل الى غور العقلية البربرية ، وتمكن من مخاطبة عواطف البربر ، وتغلغل في سويداء قلوبهم.

ونحن هنا لن ندخل في تفاصيل القضية المطروحة اليوم، عن الأصل الحقيقي للبربر(١) ، فهذا الموضوع خارج عن خط بحثنا ، لا سيما وأن القضية لم يبتّ فيها البحث التاريخي والجنسي أو السلالي حتى اليوم . ولكن ما نود الاشارة إليه هو أن هناك عناصر تشابه كثيرة بين العرب والبربر كالعادات والتقاليد ، وإتحاد طبيعة الفكريين الجنسيين ، ووجود تشابه في السلوكيات كذلك. (٢)

ويميل بعض الباحثين المحدثين وخاصة من المغاربة الى تأكيد هذا الموضوع ، بل إن بعضهم يعتقد أن البربر والعرب تربطهم وحدة سلالية أو جنسية(٣) كما أن البعض منهم يرجع أصول

---

(١) في هذا الصدد انظر كتاب العبر ودیوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان (الشأن) الأكبر . منشورات دار الفكر ببيروت، الطبعة الاولى. المقدمة (الجزء الأول) ، ص ٩ - ١٠ ، ١٦ - ١٧ ، ٦٠ ، ٧٣ - ٧٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ والجزء الثاني ، ص ٨ - ٩ ، ١٢ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٦ ، ٨٥ ، ١٠٢ ، ٢٨١ والجزء السادس ، ١٧ ، ٤٨ ، ٨٨ ، ١٦٦ - ٣٠٠ والجزء السابع ، ص ٤ - ١٧ سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق، الجزء الاول ، ص ٦٨ - ٧٨ - دائرة المعارف الاسلامية ، الجزء السادس ، ص ٥٦٧ ومابعدها (مادة البربر) .

(٢) الحسن السائح : الحضارة المغربية عبر التاريخ ، الجزء الأول ، الطبعة الاولى ، ص ٩٩ .

(٣) أنظر مثلا عباس الجراري : المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ١٦ - ١٧ .

البربر الى الأصل السامى إعتماداً على وجود تشابه بين اللغة البربرية الدارجة ، واللغات السامية ، ويقولون للدلالة على ذلك إن الحضارة الفينيقية التى أقامها الفينيقيون في المغرب نجحت لأن اللغة الفينيقية استقبلت من قبل البربر بالقبول ، نظراً لوحدة الأصل السامى بينهما . (١)

ونحن كما ذكرنا لا يهمنا تأكيد أو نفى الرابطة السلالية بين العرب والبربر بقدر ما يهمنا الإشارة الى وجود تماثل وتمازج إجتماعى وفكرى بين العرب والبربر. وقد أشار أحد المؤرخين الفرنسيين وهو : ل . أ. سديو في كتابه تاريخ العرب العام فيما ينقله عنه الحسن السائح (٢) الى أن البربر والعرب لهم ميول وعواطف ومبادئ متشابهة ، كحب الفخر والهيام بالحرية والإكرام الضيف . كما يذكر مؤرخ فرنسى آخر وهو جوتييه في كتابه : عصور المغرب الغامضة فيما ينقله عند عبد العزيز بنعبد الله (٣) مانصه : (إننا نلاحظ خلال مجموع تاريخ المغرب تجاذباً بين البربر الرحل والعرب لأن تشابه الحياة والعواطف الجوهرية أقوى من إختلاف اللهجات) ، وفي موضع آخر يشير الى أن الحضارات السالفة عجزت عن بلوغ هذه الغاية .

وأيا ما كان الأمر ، فقد إنتشر الاسلام في المغرب عموماً ، وكذلك إنتشرت اللغة العربية نتيجة لخصوصياتهما العلمية ، وللتشابه

---

(١) راجع عبد العزيز بنعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ، أو تاريخ الحضارة المغربية ، الجزء الأول ، ص ٢٢ ، ٢٥ - ٢٦ .

(٢) الحضارة المغربية عبر التاريخ ، الجزء الأول ، ص ٩٩

(٣) مظاهر الحضارة المغربية ، الجزء الأول ، ص ٢٥ .

الكبير بين البئتين : العربية والبربرية . ولإذا كانت عملية تعريب البربر لم تكتمل تماماً وتمخض عنها وجود الأقليات البربرية القائمة حالياً ، فإن هذه الأقليات البربرية قد تعرَّبت ألسنتها ، وتعرَّب فكرها . وهذا ما أشار إليه المؤرخ الفرنسي جوتييه (١) بقوله : (إن نتائج الفتح العربي بعد مرور إثنتي عشر قرناً ، تبعث على الدهشة لأن المغرب استعرب على نطاق واسع . كما تغلغل الإسلام في أحشائه وشمل مجموع أجزائه، وقلَّما أحرزت الفتوحات في تاريخ المعمورة مثل هذا النجاح) .

---

(١) فيما ينقله عنه عبد العزيز بنعبد الله : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٢٥ .

جهود الفاتحين والولاة في نشر الاسلام وأهمية البعثات العلمية في الازدهار :

استغرق فتح المغرب مدة زمنية طويلة قياساً بفترة باقي الفتوحات وإمتدت هذه الحقبة من عام ٢٢- ٩٠ وقد تعاقب خلال تلك الفترة عدد من القادة إبتداءاً من عمرو بن العاص، وعبدالله بن سعد بن ابي السرح، ومعاوية بن حديج ، ومروراً بعقبة بن نافع، وأبي المهاجر دينار ، وزهير بن قيس ، وإنتهاءاً بحسان بن النعمان الغساني ، وموسى بن نصر ، وقد تلى هؤلاء القادة الفاتحين ولاة الأمويين فالعباسيين حتى قيام الدولة الأغلبية عام ١٨٤هـ .

ولقد كان للكثير من هؤلاء القادة دور مرموق في نشر الاسلام والدراسات الاسلامية في المغرب عموماً . على أننا نقف عند بعضهم ، وهم الذين بذلوا جهداً مذكوراً في نشر الاسلام والدراسات الاسلامية دون غيرهم . وعلى رأس هؤلاء يأتي القائد عقبة بن نافع الذي تولى قيادة فتح المغرب سنة ٥٠هـ ، فرأى بثاقب فكرة العسكري أن ينشيء مدينة تكون بمثابة قاعدة عسكرية للمسلمين في بلاد المغرب . ونحن لا يهمنا في هذا الصدد استعراض الأسباب العسكرية والاجتماعية التي فرضت على عقبة بن نافع تأسيس قاعدته العسكرية : القيروان ، وإنما يهمنا الاشارة الى أن القيروان أضحت منذ اللحظة التي تم فيها إنشاؤها بجانب كونها قاعدة عسكرية للجند العرب ، وأول منارة للاسلام في افريقية ، العاصمة الثقافية الاسلامية الأولى في المغرب كلية ، ولقد ترتب على ذلك أن أصبحت تضطلع بدور رئيسي في نشر الاسلام والثقافة الاسلامية

والعربية لا في المغرب وحده ، بل وفي غرب افريقيا ، وفي الأندلس ، وفي صقلية .(١)

ويكفينا هذا القدر من الحديث عن مكانة القيروان الثقافية والعلمية ، فمكان ذلك التوسع في الحديث عنها في الفصل الثاني حيث سنوضح مراكز الثقافة في افريقية(المغرب الأدنى) ، إن شاء الله . غير أن مجمل القول الذي نستطيع تأكيده هنا هو أن الدراسات الشرعية والأدبية في المغرب ماكان ليكتب لها النجاح والانتشار لولا وجود مدينة القيروان .

وبجانب الأثر الثقافي لتأسيس مدينة القيروان ، فإن كثيراً من المؤلفين قدامى ومحدثين يتفقون على الأثر الكبير الذي بذله القادة العرب في سبيل نشر الاسلام ، الدراسات الاسلامية والعربية . فلقد حرص أولئك القادة إبتداءاً من عهد عقبة بن نافع على نشر الاسلام بين البربر ، أتخذوا في سبيل الوصول لذلك سياسة الترغيب وتأليف القلوب والمساواة بين العرب والبربر إلاّ فيما ندر . فأبو المهاجر دينار خليفة عقبة بن نافع في المغرب يعمل جاهداً على ترغيب البربر وخاصة البرانس منهم لإعتناق الاسلام ، وتنجح جهوده نجاحاً طيباً فيسلم زعيمهم كسيله ومعه عدد كبير منهم.(٢)

ثم تُظِلُّ المغرب حملة حسان بن النعمان الغساني

---

(١) محمد العروسي المطوي : سيرة القيروان ورسالتها الدينية والثقافية في المغرب الاسلامي ص ١٧ ، ٣٩ ومابعدها ، و ص ٧٧ مابعدها .

(٢) السيد عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ، ص ١٢٩-١٣٠
أحمد مختار العبادي : المرجع السابق ص ٣٢-٤٣ .

لتبدأ معها صفحة بيضاء يعود الفضل فيها بعد الله له ولسياسته الحكيمة . وترجمت سياسته تلك في صورة قرارات وأفعال مالت بالبربر الى الاسلام . فلقد أشعرهم بالمساواة الكاملة مع العرب تلك المساواة المستمدة من روح الاسلام وتعاليمه (١) ، ولم يكتف بذلك بل أشركهم مع العرب في فتح المغربين الأوسط والأقصى (٢) ، وزاد في إطمئنانهم ،إعتبار أرضهم مفتوحة صلحاً لاعنوة ، (٣) فأقرهم على مابتحت أيديهم من أراض (٤) ، ومن الطبيعى والحالة كذلك أن تؤتى هذه السياسة أكلها ، فعادت للبربرى عزته وأنفته ، وبات يطرد من حياته شعور النقص والإنتقاص التى عمقها في نفسه الغزاة من الرومان والوندال والبيزنطيين ، فاندفع بتحمس لإعتناق الاسلام واشرأب بعنقه الى ثقافته وتراثه .

والى جانب ذلك يعود الفضل لحسان بن النعمان في تعريب الدواوين في المغرب ، وجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية ، مثلما يعود الفضل له في إنشاء الأسطول الاسلامى البحرى في المغرب ، وكذلك إنشاء مدينة تونس لدرء غارات النصارى . (٥) .

حسن أحمد محمود :

(١) الاسلام والثقافة العربية في افريقية ، ج ١ ، ص١٥٩ .

(٢) حسن أحمد محمود : نفس المرجع والجزء والصفحة أعلاه .

(٣) حسن أحمد محمود : نفسه ، ص ٥٩

(٤) في هذا الصدد يقول ابراهيم أحمد العدوى ان المورخ المصرى ابن عبد الحكيم كان أول من أشار الى أن حسان بن النعمان اتخذ سياسته الخاصة تلك باعتبار ارض البربر فتحت صلحاً لاعنوة . تماماً مثلما حدث في مصر : ذلك لان المسلمين اعتبروا أنفسهم أنهم كانوا في حرب مع الروم لا مع البربر أهل البلاد الأصليين .
- أنظر ابراهيم العدوى : ابن عبد الحكم رائد المورخين العرب ، ص ١٤٧ .

(٥) أبو القاسم كروو عبد الله شريط : عصر القيروان ، الطبعة الاولى ، ص ١٦

أما موسى بن نصير خلفه، فقد حظي بثناء المؤرخين قدامى ومحدثين على سياسته وجهوده في نشر الاسلام والثقافة العربية. فهذا ابن خلدون (١) مثلا يثنى على جهوده التى تمخضت في ثبات البربر على دين الاسلام. والواقع أن موسى بن نصير جهد على أن يتابع سياسة حسان بن النعمان تجاه البربر، فقربهم له وولاهم الاعمال جنبا الى جنب مع العرب، وكان يرى ضرورة إفهام البربر بأن يعتنقوا الاسلام دونما ضغط أو إكراه، بل يكون إعتناقهم له نابعاً من عقولهم وضمائرهم.(٢) وجهود موسى بن نصير في نشر الاسلام في المغرب الأقصى جهود لا يمكن إنكارها. ويكفى أن نشير الى أن فتح الاندلس كان ثمرة من ثمرات تلك السياسة.(٣)

غير أن ما تجب الإشارة إليه هو أن هذه السياسة الحكيمة من موسى بن نصير قد شابها بعض العنف والقسوة أحياناً.(٤)

وسار على سياسة موالاة البربر والتقرب إليهم أكثر الولاة الأمويين، ولم يشذ عنها إلاّ نفرٌ منهم.(٥) فعلى سبيل المثال نجد المصادر والمراجع تثنى على عبيد الله بن الحبحاب، فرغم ما أرتكبه من سياسة الشدة تجاه البربر إلا أنه عمل بالمقابل على

---

(١) العبر، الجزء السادس، ص ١٣٥، ١٤٤، ٣٠٠.

(٢) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٠

(٣) حسن احمد محمود: نفس المرجع السابق أعلاه والجزء والصفحة.

(٤) سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ج ١، ص ٢٤٠-٢٤٣ - السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٧١ - ١٧٢.

(٥) عن سياسة تشدد بعض الولاة ومنهم عبيد الله بن الحبحاب مع البربر، راجع الرقيق القيروانى: تاريخ افريقية والمغرب ص ٩٩-١٠١، ص ١٠٧-١٢٢- ابن عذارى: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٨ - ٥٨.

الاسهام في مسيرة الحياة الثقافية . فأسس على الأرجح (١) في مدينة تونس جامع الزيتونة الذى غدا بعد برهة من الزمن مركزاً مهماً للثقافة في المغرب ككل . وظلت جامعته أى جامع الزيتونه تقوم بدورها الثقافي حتى اليوم.(٢)

أما في عهد الولاة العباسيين ، فقد كان ليزيد بن حاتم المهلبي الذى ولاه الخليفة المنصور ولاية افريقية والمغرب سنة ١٥٤هـ(٣) دور كبير في إضفاء جو ثقافي على افريقية .وذلك أنه بعد أن استقرت أموره في البلاد ، استقدم من المشرق بعض الأدباء والشعراء ذائعي الصيت ، الى جانب من قدم منهم بمبادرة فردية منه . وأعطى وجودهم للأدب والثقافة دفعة قوية تأثر بها أبناء المغرب.(٤)

وثمة جانب آخر أدى الى إزدهار الحياة العلمية في المغرب الأدنى ، وهذا الجانب هو البعثات العلمية التى أرسلها بعض الخلفاء الى هناك . وفي الحقيقة أن هناك فيما يتعلق بهذا الجانب نوعين من البعثات ، فمنها ماهو فردى ومنها ماهو رسمي . أما البعث الفردى ، فقد جاء نتيجة شعور بعض العلماء بحاجة المغرب الى التزود بالعلم والعلوم الدينية التى هى جوهر الثقافة الاسلامية وقتذاك . فتتابع مجيئهم الى المغرب . وعقدوا

---

(١) عن الخلاف في هوية المؤسس الحقيقي لجامع الزيتونه ، راجع بعد ص ٢١٩-٢٢٠

(٢) أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : عصر القيروان ، ص١٦-١٧.

(٣) صدر الأمر من الخليفة المنصور بتوليته أواخر سنة ١٥٤هـ ، وكان وصوله افريقية في عام ١٥٥هـ ، راجع الرقيق القيروانى المصدر السابق ، ص١٤٦ - ابن عذارى : المصدر السابق ، والجزء ص ٧٨ - سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٤) أنظر محمد طه الحاجرى : دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربى ، الطبعة الأولى ، ص ٤٩ - ٥٣ .

هناك حلقات الدرس والمطالعة حيث أقبل عليها أبناء المغرب وكذلك أبناء الجند العرب المقيمين بالمغرب إقامة دائمة .

وإذا كانت المصادر قد سكتت عن تبيان الأثر العلمي الذى تركه مرور بعض الصحابة (١) ، رضوان الله عليهم ، في المغرب وخاصة أولئك الذين شاركوا في غزوة (٢) سبيطله التي وقعت عام ٢٧ هـ ، والتي تسمى بغزوة العبادلة أيضا ، فيما عدا ذكر صحابي أو اثنين (٣) فقط ، فانها - أى المصادر - قد أمدتنا بمعلومات لا بأس بها عن بعض التابعين الذين أثروا الحياة العلمية في المغرب آنذاك لا سيما وإن كثيراً من أولئك التابعين قد طاب لهم المقام بافريقية حتى أدركتهم المنية هناك .

---

(١) مر على افريقية عدد كبير من الصحابة ، فمنهم من جاء غازيا مع الحملات الاسلامية لفتح المغرب ، ومنهم من جاء قائدا لتلك الحملات ، أو اميرا على افريقية والمغرب . غير أن إقامة هؤلاء الصحابة لم تدم طويلا ، فعاد بعضهم الى بلاده ، واستشهد النفر اليسير منهم في افريقية وأدركت القليل جدا منهم المنية هناك . راجع المالكى : المصدر السابق الجزء الأول ، ص ٤١ - ٦٣ .

(٢) عن غزوة سبيطلة التي إنتهت بإنتصار المسلمين أنظر ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء . ص ٨ - ١٣ - سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١٤٧ - ومابعدها - السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٦٦ ومابعدها .

(٥) من الصحابة الذين تركوا أثرا علميا في افريقية : أبو زمعة عبيد الله بن آدم البلوى الذى أقام بافريقية حتى توفي أنظر المالكى : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٥٤ - ٥٥ - ومن الصحابة كذلك المنيذر الافريقى ، وقد دخل الاندلس كذلك . أنظر المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها ابن الخطيب منشورات دار الكتاب اللبنانى تحقيق إحسان عباس الجزء الاول ، ص ٢٧٩ .

فمن أولئك التابعين نشير الى إسم بارز كان له دوره في نشر الاسلام والدراسات الاسلامية في افريقية والمغرب الا وهو عكرمة بن عبدالله مولى الصحابى المعروف عبدالله بن عباس. وعكرمة بربرى الأصل - وفي هذا ما يؤكد ماسبق ذكره من تعلق البربر بالاسلام منذ وقت مبكر - وقد ساقته الظروف الى الحجاز ، ويشاء الله أن يصبح مولى لابن عباس ، فيثابر على طلب العلم والمعرفة ، فيسمع من كبار الصحابة ومن بينهم مولاه حتى تعلو قدمه ، فيفوق أقرانه . ويرى فيه مولاه ابن عباس القدرة على الفتيا فيأذن له بذلك ويعلو شأنه وصيته في المشرق حتى كان التابعى الجليل الحسن البصرى يمسك عن التفسير والفتيا إذا ماقدم عكرمة الى البصرة ، ثم يعاوده الحنين الى مسقط رأسه المغرب ، فيعود و يتخذ من القيروان مسكناً له ويتصدر هناك للتدريس والتعليم في جامعها الأكبر ، جامع عقبة بن نافع (١) . ولعكرمة دور رئيسى ينسبه له كثير من المؤرخين وكتاب الطبقات والتراجم في نشر الآراء الخارجية في بلاد المغرب، سنأتى بتفاصيله لاحقاً إن شاء الله .

ومن التابعين الذين كان لهم دور معروف في الدراسات الاسلامية في المغرب التابعى المعروف خالد بن أبى عمران التجيبى وقد جاء والده الى المغرب في الحملة التى قادها حسان بن النعمان في سنة ٧٤ هـ . وفي افريقية أنجب ابنه خالدا الذى يعتبر

---

(١) أبو العرب التميمى : كتاب طبقات علماء افريقية ، ص ١٩ - ابن خلكان : وفيات الاعيان ، الجزء الثالث، ص ٢٦٥ - الداودى طبقات المفسرين ، منشورات مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، الجزء الأول ، ص ٣٨١ .

مواطناً مغربياً ، وقد ترك خالد بن ابى عمران في افريقية علماً غزيراً ، وأنصب إهتمامه على دراسة الحديث وروايته . وتوفى سنة ١٢٥هـ أو ١٢٧هـ . (١)

ومنهم أيضا التابعى يحيى بن سعيد بن فهد الأنصارى الذى ولد بالمدينة المنورة ، ثم مالبث أن دخل افريقية في نهاية القرن الأول للهجرة ومشارف القرن الثانى ، فنشر فيها علمه ومعارفه ، وتتلمذ على يديه الكثيرون . وقد إشتهر بدراسة الحديث وروايته أيضاً ، وظل كذلك حتى وافته المنية عام ١٤٣هـ.(٢)

والى جانب هؤلاء التابعين ، شهدت افريقية قدوم أعداد أخرى منهم . وقد توسع المالكى (٣) في ذكرهم ، وذكر فضائلهم . وتتبع سيرهم في مواطنهم الأولى ، ثم بافريقية ، وذكر من دخل من طبقة التابعين المذكورين سابقاً ثم عاد لبلاده ثانية .

وهكذا تتضح الأهمية الكبرى لوجود هؤلاء الصحابة والتابعين في افريقية ، فعن طريقهم إنتشرت العلوم والمعارف الدينيه هناك . ولم يمض وقت طويل حتى كانت القيروان بإعتبارها عاصمة المغرب الروحية تشارك في العلوم هذه ، وتصبح أحد مراكز الثقافة العربية والاسلامية في العالم الاسلامي كما سترى بعد إن شاء الله .

---

(١) حسن حسنى عبد الوهاب : الامام المازرى ، سلسلة نوابغ المغرب ، رقم ١ ، ص ١٦-١٧ .
(٢) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع اعلاه ، ص١٤-١٥ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٧ - ٨٩ ، وص ٨٩ - ٩٥ .

أما عن البعث الرسمي - وهو الذى أجلنا الحديث عنه - فالحقيقية أن المصادر والمراجع التى تناولت هذا الموضوع تكاد تتفق على أهمية البعثة العلمية التى أرسلها الخليفة الاموى عمر ابن عبد العزيز فى مشارف نهاية القرن الأول الهجرى (١). فقد عملت هذه البعثة على نشر الاسلام والدراسات الاسلامية بين البربر حسبما زوّدها بذلك الخليفة، وقد توزع أفراد هذه البعثة في مدن افريقية بجانب القيروان ينشرون علومهم ويشيعون بين الناس حب قراءة القرآن وفهم السنة النبوية الشريفة، زد على ذلك حرصهم على بناء المساجد (٢) في المدن التى نزلوها ، وكانت النتيجة المباشرة لذلك أن أقبل البربر على الاسلام ، كما أقبلوا على دراسة علومه ، فظهرت تبعا لذلك أجيال من أبناء افريقية سواء أكانوا بربرا أم عرباً تسابقت في تحصيل العلوم الدينية وغيرها . ولم يقتصر نشاط تلك البعثة على افريقية (المغرب الأدنى) فحسب ، بل شمل المغرب كله والأندلس . (٣)

---

(١) أنظر المالكى : المصدر السابق والجزء ص ٦٤ - ٦٧ - الدباغ : معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ، الجزء الاول ، ص ١٦٠ ، ٢١٣ - حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، مختصر يشمل ذكر حوادث القطر التونسى من أقدم العصور الى الزمان الحاضر، ص٦٣ - ٦٤ حسن حسنى عبد الوهاب ، الامام المازرى ، ص ١١- ١٣ الطاهر أحمد الزاوى : تاريخ الفتح العربى في ليبيا ، ص١٤٨ - ١٥٢ - عبد السلام الكنونى ؛ المدرسة القرآنيه في المغرب من الفتح الاسلامي الى ابن عطيه ، الجزء الأول ،الطبعة الاولى ، ص ٣٠ - ٣٢ - الفرد بل : الفرق الاسلامية في الشمال الافريقى من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمة عن الفرنسية عبد الرحمن بدوى ، ص ٩٦ - ١٠١ .

(٢) الطاهر احمد الزاوى : نفس المرجع اعلاه ص ١٤٨ - ١٥٢

(٣) أنظر، عبد السلام أحمد الكنونى : المدرسة القرآنية في المغرب من الفتح الاسلامي الى ابن عطيه ص٣١- ٣٢ .

ويحسن بنا قبل أن نختتم الحديث عن هذا الجانب أن نشير الى أسماء أفراد البعثة كما أوردها المؤرخون. والبعثة التي كانت تتكون من عشرة اشخاص كان يرأسها التابعي عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي، ويكنى بأبي عبد الرحمن، وقد توفي سنة ١٠٠هـ. بالقيروان، وخصّه المالكي (١) بترجمة لا بأس بها.

ومن أفراد البعثة أيضاً سعيد بن مسعود التجيبي وقيل إن اسمه سعد، ويكنى بأبي مسعود. وقد أغفل المالكي ومن جاء بعده سنة وفاته (٢). ومنهم أيضا أبو سعيد: جعثل بن عاهان أو هامان بن عمود وقيل عمير، وكان بجانب إنتصابه للتدريس يتولى القضاء للجند بافريقية (٣). وقد توفي كما ذكر الطاهر الزاوي (٤) فيما ينقله من مصادره عام ١١٥هـ.

أما اسماعيل بن عبيد الأنصاري (٥)، فان الروايات تثني عليه كثيرا، فهو بالاضافة الى علمه الغزير، فقد اشتهر بالفضل والورع، ويدعى أيضا بتاجر الله لأنه أوقف ثلث ماله للنفقه في سبيل الله، وقد أشار المالكي (٦) الى أنه بنى مسجداً كبيراً في القيروان يعرف بمسجد الزيتونه. وقد توفي غازياً في صقلية سنة ١٠٧ هـ.

---

(١) المصدر السابق والجزء، ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) نفس المصدر السابق والجزء، ص ٦٦ - ٦٩.

(٣) المالكي: نفس المصدر السابق والجزء، ص ٧٥ - الدباغ: معالم القيروان، ج ١، ص ١٦٥ - الطاهر احمد الزاوي تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ١٥٠ - عبد السلام الكنوني: المرجع السابق، ج ١، ص ٣١.

(٤) تاريخ الفتح العربي، ص ١٥٠

(٥) انظر المالكي: نفس المصدر السابق والجزء، ص ٦٩ - ٧٢ - الدباغ: نفس المصدر السابق اعلاه، ج ١، ص ١٦٧ ومابعدها.

(٦) نفس المصدر السابق والجزء، ص. ٧ ويقول المالكي: عنه وهو الذي بنى المسجد الكبير بالقيروان الذي يعرف الان بمسجد الزيتونه. وعلى هذا فالأمر واضح، وليس ثمة لبس بين مسجد الزيتونه في القيروان هذا وجامع الزيتونه في مدينة تونس.

ومن أفراد البعثةكذلك التابعى عبدالرحمن بن رافع التنوخى ، ويكنى بآبى الجهم أو أبى الجهل ، وقد توفى سنة ١١٣ (١) . وكذلك موهب بن حى المعافرى ، وكان عالماً فاضلاً ولم يشر المالكى (٢) أيضا ولا من جاء بعده الى سنةوفاته . ومنهم أبو ثمامة بكر بن سوادة الجذامي وقد روى عن جماعة من الصحابة كعقبة بن عامر الجهنى و سهل بن سعد الساعدى وغيرهما . ولم ترد سنةوفاته كذلك . ومن أفراد البعثة أيضا طلق بن جابان أو حابان أوجنان الفارسي . (٣)

أما حيان بن أبى جبلة القرشي ولاءاً ، حيث(٤) كان ولاؤة في بنى عبدالدار ، فقد كان من أبرز أفراد البعثة . وقد أدى دورا مهما في نشرالاسلام والدراسات الاسلامية في افريقيه . ويخصه مؤرخو التراجم والطبقات بترجمة جيدة ، وهو تابعى مشهور ، روى عن غير واحد من الصحابة رضى الله عنهم كعبدالله ابن عباس ، وعبدالله بن عمرو ابن العاص، وقد سكن القيروان ، ويقال له حيان أيضا . والغريب أنه في حين يشير المالكى الى أن حيان بن أبى جبلة قد توفى سنة ١٢٥هـ ، يقول ابن الفرضى(٥) إنه غزا معموسى بن نصير حين افتتح الأندلس حتى إنتهى الى حصن من حصونها يدعى قرقشونة فتوفى بها . والمعروف أن غزو موسى

---

(١) المالكى : المصدر السابق والجزء ، ص ٧٢ - الدباغ : المصدر السابق والجزء ، ص ١٦٩ .

(٢) نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ص ٧٣ .

(٣) المالكى : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ٧٦ الدباغ : نفس المصدر السابق والجزء ص ١٧٠ .

(٤) المالكى : نفسه ، ص ٧٣ - ٧٤ الدباغ : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ص ١٧١ ، ابن المفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٥) تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٢٣

للأندلس كان في سنوات ٩٣ - ٩٥هـ (١) فكيف يستقيم هذا مع ماأورده المالكى ، ومن جاء بعده الا أن يكون حيانا قد بقي في الأندلس وبالتحديد في قرقشونه حتى أدركته المنية سنة ١٢٥هـ .

أما عاشر أفراد البعثة فهو الأمير اسماعيل بن عبيد الله ابن أبى المهاجر القرشي ولاءاً أيضا ، وكان ولاؤه في بنى مخزوم . وقد عينه الخليفة عمر بن عبد العزيز والياً على أهل افريقية بجانب أنه أحد أفراد البعثة . وقد أسهم في نشر الاسلام كثيراً في افريقية بفضل وظيفتيه المهمتين ، وتوفى سنة ١٢٥هـ . (٢)

وهكذا تبدو لنا الأثار الايجابية لجهود القادة والولاة في نشر الاسلام والدراسات الشرعية في افريقية والمغرب ، كما تتضح لنا أهمية الدور الذى أدته البعثة العلمية التى بعثها عمر بن عبد العزيز في نشر الاسلام والدراسات الشرعية كذلك وسوف تتضح الصورة اكثر فاكثر عندما نتناول لاحقاً بالشرح والتفصيل مسيرة الحياة العلمية المزدهرة في الفترة الزمنية موضوع الرسالة .

---

(١) أنظر مثلا ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص٤٣
(٢) المالكى : المصدر السابق والجزء ، ص ٧٥ - ٧٦
الدباغ : المصدر السابق والجزء ، ص١٦٨ - ١٦٩ .

قيام الدول المستقلة

إن النهضة العلمية الكبرى التى شهدتها افريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع الرسالة إنما تدين في كثير من تقدمها وتطورها الى تلك الدول المستقلة التى ظهرت هناك آنذاك . فلقد أوجد قيامها ومن ثم استقرارها تياراً ثقافياً نشطاً دفع العلماء والأدباء الى إبراز مواهبهم دونما خوف أو وجل أوشعور بعدم الأمن ، فانطلقوا يبدعون ويملأون البلاد علماً وثقافة وأدباً . ولم تكن الدول نفسها بمنأى عن ذلك ، فلقد أسهمت بما أولته للعلوم والمعارف من أهمية وماقدمته للعلماء من رعاية وتشجيع ، وماوهبته لهم من أعطيات في تقدم الحياة العلمية وازدهارها . ومامن ريب في أن بواعث تلك الدول في الاهتمام بالعلوم والمعارف الى جانب ماذكر ، إنما يعود الى رغبتها في إضفاء جو من الهيبة لها من جهة ، وارضاءاً لشعور ذاتى من جهة ثانيه : وخلق حالة من الشعور بالاستعلاء والتفوق على الدول المجاورة وغيرها من جهة ثالثة .

وقبل أن نبرز دور تلك الدول المستقلة في هذه النهضة العلمية ، نرى لزاما علينا الإشارة الى جهود من سبقهم في عصر الولاة الأمويين والعباسيين . فلقد شهد عصر الولاة حكم أسرتين كان لهما تأثير في الحياة السياسية والاجتماعية في المغرب الأدنى ، وأعنى بذلك الاسرتين : القهرية التى تنتسب الى القائد المشهور عقبة بن نافع والذى انتزى مؤسسها عبدالرحمن ابن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع على ولاية افريقية

وأقصى الوالى الأموى حنظلة بن صفوان الكلبى منها سنة ١٢٧هـ ودعا لنفسه هناك . ثم مالبث أن إنتهى وجود هذه الأسرة بمقتل إبنه حبيب سنة ١٤٠هـ.(١) أما الاسرة الثانية فهي الاسرة المهلبية التى تنتمى الى القائد العسكرى الأموى : المهلب بن أبى صفرة . وقد تولى بعض أفرادها ولاية افريقية من قبل الخلافة العباسية في الفترة التى سبقت قيام الدولة الأغلبية .

أما دور الأسرة الفهرية في الحياة الثقافية ، فلم يكن واضحاً وسط ذلك التطاحن والتحارب مع الجند العرب في افريقية من جهة ، ومع البربر من جهة ثانية . ولم نعثر على شيء ذى بال في هذا الخصوص فيما عدا ماذكر من جهود مؤسسها عبد الرحمن بن حبيب في نشر الاسلام والثقافة الاسلامية في غربى افريقية وجنوبى المغرب الأقصي وقتذاك . (٢)ـ

وأما دور الأسرة المهلبية فقد كان واضحاً وبارزاً ، وقد حظيت الحياة العلمية والأدبية على وجه الخصوص في عهدهم بالتقدم والانتشار . وقد مر بنا دور يزيد بن حاتم المهلبى في

---

(١) عن الاحداث السياسية والعسكرية التى شهدتها افريقية في عهد الاسرة القهرية ، راجع الرقيق القيروانى : المصدر السابق ، ص ١٢٣ - ١٤١ - ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص. ٦- ٧٠ سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣١٣ - ٣٣٩ .

(٢) أنظر حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى شرقي القارة الافريقية وغربيها ص ٤٩ - ٥٠ .

ذلك . فيزيد بن حاتم الذى تولى ولاية افريقية من سنة ١٥٤ حتى سنة ١٧٠هـ (١) ، حاول أن يجعل بلاطه زاخراً بالعلماء والأدباء كما هو شأن الولاة الآخرين . فاستقدم عدداً كبيراً منهم (٢) . كما قدم إليه البعض منهم برغبة فردية ، وهناك نشروا أدبهم ونشروا علمهم وتتلمذ على أيديهم جيل كان النواة الاولى للأجيال القادمة بعد ذلك من أبناء المغرب الأدنى سواء كانوا عرباً أم بربراً .

وأزدهر على وجه الخصوص في عهد خلفائه من أبناء أسرته الشعر بمجالاته المتعددة من فخر، ومديح ، وهجاء ، وعتاب ، . . الخ . ولكن هذا الدور الذى رسمته لهم كتب التاريخ والأدب لم يأت في الحقيقة بقصد مباشر، بل جاء عفوياً عندما استمر الخلاف بينهم وبين أبناء الجند العرب الذين إعتبروا أنفسهم أبناء البلاد الأصليين ، فاستخدم الطرفان سلاح الشعر الذى لم يخب أواره في توضيح وجهات نظرهما . (٣)

أماالدول المستقلة ودورها في إزدهار الحياة العلمية في افريقية ، فقد إبتدأ منذ اللحظة التى قامت فيها هناك دولة الأغالبة سنة ١٨٤هـ على النحو الذى سبق أن أشرنا اليه ، وهى

---

(١) سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٧١

(٢) أنظر بعد ص ٦٤٨-٦٥١ ، ٧٢١-٧٢٣

(٣) أنظر مثلا ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ٧٤ ومابعدها
ابراهيم الدسوقي جاد الرب : شعر المغرب حتى خلافة المعز ، ص ٧٥ ومابعدها .

أول دولة مستقلة استقلالاً ذاتياً في تاريخ المغرب .(١)

ولقد حرص أمراء هذه الدولة إبتداءاً من عهد مؤسسها ابراهيم بن الأغلب ، وإنتهاء بآخر أمير فيها ، على النهوض بافريقية والعمل على تقدمها ، فتألّقت الحياة العلمية في عهدهم أيما تألّق وسنتبين لاحقاً من خلال أبواب الرسالة ، المدى الذى بلغته الحياة العلمية في عهدهم .

غير أن الأثر العلمى البارز الذى تجب الإشارة إليه هو تفوق الدراسات الشرعية وعلى وجه الخصوص الفقه ، لدرجة أنه أصبحت له مدرسة فقهية افريقية هناك والى جانب مدارس مكة والعراق والأندلس . ويلى هذا أثر علمى آخر يعود الفضل الى وجوده للأغالبة . وهو تأسيسهم لبيت الحكمة في مدينة رقادة بعد ذلك . وسنتبين ذلك الأثر في مكانة بعد إن شاء الله . (٢)

أما الدولة الفاطمية التى تمكن لها الأمر في عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م بالاطاحة بالدويلات المستقلة في المغرب عموماً ، وهى الأغلبية ، ودولة بنى رستم في تاهرت . وبنى المدرار في سجلماسة والادارسة في فاس ، فقد كانت المسيرة العلمية فيها لا تقل عن مسيرتها في عهد الدولة الأغلبية - غير أن طبيعة الحياة العلمية في عهدهم إتخذت منحىً تمثّل في إتجاهين : أولهما

---

(١) سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق والجزء ، ص ٢٨ - ٢٩ - السيد عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٢) أنظر بعد ص ١٦٠

إتجاه يخدم الفكر والمعتقد الشيعى سواء كان ذلك عن طريق الدراسات الشرعية أو عن طريق الدراسات الأدبية . وثانى الاتجاهين هو الاتجاه السنى المالكى الذى هدف الى مقاومة المد الفكرى الشيعى .

وعندما فكر الفاطميون في الرحيل الى مصر، وهو ماتحقق لهم فعلا عام ٣٦٢هـ/٩٧٢م ، ظهرت دولة مغربيةجديدة هى الدولةالزيرية والصنهاجية(١) . وهذه الدولة ، وإن كانت مستقلة عنالدولة الفاطمية استقلالاً ذاتياً - فيماعدا الفترة الأخيرة من عمرها عندما قطعت صلتها بالدولة الفاطمية - إلاّ أنها تمتعت بحرية كبيرة وبأحوال إقتصادية ممتازة ، نجمت عن تحول خط التجارة بين البلاد الافريقية والمشرق عن طريق بلاد النوبة الى المغرب ، ومن بينها القيروان التى كانت عاصمة للدولة الزيرية(٢) .

ولقد خطت هذه الدولة نحو التقدم والازدهار العلمى خطوات تعتبر من أعظم وأجل ماشهدته البلاد(٣) الافريقية . وكانت عاصمتها القيروان تعتبر العاصمة الثالثة للثقافة الاسلامية والعربية بعد بغداد وقرطبة وأتاح هذا كله للدولة الزيرية أن تولى إهتمامها للعلم والأدب إهتماماً يفوق الوصف . فكان أن ظهر في عهدها أبعد الأدباء والقراء والكتاب الافريقيين ذكراً مثل ابن رشيق ، وابن شرف ، وابراهيم الحصرى ، وعلى بن عبد الغنى الحصرى

---

(١) عنالدولة الزيرية ، أنظر قبل ص ٨٥

(٢) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي - الحياة الاقتصادية والاجتماعية (٣٠٤هـ/٩-١٠م) ص ٢٤ - ٢٥ .

(٣) أنظر عبد الروءوف عبد العزيز مخلوف : ابن رشيق ونقد الشعر - دراسة نقدية تحليلية مقارنة ، ص ٧٤

كما ستعرف ذلك بعد في موضعه إن شاء الله.

ويتراءى لي في هذا القدر من الحديث ما يكفي للدلالة على أن إزدهار الحياة العلمية في افريقية في الفترة موضوع الرسالة قد واكب ظهور الدول المستقلة التي رعته وشدت من أزره حتى استوى عوده. أما الحياة العلمية وتفاصيلها في عهود تلك الدول، فهو ما سيكون مادة حديث القسم الثاني من الرسالة إن شاء الله.

الرحلات العلميـــة

إذا كانت العوامل التى أشرنا اليها من قبل ، عظيمـــــة الأثر في النهضة العلمية التى شهدتها افريقية (المغرب الأدنـــي) خلال الفترة موضع الاهتمام فإنه لا يمكننا أن نغفل الدور الكبير الـــذى لعبته الرحلات العلمية في إثراء تلك النهضة. بيد أننا رغبنـــــا في افراد دور الرحلات العلمية بحديث طويل لا لأنه غير ذا مســـاس بالعوامل الأولى ، بل لأنه نتيجة حتمية لها. فرحلات المغاربـــــة ماكان يمكن أن تظهر الى الوجود الا بفضل السمة التى تميز بها الفتح. وهى السمة أو الخصوصية العقائدية والعلمية. هذه واحدة ، والأخرى أن الرحلات العلمية كانت وليدة الجو العلمى الذى أحدثته جهـــــود الفاتحين والولاة ، ثم قيام الدول المستقلة هناك.

المسلمون والرحلة في طلب العلم :-

وفي الحق ، فلقد وعى المسلمون عامة منذ تفتحت مداركهـــم العلمية ، الأهمية الكبرى للرحلة في طلب العلم ، وما تشكله من قيمـــة في التحصيل والتكوين ، فأقبلوا على الارتحال والتنقل بين صقـــع - وصقع رغبة في العلم وطلباً له حتى عُدت الرحلات العلمية من أهـــم السمات أو الخصوصيات الثقافية الاسلامية. ولقد كان المسلمـــــون يصدرون في ذلك من معرفتهم للفوائد التى تحققها الرحلة مـــــن التمكن من الجوانب والتيارات العلمية الزاخرة ، الى الرغبة في نشر مكنون الرحلة العلمى المحصل ، الى إتساع الثقافة العامة ، والى تنميـــــة

الفضائل والكمالات في النفس ، وأخيرا كسب صداقات جديدة خالصة. (١)

وماكان المسلمون ليفيئون الى ذلك إلاّ من عدة توجهات ، بجانب الميل الفردى ، أهمها أن الدين كان يحض على طلب العلم والتنقل في سبيله . فلم يكن بعيداً عن أذهانهم صدى الآية الشريفة: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (٢) . وماكان غائباً عن إدراكهم رجع تلك الأحاديث النبوية التى تحثُّ على العلم والتنقل في سبيله ، مثل : (مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ) (٣) وغير ذلك من الأحاديث .

وجهود الصحابة وأقوالهم وأفعالهم التى ترَّغب في السفر والترحال رغم المشقة والعنت لم تكن كذلك لتغيب عن فطنتهم فهذا جابر بن عبدالله يبلغه عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديثاً فيشد رحله ويسير شهراً حتى يصل الشام للتأكد من ذلك الحديث(٤).

---

(١) أنظر الخطيب البغدادى : الرحلة في طلب الحديث : حققه وعلق عليه نور الدين عتر ، الطبعة الاولى ، مقدمة المحقق ، ص ٢٤ - ٢٨ .

(٢) سورة التوبة ، آية ١٢٢ .

(٣) من حديث صحيح أخرجه مسلم وغيره . أنظر الخطيب البغدادى : الرحلة في طلب الحديث ، مقدمة المحقق ، الحاشية رقم (١) ص ١٧ .

(٤) أحمد امين : ضحى الاسلام ، الجزء الثانى ، ص ٧٠ - صبحى الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ط ١٥ ، ص ٥٤ .

وفي هذا الصدد يقول الشعبى [١] عالم الكوفة المشهور ، وهو أحد التابعين : (لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام الى أقصى اليمن ، ليسمع كلمة حكمة ، مارأيت أن سفره ضائع). [٢]

وإزاء هذا فلم يعد غريباً ولا مدهشاً أن نرى قوافل العلماء والأدباء والأطباء ، وغيرهم تتنقل من مكان الى مكان في طول بلاد الدولة الاسلامية وعرضها لا يثنيهم عن رغبتهم تلك نصب ولا مخمصة ولا يدانيهم في ذلك أمة من الأمم . وليس عجيباً بعد هذا أن يؤلف مؤلف مصنفاً يتحدث فيه عن الرحلة في طلب الحديث ولم يكن هذا الطلب الحثيث للحديث إلاّ وهو واحد فقط لاغير. [٣]

---

(١) الشعبى : عامر بن شراحيل وقيل عبدالله بن عبد ذى كبار الشعبى الحميرى (١٩-١٠٣هـ/ ٦٤٠/٧٢١) أحد مشهورى التابعين ، مولده ونشأته ووفاته بالكوفه ، وهو أحد رجالات الحديث الثقات المأمونين . راوية شديد الحفظ ، كان متصلا بالخليفة عبد الملك بن مروان ، وقد بعثه الى ملك الروم رسولا في مهمة سياسية . واستقضى في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز . وهو بالاضافة الى ذلك كان فقيهاً شاعراً معروفاً.
أنظر الزركلى : الأعلام ، ج ٣ ، ص ٢٥١ (نقلا عن مجموعة من المصادر والمراجع المختلفة)

(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، الجزء الثانى ص ٧٠.

(٣) نقصد بذلك الخطيب البغدادى الذى ألف كتابه (الرحلة في طلب الحديث)حيث تتبع فيه من رحل من الصحابة والتابعين في طلب الحديث الواحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مختلف الأصقاع .
- للاستزادة عن هذا الموضوع ، أنظر الخطيب البغدادى : الرحلة في طلب الحديث ، مقدمة المحقق ، ص ٥٨ - ٥٩ .

رحلة المغاربة الى المشرق في طلب العلم :

ماكاد القرن الثانى الهجرى يأذن بالإنتهاء إلاّ وكانت العلوم الاسلامية قد إنتشرت بين البربر في افريقية خاصة وفي المغرب عامة ، فبدأت معالم الحركة العلمية تبرز شيئاً فشيئاً بتأثير عوامل الإزدهار العلمى . غير أن هذه الحركة كانت تتأرجح صعوداً وهبوطاً بسبب عودة التابعين وتابعيهم الى المشرق ، وبسبب وفاة البعض الآخر منهم ، ثم وهو الأهم ندرة نزوح العلماء المشارقة الى افريقية. ولم يكن امام الجيل الذى تعلم على يد التابعين وتابعيهم الا تسلم المشعل ، ولا سيما وأن البلاد بلادهم ، فأوسعوا العلوم دراسة وتمحيصاً على قدر كفاءتهم . لكن هذا النفر والذين تلوه من العلماء المحليين كان يتطلع الى مابذات يده من العلم والمعرفة فلا يجد إلاّ نذراً يسيراً ، ويشرئب عنقه الى المشرق فيلحظ تدفقاً دافقاً من النشاطات الثقافية المختلفة ، ثم يرجع البصر ثالثة فيرى ويعقل ماأهمية الرحلة - ماامداها - ماجاء فيها ؟ فيوطد النفس ويؤكد العزم على الارتحال للمشرق لتلقى العلم في مراكز المعرفة .

والمشرق وماأدراك ما المشرق وقتها ؟ غليان علمى - انجاز هذا - يعم ربوعه . نمت فيه العلوم ، وأزدهرت وتعددت في فترة قصيرة قياسية . فلم يكد يمر على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من قرن ونصف حتى غزرت العلوم والمعارف ، وتجاذبت أطراف المشرق تيارات ثقافية مختلفة المنزع والمشرب . سالت فيه القرائح وانثالت فيه الأفكار النيّرة . وبالجملة فقد عرف المشرق وقتها نهضة علمية كبرى توجت بنشوء المذاهب الفقهية والمذاهب الكلامية آنذاك .

هذه المحصلة العلمية الكبرى لم تكن كل أقطار المشرق فيها

سواء ، فالحجاز : مكة والمدينة ، مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومهاجره من الطبيعي أن تكون لها نهضة علمية شرعية المنزع كالإهتمام بالفقه والحديث والتفسير والقراءات ، أو بمعنى آخر الاهتمام بالعلوم النقلية . وقد أثمر هذا الجو العلمي الديني عن نشوء مذهب الإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت ١٧٩هـ) ، الذي يعتمد الأثر أساساً في بناء أحكامه . وقد عرف المذهب المالكي نسبة إليه ، كما عرف بمذهب أهل المدينة لأن مالكاً ولد وعاش وتوفي بها ، ويعرف كذلك بمذهب أهل الحجاز تعميماً.(١)

والعراق بما شهده من أحداث سياسية ضخمة ، وبما جرى على ساحته من فتن وقلاقل ، وبما يعيش على أديمه من طوائف وأجناس ونحل مختلفة الأصل والمنزع كان من الطبيعي أن يولي العلوم النقلية إهتمامه ونشاطه . لكنه أولى العلوم العقلية إهتماماً شديداً ، وهو أمر طبيعي وسط هذه البيئة التي وصفناها . على أنه قد نشأ في العراق ، المذاهب الفقهية ، كمذهب الامام أبي حنيفة النعمان (ت ١٥٠هـ) الذي يعتمد القياس أساسا في

---

(١) عن مدرستي مكة والمدينة ، ثم عن المذهب المالكي ، أنظر أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ١٧٠ - ١٧٦ و ص ٢٣٤ - ٢٥٠ ضحى الاسلام ، الجزء الثاني ، ص ٧٣ - ٧٥ ص ١٥١ - ١٧٦ - ٢٠٦ - ٢١٥ - وأنظر كذلك محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية ، الجزء الثاني ، ص ٦ - ١٠٠ - أحمد تيمور باشا : نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الاربعة : الحنفي ، المالكي ، الشافعي ، الحنبلي ، وانتشارها عند جمهور المسلمين تقديم علي حسن عبد القادر ، ص ١٢ - ٢٥ .

بناء أحكامه فيما لم يرد فيه نص من الكتاب والسنة[١] . كما نشأ فيه مذهبان آخران همها : مذهب سفيان الثورى في الكوفة[٢] ، والحسن البصرى[٣] في البصرة ، ثم توالى ظهور بقية المذاهب الفقهية الأخرى بعد ذلك[٤] . وتميز العراق أيضا بنشوء الفرق الكلاميه فيه[٥] ، وعدا هذا وذاك فقد تميز العراق بظهور مدرستين لغويتين فيه هما : مدرسة الكوفة ، ومدرسة البصرة اللتان مافتئتا تتنازعان زعامة اللغةوالنحو مدة مديدة من الزمن .[٦]

---

(١) عن العراق ومدارسه العلمية وأحداثه ، وتأثير ذلك في مجمل الحركة العلمية ، ثم انتشار المذهب الحنفي ، راجع موسوعة أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص٩٤ - ٩٦ ، ١٢٥ - ٢٤٥ - ضحى الاسلام ، الجزء الاول ، ص١٦٢ - ٣٧٢ ، والجزء الثانى ، ص١-١٩ ، ٧٧- ١٨٥ ، ١٥١ - ٢٠٦ ، الى غير ذلك فأحمد أمين هو خير من كتب عن الحركة العلمية النقلية والعقلية .

(٢) (٣) إندثر هذان المذهبان ولم يعد لهما ولا لغيرهما من مذاهب أهل السنة فيما عدا المذاهب الأربعة المشهورة أى أتباع الآن .
أنظر أحمد تيمور باشا : نظرة تاريخيه في حدوث المذاهب الفقهية الاربعة ، ص١٢ .

(٤) أنظر أحمد أمين : ضحى الاسلام ، الجزء الثانى ، ص١٢٨- ٢٣٧ - محمد أبوزهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٥٠ ومابعدها .

(٥) للتوسع حول هذا الموضوع يراجع أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص٢٥٦ - ٣٠٣ - ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ١- ٣٤٠- ظهر الاسلام للمؤلف نفسه : الجزء الرابع الطبعة الخامسة ص٧-٤٠ ، ص١٠٩-١٣٨ .

(٦) عن مدرستى الكوفة والبصرة اللغويتين وكذلك عن رجالهما أنظر أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ح ٢ ، ص٧٧- ٨٥ ، ص ٢٤٣ - ٣١٨ .

أما مصر(١) ، فقد كانت تأتي ثالثة من حيث الأهمية العلمية وقتذاك . فلقد استطونها عدد من الصحابة والتابعين نشروا فيها العلوم الشرعية، ثم خلفهم تلامذتهم من بعدهم ، فحملوا مشعل العلوم والمعارف ، حتى أدّى الأمر الى ظهور مذهب فقهي لعالم محلى منها هو الليث بن سعد (٢) فقيه مصر المبرز ، ثم ماجرى بعد ذلك من مجيء الإمام الشافعي إليها ، وما أحدثه من نهضة علمية كبرى آنذاك .

وتأتي بلاد الشام رابعاً في تسلسل المراكز العلمية بمدينتيها دمشق وبيت المقدس ، وإن كانت دمشق قد احتلت في وقت مبكر مكانة علمية مرموقة ، أفرزت مذهباً فقهياً كان يعتمد عليه هو مذهب الامام الأوزاعي . غير أن مكانة بلاد الشام العلمية وخاصة دمشق مالبثت أن قلّت بفقدان دمشق مركزها كعاصمة للدولة الاسلامية.(٣)

وتطلع المغربي حوله ، فوجد المدينة ومكة تزهوان بالاهتمام بالعلوم الشرعية بشتى مجالاتها ، ثم رآها تفتخر بمذهبها الجديد

---

(١) عن مدرسة مصر العلمية ، أنظر أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ١٨٩ - ١٩٢ - ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٨٥ - ٩٦ .

(٢) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي (٩٣ - ١٧٥هـ) ولد بقرقشند ، وكان موسرا ، واكثر البخاري ومسلم من الرواية عنه ، ووثقه الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما . وضع أسس مذهب فقهي مالبث أن اضمحل شأنه بعد موت صاحبه . للاستزادة عن أخبار الليث بن سعد ومذهبه أنظر عبد الرحمن الشرقاوي : أئمة الفقه التسعة ص ٩٥ - ١٢٠ .

(٣) عن مدرسة الشام العلمية ، أنظر احمد أمين : فجر الاسلام ص ١٨٧ - ١٨٩ ضحى الاسلام ج ١ ، ص ١٧٢-١٧٤ ، ص ٩٦ - ١٠٥ .

المذهب المالكي الذي فيه كثير من الخصائص التي تشد المغربي اليها والتي سنأتي على ذكر تفاصيلها بعد إن شاء الله . ثم لمكة والمدينة فوق هذا مكاناً أثيراً يحتل سويداء قلبه ، فإلى مكة قصده وتوجهه في الصلاة خمس مرات ، وإليها يرتحل الناس لإداء فريضة الحج وتحضن مكة والمدينة الحرمين الشريفين ، وهما ما يعلم قدسية ومكانة . لكن المدينة لها مكانة عزيزة في نفسه ، ففيها قبره الشريف ، وفيها بقية باقية من التابعين وأتباعهم ، ثم هي مستودع علم الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وسلوكه وأفعاله .

ويتطلع الى العراق ، فيجد تيارات فكرية متصارعة لا تستهويه كثيراً ، وإن كان ينظر للامام أبي حنيفة ومذهبه وأتباعه نظرة إحترام وتقدير ، ولكنه لا يميل إليه كثيراً قدر ميله للمذهب المالكي . أما فرقة الكلامية فلا يقف عندها تقريباً ، ولا تستهوى تلك الفرق وبالتخصيص الخارجية منها إلاَّ من تمذهب من البربر بالدعوة الخارجية ، لكنهم أي المغاربة لم يروا حرجاً أبداً في الاخذ من مدرستي العراق اللغوتين .

أما مصر ، هذا الأقليم الذي يجاورهم ، فإن له شأناً عندهم ، ففيه مجموعة من العلماء المبرزين وفيه مجموعة من تلامذة الامام مالك بن أنس الذين نشروا مذهبه في مصر .

كل هذه الدواعي ، جعلت المغاربة والأندلسيين كذلك يعقدون العزم على الرحلة للمشرق ، فقصدوه زرافاتاً ووحداناً ، ينهلون ويكرعون من علومه ومعارفه وآدابه . غير أن رحلاتهم تلك لم

تكن على قدر متساوٍ من حيث القصد ، ولا من حيث الزمن ، ولا من حيث المحتوى .

فرحلاتهم للحجاز ، ماكان يرقى اليها أبداً كثرة للأسباب التي شرحناها آنفاً ، ولذلك فقد قصدوه بكثرة كاثرة يتلقون علومهم الدينيه على كبار علمائه من التابعين وتابعيهم ثم من صاحب المذهب المالكي لما رسخت قواعد مذهبه ، ثم تلامذته الكثر في المدينة ومكة . والى جانب علماء المذهب المالكي إرتحل المغاربة الى علماء العلوم الشرعية الأخرى كعلماء الحديث والتفسير والقراءات . ولعل خير مايوضح لنا مقدار إحترام المغاربة لمدرسة الحجاز العلمية بكل أوجهها ، وهو أنه قل أن تجد منهم أحداً يرتحل الى المشرق ، فلا يعرج على الحجاز أولاً ، هذا فضلاً عن استحالة عدم قصده والإرتحال اليه أصلاً . ولعل أحدهم يكتفي بالرحلة الى الحجاز وحده دون غيره

أما المحطة الثانية التي إرتحل اليها علماء المغرب الأدنى فقد كانت مصر ، قد اشتهرت مصر (كمركز للحركة العلمية الدينية) (١) التي ذكرنا طرفاً منها من قبل . فارتحلوا الى مصر وقابلوا علماءها الكبار من أمثال الليث بن سعد ، وكبار تلامذة الامام مالك ، فسمعوا منهم ورووا عنهم كما بادلهم المصريون ذلك . ولم يقتصر إرتحال علماء المغرب الأدنى الى مصر على علمي الفقه والحديث فحسب ، بل إرتحلوا في سبيل الأخذ عن علماء القراءات الذين اشتهرت بهم مصر فسمعوا منهم تفاسيرهم وقراءاتهم ومؤلفاتهم ، كما أخذوا من علماء اللغة والنحو المصريين أيضاً . ولقد كان الاهتمام بالمدرسة

---

(١) محمود اسماعيل عبد الرازق : الاغالبة ـ سياستهم الخارجية ، ص ٨٩

المصرية بالنسبة للمغاربة والأندلسيين ناجماً عن أن مصر كانت الجسر أو المعبر الذى يوصلهم الى المشرق ، حيث الحجاز، والعراق والشام ، فكان لابد لهم من المرور به ثم العودة الى بلادهم عن طريقه كذلك .

والعراق كان المحطة الثالثة من حيث القصد الذى سلكه المغاربة والاندلسيين ، فبالنسبة للارتحال اليه للسماع من علماء مذاهبه الفقهية لم يكن هناك الا نذر يسير من علماء المغرب الذين إرتحلوا لابى حنيفة النعمان (١) ، ومن ثم تلامذته ، فأخذوا عنهم ورووا . ونفس الأمر يقال عن سفيان الثورى بل إن الملاحظ أن عدد الذين اخذوا عن سفيان الثورى يفوق عدد أولئك الذين أخذوا عن أبى حنيفة (٢) بيد أن هؤلاء وأولئك لم يكونوا الا عدداً قليلا لا يقارن بعدد الذين أخذوا عن مالك وتلامذته . ومامن ريب فيأن ذلك عائد الى ماسبق أن ذكرناه من دوافع . وسنتبين عند حديثنا عن انتشار المذهب المالكى في المغرب تفاصيل واسعة لذلك . أما علماء الاباضية في طرابلس الجريد ، فقد ارتحلوا الى البصرة حيث يوجد شيوخ فرقتهم فأخذوا وسمعوا منهم . أما رحلات علماء القراءات والحديث واللغة والنحو الى العراق ، فقد كانت كثيفة مافى ذلك ريب . ومايقال عن هذه العلوم يقال أيضا عن رحلة الشعراء الى العراق .

أما بلاد الشام : دمشق وبيت المقدس فإننا وإن كنا لم نعثر على رحلات علمية مذكورة اليها ، إلاّ أننا لم نعدم علماء

---

(١) أنظر بعد ص ٣٢٨-٣٢٩

(٢) أنظر بعد ص ٣٢٦ مع الحاشية رقم (١)

من المغاربة قد قصدوها وسمعوا من شيوخها ورووا عنهم كما سنعرف بعد .

وأما من حيث الزمن الذى كان علماء المغرب وطلاب العلم يقضونه في المشرق ، فلم يكن الأمر سواء بالنسبة للمحطات العلمية ، أو بالنسبة للأشخاص أنفسهم . ففي الحجاز يلاحظ أن كثيرا من العلماء وطلاب العلم يترددون عليه مراراً . وفى كل مرة قد يقضى أحدهم فترة طويلة من الزمن تصل الى ثلاث أو أربع أو خمس سنوات، يؤدون خلالها شعيرة الحج لأكثر من مرة ، ثم لا يغادره الا بعد أن يستكمل علومه ومعارفه ، وتأتى مصر في المرتبة الثانية ، ثم العراق .

وبالنسبة للمحتوى أو المحصلة فلا حاجة بنا الى ذكر أنها علمية شرعية : فقه - حديث قراءات ، تفسير ، حجازيه فمصريه فعراقية الترتيب ، ثم تأتى الدراسات الأدبية وخاصة اللغوية والنحوية ، وهذه يتفاوت فيها التسلسل الثقافي . فيأتى العراق أولا ، ثم مصر، ثم الحجاز ، لاسباب عديدة شرحها المختصون في مؤلفاتهم مما لا حاجة لنا هنا الى تتبعها . وأما بقية المعارف ، فلم تكن تحظى من اهتمام المغاربة الا قليلا فعلم الكلام ماكان أحد من علماء المغرب يستسيغه - فضلا عن أن يتعلمه ويحمله الى بلده والعلوم التجريبية نادراً ماكانت تشد أبناء المغرب ومع ذلك لم ينعدم الرحيل من أجل تلقيها . وفى مجالى علم الكلام والعلوم التجريبية كان العراق يأتى أولا . والحجاز ومصر بعد ذلك .

هذه ملاحظات مهمة عن مقاصد الرحلات العلمية للمغاربة الى المشرق . وثمة ملاحظات أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها نوردها فيما يلي :

١- الأمر الأول : ان أول مايمكن استخلاصة من رحلات علماء المغرب الأدنى الى المشرق هو كثرة تلك الرحلات طوال النصف الثاني من القرن الثاني وحتى نهاية القرن الثالث الهجرى . فقد كان المغرب بحاجة الى تلك الرحلات بالطبع لاستكمال ماينقصه من العلوم والمعارف في شتى المجالات التى كان يفتقد اليها آنذاك .

٢- الأمر الثاني : تناقص الرحلات العلمية وقلتها خلال القرن الرابع الهجرى ، وكان هذا شيئاً طبيعياً. فقد رسخت أقدام الدراسات كلها في المغرب وخاصة الشرعية منها بعد رسوخ المذهب المالكى هناك حسبما سنعرفه في مكانه إن شاء الله .

٣- الأمر الثالث: أن الرحلات العلمية ندرت تقريباً خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، حيث يقف بناء الأمر عنده .

٤- الأمر الرابع أنه على الرغم مما قلناه من قلة الرحلات العلمية للمغاربة الى المشرق خلال الفترة التى أشرنا إليها إلاّ أن الرحلة لم تنقطع أبدا ، فالمشرق كان ومازال يستهوى أفئدتهم ، فشخوص المغاربة الى الحجاز لم ولن ينقطع ، لأن الحج ثم ولن ينقطع ، وطالما كانت هناك رحلة حج ، فلابد أن يكون هناك علماء يحجون فيتلقون علومهم على يد علماء الحجاز ، لا سيما وأن العالم الاسلامى كان يشكل آنذاك وحدة فكرية لها كيان فكرى واحد لا يختلف . فالعقيدة صبغت كل نشاط المسلمين

بصبغة واحدة ، فليس هناك إختلاف بينهم مهما تنـــاءت المسافات. (١)

٥- الأمر الخامس: التعلق العاطفي بالمشرق . فالمغاربـــة والاندلسيون ، كانوا يشعرون بأنهم يشكلون الجنـــاح الغربى للدولة الاسلامية ، وهم يرون بالتالى أنه لابـــد للجناحين من الإلتقاء . ولماكان الجناح الشرقى أسبـــق علمياً وحضارياً من الجناح الغربى للظروف السياسيـــة والجغرافية والاجتماعية . . الخ كماهو معروف ، فـــإن الجناح الغربى لا يرى غضاضة في التأثر بالجناح الشرقي. بل وكان علماؤه يفتخرون بالإستماع الى علماء المشـــرق وخاصة علماء الحجاز .

---

(١) عن هذا الموضوع والتوسع فيه ، أنظر ابراهيم العبيـــدى التوزرى : تاريخ التربية بتونس، ص ١٤٥ - ١٤٨ .

أما وقد بسطنا الحديث عن الرحلات العلمية من حيث أهميتها ومقاصدها . وموقف المغاربة من ذلك ، فإن من المستحسن هنا أن نعقد حديثاً واسعاً بعض الشيء عن أبرز الذين إرتحلوا في طلب العلم من علماء وأدباء وأطباء المغرب الأدني في الفترة الزمنية التي تهمنا . وما يتبع ذلك من الحديث عن مقاصدهم في رحلاتهم وشيوخهم . . الخ .

فمن أبرز العلماء من رجال القرن الثاني المتقدمين الذين رحلوا الى المشرق ، أبو خالد : عبدالرحمن بن زياد بن أنعم المعافري السفياني قاضي افريقية في وقته (ت ١٦١هـ) فقد رحل الى المشرق طلباً للحديث ، فروى هناك عن جماعة من التابعين ثم سمع من سفيان الثوري أحد أشهر العلماء العراقيين في وقته وأحد أصحاب المذاهب السنية التي إندرست . وسمع منه سفيان ، وعدد من كبار أصحاب أبي حنيفه . (١)

ومن علماء افريقية المتقدمين ، أبو محمد عبدالله بن فروخ الفارسي (ت ١٧٥ ، أو ١٧٦هـ) أحد حفاظ الفقه والحديث ، إرتحل الى المشرق ، فسمع من عدد من علمائه كزكريا بن أبي زائدة التابعي ، ومالك بن أنس . وسفيان الثوري (٢) ، ويقول المالكي (٣) (وكان إعتماده على مالك ، لكنه يميل الى طريقه أهل النظر والاستدلال فربما مال الى قول أهل العراق لظهور صواب عنده وكان مالك يكرمه ويروى له فضلاً ويقول لأصحابة هذا فقيه أهل المغرب . .) ولقد

---

(١) أبو العرب التميمي : كتاب طبقات علماء افريقيه ، ص٧-٢ ، ٢٩-٣٠ - المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٦-٩٧ - محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكيه : في طبقات المالكية ، ص ٦١ .

(٢) أبو العرب التميمي : نفس المصدر اعلاه ، ص٣٤ - المالكي : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ١١٣ - القاضي عياض اليحصبي : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك ، تحقيق أحمد بكير محمود : ج ١ ، ص ٣٤٠-٣٤١

(٣) رياض النفوس ، الجزء الأول ، ص ١١٣ .

كان يحضر مجالس مالك بن أنس في المدينة ويفتى بها بطلب وحضور من مالك نفسه (١) . ثم رحل الى العراق ، حيث سليمان بن مهران الاعمش في الكوفه للسماع عليه (٢) . ثم عرج على على أبى حنيفة النعمان ، فسمع منه وذاكره ، وذكر أنه كتب عنه عشرة آلاف مسألة فقهية ، وبالاضافة الى ذلك سمع منه كما ذكر ثلاثمائه (٣) حديث . ثم عاد الى بلاده افريقيه ، غير أنه مالبث أن رحل ثانية الى المشرق ، فنزل مصر ، ثم غادرها الى مكة حاجا ، ثم عاد ثانية الى مصر ، فتوفى بها (٤)

ومنهم كذلك : على بن زياد العبسى التونسى أبو الحسن أعجمى الأصل ، طرابلسي المنشأ ، تونسى السكنى (ت ١٨٣هـ) . وهو أحد أشهر أبرز علماء افريقية المتقدمين والذى كان له دور مهم في الدراسات الفقهية ، وفى ادخال المذهب المالكى الى افريقيه وهو معلم اسد بن الفرات وسحنون بن سعيد أشهر فقهاء المغرب الادنى واكثرهم تأثيرا في الدراسات الشرعية . وقد رحل على بن زياد الى المشرق ، فسمع من مالك بن أنس وسفيان الثورى ، وعبد الله بن لهيعة (٥) . ويقول المالكى (٦) نقلا عن احد مصادره عنه (وهو

---

(١) المالكى : نفس المصدر السابق والجزء ص ١١٥ - عياض اليحصبى : ترتيب المدارك ج ١ ، ص ٣٤١-٣٤٢ .

(٢) المالكى : نفسه ، ص ١١٥-١١٦ عياض: نفس المصدر اعلاه والجزء ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٣) المالكى : نفسه ، ص ١١٦-١١٧ ، عياض : ص ٣٤٦ - ٣٤٢ .

(٤) أبو العرب التميمى : المصدر السابق ، ص ٣٦ - عياض : نفسه ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .

(٥) أبو العرب التميمى : المصدر السابق ، ص ٢٥١ - المالكى : ص ١٥٨ - عياض ج نفسه ، ص ٣٢٦ .

(٦) رياض النفوس ، الجزء الأول ، ص ١٥٨ .

أول من أدخل المغرب " جامع سفيان الثورى " وفسر لهم قول مالك ، ولم يكونوا يعرفونه ، وهو معلم سحنون ، دخل الحجاز والعراق) . ويقول القاضى عياض (١) نقلا عن نفس المصدر الذى نقل عنه المالكى (وهو أول من أدخل الموطأ وجامع سفيان المغرب) . وهو أحد النقاد من أصحاب مالك بن أنس كما يقول عنه تلميذه أسد بن الفرات (٢) . أما تلميذه الاخر سحنون سعيد فيقول عنه : (ماأنجبت افريقية مثل على بن زياد) ، (٣) وكان يثنى على غزارة علمه ولا يعدل به أحدا من المصريين من أصحاب الأمام مالك . ومما قاله عنه (ولو أن التونسيين يسألون لأجابوا باكثر من جواب المصريين) . يريد بذلك : على بن زياد وعبد الرحمن بن القاسم. وقال عنه مرة (لو كان لِعلي بن زياد من الطلب ما للمصريين مافاته منهم أحد ، وماعاشره منهم أحد) (٤) .

ومنهم : البهلول بن راشد الحجوى الرعينى ولاءً ، وكان من العباد المشهورين في وقته (ت ١٨٣هـ) . وبجانب هذا فقد كانت له مكانة علمية في الفقه ، رحل فسمع من مالك بن أنس ، والليث بن سعد ، وسفيان الثورى وغيرهم . وسمع منه جلة من العلماء بافريقية (٥) .

---

(١) ترتيب المدارك ، الجزء الاول ، ص ٣٣٦
(٢) عياض: نفس المصدر السابق اعلاه ، ص ٣٢٦
(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٢٧
(٤) عياض : نفسه ، ص ٣٢ .
(٥) أبو العرب التميمى : المصدر السابق ، ص ٥٢ - المالكى : المصدر السابق ، والجزء ، ص ١٣٢ - عياض: نفسه ، ص ٣٣٠ .

ومن نفس رجال هذه الطبقة ، أبو عبد الرحمن عبد الله ابن عمر بن غانم بن شرحبيل بن ثوبان الرعيني ، قاضي افريقيه في وقته (ت ١٩٠ هـ) وهو ممن رحل الى المشرق ، وممن كان له دور علمي بارز . وقد سمع في رحلته عن كل من مالك بن أنس وسفيان الثوري وأبي يوسف القاضي صاحب أبي حنيفه (١) ، ويقول المالكي (٢) (روى عن مالك وعليه معتمده) وبالاضافة الى الحجاز والعراق إرتحل الى الشام (٣) . ويقول عياض (٤) (وله سماع من مالك مدوّن ، إنقطع ، ومنه في المجموعة مسائل ، وسمع الموطأ) . ويذكر كذلك أن له رحلة الى مصر، سمع خلالها لعدد من تلامذة الامام مالك المصريين . (٥)

وممن يلحق بهم من رجال القرنين الثاني والثالث ممن رحل الى المشرق ، أبو خارجه عنبسه بن خارجه الغافقي (ت. ٢١٠ هـ) فقد سمع في رحلته من مالك بن أنس وسفيان الثوري

---

(١) المالكي : المصدر السابق والجزء ص ١٤٣ - ١٢٤ - عياض : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١٦-٣١٧ - تراجم أغلبية مستخرجه من مدارك القاضي عياض نفسه ، تحقيق محمد الطالبي مع مقدمة وفهارس ص ٨- ٩ .

(٢) رياض: النفوس ، الجزء الاول ، ص ١٤٣

(٣) المالكي : نفس المصدر اعلاه والجزء والصفحه ، عياض: المدارك الجزء الأول ، ص ٣١٦ .

(٤) المدارك : الجزء الأول ، ص ٣١٧ - تراجم أغلبية ، ص٩ .

(٥) عياض: المدارك ، ج ١ ، ص ٥٨٩ (في معرض ترجمة سحنون ابن سعيد) .

والليث بن سعد وعبد الله بن وهب والمغيرة بن أبي عبد الرحمن المخزومي وسفيان بن عيينه (١) وغيرهم . وقد ذكر (٢) المالكي نقلا عن أبي العرب في طبقاته أن أبا خارجة عنبسة هذا ، هو الذي جاء بجامع سفيان الثوري الصغير الى المغرب ، في حين جاء علي بن زياد بالجامع الكبير (٣) . وقيل إنه صاحب الامام مالكاً طويلاً ، ولذلك فهو (يروى عن مالك غرائب لم تكن عند غيره) (٤) . ومما هو جدير بالتنويه هنا أن أبا خارجة هذا ، تنبأ بإضمحلال شأن المذهب الحنفي في افريقية ، فكان كثيراً ما يردد : (لا تمر الليالي والايام حتى تنمحي كتب أبي حنيفة من افريقية) . ويعلق (٥) المالكي نقلا عن أحد مصادره الثقات بقوله (فكان كذلك ، فمحاها الله عز وجل بسحنون رضي الله عنهم أجمعين) .

لكن أبرز رحلات رجال القرنين الثاني والثالث وأعظمها تأثيراً رحلة أسد بن الفرات ورحلة سحنون بن سعيد . فإليهما ينسب تقدم الدراسات الفقهية في افريقية ورسوخ أقدامها هناك ، حتى أصبح للمغرب الأدنى مدرسة في الفقه - مالكية - لا تنافس ، بل هي أشهر مدارس المذهب المالكي الفقهية بعد مدرسة المدينة حسبما سنتعرض له بعد إن شاء الله في مكانه .

---

(١) أبو العرب التميمي : المصدر السابق ، ص ٧٢ - المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ١٦٣ - عياض : المدارك ، الجزء الأول ، ص ٤٨٦ .
(٢) رياض النفوس ، ج ١ ، ص ١٦٣ .
(٣) أنظر بعد ح ١ ، ص ٣٢٦
(٤) المالكي : نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ١٦٧
(٥) نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ١٦٥ .

وأسد بن الفرات بن سنان ، خراساني الأصل ، قيل إنه ولد هناك ، وقيل قدم أبوه افريقية ، وأمه حامل به (ت ٢١٣هـ) . وأسد ابن الفرات من أعظم وأشهر الفقهاء في افريقية تأثيراً في الحياة العلمية وخاصة الشرعية منها على وجه الخصوص. وكان له كذلك دور كبير في انتشار المذهبين الحنفي والمالكي بافريقية ، وهذا ما سنتبين واقعه بعد . ولعل أبرز وأخص ما يهمنا من ترجمة حياة أسد بن الفرات الواسعة ، هو رحلاته العلمية الى المشرق . والواقع أن أسدا لم يكفه ذلك القدر من العلم الذى تلقاه عن شيوخه في افريقية ، فتطلع الى المشرق ، حيث أساطين الفقه والحديث في الحجاز والعراق ومصر. فخرج من بلاده عام ١٧٢هـ قاصداً المدينه ، فمكث هناك ثلاث سنوات، سمع خلالها من مالك بن أنس موطأه (١) ثم رغب في الزيادة لا سيما وأنه كان ميالاً الى النظر والرأى ، فأشار عليه الامام مالك بالرحيل الى العراق (٢) . وبالفعل فقد رحل الى هناك ، حيث قابل عدداً من أصحاب الامام أبى حنيفة النعمان وغيرهم ، كأبى يوسف القاضي ،

---

(١) أبو العرب التميمى : المصدر السابق ، ص ٨٢ - المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ١٧٣ - عياض : المدارك ، الجزء الأول ، ص ٤٦٥ وهو الوحيد الذى حدد سماعه عن مالك بن أنس بثلاث سنوات ، وهو الوحيد كذلك الذى يرد في ص ٤٦٨- ٤٦٩ من نفس الجزء على من ينكر ، رحلته الى مالك وسماعه الموطأ عليه .

(٢) المالكى : نفس المصدر اعلاه والجزء ص ١٧٤ - عياض : نفس المصدر أعلاه ، والجزء ، ص ٤٦٦ .

ومحمد بن الحسن ، وأسد بن عمرو ، ويحيى بن أبى زائدة وغيرهم (١) ، ولقد كان أكثر سماعه على محمد بن الحسن (٢) ، وذكر عياض (٣) ، أن أبا يوسف سمع منه الموطأ وكذلك محمد بن الحسن ، ثم غادر العراق متوجهاً الى مصر للسماع من تلامذة مالك بن أنس المشهورين : عبد الله بن وهب ، وأشهب بن عبد العزيز ، وعبد الرحمن بن القاسم (٤) وقد إنقطع أسد الى ابن القاسم يسمع منه ، وكان قد أحضر معه من العراق مسائل فقهيه ضخمة تنسب الى أبى حنيفة النعمان ، ورغب من ابن القاسم أن يجيبه عليها على مذهب مالك بن أنس . فوافق ابن القاسم على ذلك ، فدوّن عنه : ستين كتاباً ، هى الأسدية كما سنعرف (٥) ايضاً . ومما يدل على مكانة هذه المجموعة الفقهية التى تنسب لأسد ، هو أنه أصبح المعول عليها في الفقه في مصر على المذهب المالكى فيما بعد . أما في افريقية والمغرب ، فقد أنست مدونة سحنون ذكرها أى ذكر الأسدية ، وأصبح المعول في الفقه كذلك على مدونة سحنون كما سنعرف بعد .(٦)

---

(١) أبو العرب التميمى : المصدر السابق ، ص ٨٢ - عياض المصدر السابق والجزء ، ص ٤٦٥ .

(٢) المالكى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٧٥ - ١٧٨ - عياض نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٣) المدارك ، ج ١ ، ص ٤٦٥

(٤) المالكى : نفسه ، ص ١٧٨ - ١٧٩ - عياض : نفسه ص ٤٦٨ - ٤٧٠ .

(٥) أنظر بعد ص ٣٣٥

(٦) أنظر بعد ص ٣٣٦

ومما ينسب الى أسد بن الفرات أنه كان مُدِلاً برحلاته العلمية تلك على غيره من العلماء وخاصة القاضي : أبو محرز محمد بن عبدالله ابن قيس الكناني القاضي ، شريكه في القضاء ، حيث ولاهما : زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب قضاء افريقية معاً (١) . فكان أسد كثيراً ما يقول ويعرض به : (ضربنا في طلب العلم آباط الإبل ، وأغتربنا في البلدان ، ولقينا العلماء ، وغيرنا إنما طلب العلم خلف كانون أبيه ، ووراء منسج أمه ، ويريدون أن يلحقوا بنا) . (٢)

أما سحنون بن سعيد التنوخي الذي يعتبر أشهر شخصية فقهية مالكية على الإطلاق في افريقية خلال الفترة موضع الاهتمام وما بعدها ، والذي سنترجم له ترجمه مستفيضه من خلال الحديث عن إنتشار المذهب المالكي ، وعن الدراسات الفقهيه وتقدمها ، فقد كان له كذلك رحلة علمية عظيمة الأثر سنتبين أثرها لاحقاً ، وخاصة الى مصر لأن رحلته تلك نقطة تحول هامة في الدراسات الفقهية . وقد خرج سحنون في أول رحلة علمية له الى مصر عام ١٨٨هـ ، وقيل عام (٣) : ١٧٨هـ وسمع خلال رحلته الى مصر الحجاز لعدد كبير جداً من العلماء ، أمثال ابن القاسم ، وابن وهب ، وأشهب ، وطليب بن كامل ، وعبيد الله بن عبد الحكم

---

(١) المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ١٨٥ - عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٤٧٦ . وقد أشار وحده الى تاريخ توليته للقضاء فقال إن ذلك حدث في سنة ثلاث أو اربع ومائتين .

(٢) المالكي : نفس المصدر السابق اعلاه ، ص ١٨٣ .

(٣) أبو العرب التميمي : المصدر السابق ، ص ١٠٢ - المالكي : نفسه ، ص ٢٥٠ - عياض : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٥٨٦ (وهو الذي أشار الى القولين الآنفين في المتن عن سنة خروجه وقد ذكر عياض في ص ٨٥٧ أن الذي أشار الى عام ١٧٨ هـ هو ابن سحنون محمد بن سحنون ، ويظهر أنه قد أخذ بهذا التاريخ وان كان لم ينكر التاريخ الاول وهو عام ١٨٨هـ . ويقول بأنه ربما كان لسحنون رحلتان في التاريخين المذكورين في المتن) .

و سفيان بن عيينه ،ووكيع بن الجراح وغيرهم من العلماء مما يطول بنا (١) ذكر تقصيهم . ولقد أقام سحنون في رحلته العلمية هذه خمس سنوات (٢) . ومما ينسب اليه من مقدار شغفه بالعلم أنه قال ذات مرة (إنغلقت على مسألة حتى أردت الرجوع فيها الى المدينة حتى إتضحت لى) (٣) . وقد رحل خلال ذلك الى الحجاز في معية ابن القاسم وابن وهب وأشهب تلاميذ مالك المصريين وكان يحرص في كل وقته على تلقى المسائل من هؤلاء وخاصة ابن القاسم (٤) . ومما حفظ عن ابن القاسم في حق سحنون ترديده دائما قوله (ما قدم علينا من افريقية ، مثل سحنون لا ولا ابن غانم) (٥)

أما أبرز علماء القرن الثالث الذين كانت لهم رحلات علمية هامة فقد كانواكذلك كثيرين ، غير أن أهم واشهر تلك الرحلات ، كانت رحلة محمد بن سحنون ،ابن سحنون نفسه (ت ٢٥٦هـ) عالم افريقيه

---

(١) عن العدد الكبير من العلماء الذين لقيهم سحنون في رحلته للمشرق ، أنظر أبو العرب التميمى : المصدر السابق ، ص١٠٢ - المالكى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٠ - عياض : المصدر السابق والجزء ص ٥٨٦ - ٥٨٧ .

(٢) قال عياض : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٥٨٧ عن سحنون نفسه : (.. وخرجت الى ابن القاسم ابن خمس وعشرين . وقدمت افريقيه ابن ثلاثين سنة) .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٥٨٨ .

(٤) المالكى : نفسه ، ص ٢٥٠ - ٢٥٣ -عياض : نفسه ، ص ٥٨٥ - ٥٩٢ .

(٥) المالكى : نفسه ، ص ٢٥٣ - عياض : نفسه ، ص ٥٨٩

المبرز بعد أبيه ، والذى يهمنا الآن من ترجمته هو الإشارة الى أنه كانت له رحلات علمية الى المشرق ، قابل خلالها عدداً من ألمع العلماء المعاصرين له آنذاك كأبى المصعب الزهرى صاحب مالك بن أنس ويعقوب بن حميد بن كاسب ، و سلمة بن شبيب وغيرهم. وكانت رحلته [١] تلك في عام ٢٣٥هـ .

ومنهم كذلك ، أبو العباس : عبدالله بن طالب بن سفيان ابن سالم التميمى من أبناء عمومه الأمراء الاغالبة أمراء افريقية وقتذاك (ت ٢٧٥هـ) . له رحلة الى مصر ، فسمع من عدد من العلماء ومن أبرزهم : محمد بن عبدالحكم ويونس بن عبدالاعلى وغيرهما . [٢]

ومن رجال هذا القرن كذلك عيسى بن مسكين بن منصور بن جريج الافريقى قاضى البلاد وقتها (ت ٢٩٥هـ) . له رحلة الى الشام ، حيث سمع من أحد علمائها وهو أبو جعفر الآيلى ، وبمصر من الحارث بن مسكين ، وأبى الطاهر ، محمد بن الموازِ ، ويونس الصدفي ، ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم [٣] ، وغيرهم .

ومن علماء هذا القرن - أى الثالث الاخرين ، أبو سهل فرات بن محمد العيدى (ت ٢٩٢هـ) ، وكان عالماً فاضلاً ، فقيهاً ، محدثاً إخبارياً ، عارفا باسماء الرجال وأنسابهم له رحلة ، سمع خلالها من كبار أصحاب الامام مالك بن أنس. [٤]

---

(١) عن رحلاته وأخبارها الواسعه ، أنظر المالكى: المصدر السابق والجزء ، ص ٣٤٦ ، ٣٥٠ - ٣٥٢ - عياض: المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ١٠٧ - ١٠٨ - ١١٣ .

(٢) المالكى : نفسه ، ص ٣٧٥ - عياض : نفسه ، ج ٢ ، ص ١٩٤

(٣) أبو العرب التميمى : المصدر السابق ، ص ١٤٢ - عياض : نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١٢ .

(٤) محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكيه في طبقات المالكية ، ص ٧٢

ومنهم كذلك زيدان بن اسماعيل بن زيدان الواسطـــــــى الأزدى السوسى (ت ٢٩٢ / ٢٩٣هـ) له رحلة الى المشرق حيـــــث سمع من هاشم بن عمار الدمشقي ، وابن ابى الحوارى ، وسلمة بـــــن سَبيب وعبد الوهاب ابن غيات وغيرهم . (١)

ومن رجال القرنين الثالث والرابع ممن يلحق بهم أى بعـلماء القرن الثالث الهجرى ، العالم الفقيه المحدث : لقمان بن يوســـف الغسانى (ت ٣١٩هـ) له رحله الى مصر ، وأخذ من خلالها مـــن على بن عبد العزيز ، ويحيى بن أيوب الغالب وغيرهما . (٢)

أما علماء القرن الرابع الهجرى فقد تناقصت رحلاتهم الـــي المشرق بفضل ماشاع من العلم في ربوع المغرب الأدنى ، ونقصد علـــم الفقه لأنه أهم ماميز الدراسات الشرعية في الفترة موضوع الرسالـــة ،

ولكن وعلى الرغم من تناقص الرحلات العلمية خلال هذا القرن الا أنها لم تنعدم ولم تنقطع بفضل ماذكرنا من الأسباب الآنفة الذكـر ، ثم لأن هذا القرن الرابع ، عرف علماء أقطاباً في الفقه لهم مكانتهـــم التى حفلت بها كتب التراجم ، والفقه . فمن أبرز علماء هذا القـــرن عبد الله بن أبى القاسم بن مسرور النجيبى (ت ٣٤٦هـ) فلقد كانـــت لهرحلة الى مصر ومكة وجدة بالحجاز ، سمع خلالها من عدد من العلماء وخاصة المالكية منهم كمحمد بن ابراهيم الويلى . وابـن الأعرابـــى ، وابن أبى مطر (٣) وغيرهم . ومن علماء هذا القرن أبو العبـــاس

---

(١) محمد بن محمد مخلوف : نفس المصدر السابق . ص ٧٢

(٢) عياض : المصدر السابق ، ص ٣١١ - محمد بن محمد مخلوف نفسه ، ص ٨١

(٣) عياض: المصدر السابق ، الجزء الثانى ، ص ٣٤١ - ابن فرحون : الديباج بمذهب في معرفة اعيان علماء المذهـــب ص ١٣٥ .

عبدالله بن أحمد بن ابراهيم الابياني (ت ٣٥٢هـ) (١)

على أن أشهر وأبرز من رحل في طلب العلم من علماء هذا القرن ، كان أبو محمد عبدالله بن أبي زيد النفزي القيرواني ، وهو من علماء هذا القرن المتأخرين (ت ٣٨٦هـ) المعدود بين ، وكان غزير العلم والمعرفة ، حتى أنه عرف بمالك الصغير ، وكانت له رحلة حج وسمع خلالها من عدد من العلماء منهم ابن الاعرابي ، وابراهيم ابن محمد بن المنذر ، وابي هلال علي بن ابي هلال (٢) وغيرهم.

وممن يلحق بهم من رجال القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الهجري ، ممّن له رحلة علمية مهمة أبو الحسن علي ابن محمد بن خلف المعافري (ت ٤٠٣هـ) وهو واحد من أشهر فقهاء ومحدثي المغرب الأدنى وقتذاك . وقد سمع في رحلته تلك الى عدد من العلماء المشهورين بمصر وغيرها مثل :أبو الحسن بن أبي هلال ، وأبو الحسن بن الطَّحان ، وحمزة بن محمد الكناني ، وأبو الحسن التلباني وغيرهم عدد (٣) آخر كثير.

ومن العلماء الذين قضوا شطرا من عمرهم في منتصف القرن الخامس الهجري ، ممن كان له رحله : أبو الحسن علي بن المنمر الطرابلسي (ت ٤٣٢هـ) وهو من أشهر علماء طرابلس في وقته .

---

(١) عياض : المصدر السابق ، ص ٣٤٧ ، ٣٤٩

(٢) عياض : نفسه ، ص ٤٩٣ - محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ٩٦.

(٣) عياض : نفسه ، ص ٦١٦ = الدباغ - المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٤ - ١٣٥ ، محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ٩٧.

وقد سمع خلال رحلته الى مكة من عدد من العلماء منهم أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد الجوهرى (١) .

ومنهم كذلك العالم المشهور في المتأخرين في هذه الفترة التى تهمنا ، أبو بكر أحمد بن عبدالرحمن (ت ٤٣٢هـ) وهو شيخ فقهاء عصره . فلقد كانت له رحلة الى المشرق ، سمع خلالها من أبى بكر عتيق بن موسى الحاتمى المصرى ، وأبى بكر محمد بن بكر العالى وأبى القاسم عبدالرحمن بن محمد الجوهرى (٢) وغيرهم .

ونذكر كذلك أبو عمران ، موسى بن عيسى بن أبى حاج الفاسى أصلاً القيروانى الدار والمسكن (ت ٤٣٠هـ) . كانت له رحلة الى مصر والعراق ، فسمع الى عدد من علمائها مثل أبو الفتح بن ابى الفوارس، وأبى الحسن على بن ابراهيم ، وأبو بكر الباقلانى ، وأبو ذر الهروى وغيرهم . (٣)

وفي اعتقادنا أن في هذا القدر من تتبع رحلات الفقهاء العلمية ما يكفى ويغنى . أما عن رحلات علماء الحديث الى المشرق خلال تلك الفترة ، فلم تكن كثيرة ، كما لم تكن مقتصرة على الحديث وحده ، وذلك نظراً لأن هناك من جمع بين الفقه والحديث في رحلته ، وقد سبق أن ذكرنا بعضهم كعيسى بن مسكين ولقمان ابن يوسف الغسانى ،

---

(١) محمد بن محمد مخلوف : نفس المصدر السابق ، ص ١١٠ - على مصطفى المصرانى : اعلام من طرابلس - تراجم ودراسات ص ٢٣ ومابعدها .

(٢) المالكى : المصدر السابق والجزء ، مقدمة المحقق ، ص ٤٧م - محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ١٠٧

(٣) عياض : المصدر السابق ، ص ٧٠٢ - ٧٠٣ - محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ١٠٦

وأبى الحسن القابس قبل قليل . ونشير الآن الى غير هؤلاء ممن أشتهر برحلاته العلمية في طلب الحديث . ويأتى على رأس من ذكر تخصيصاً أن له رحلة في طلب الحديث ، مالك بن عيسى القفصي (ت ٣٠٥هـ) وهو أحد أشهر المحدثين في افريقية في الفترة موضوع البحث (١) . ولقد بلغ من إهتمامة بالحديث أنه كاد يحول وجهة الدراسات الشرعية في افريقية من الفقه الى الحديث كما سنعرض له بعد إن شاء الله .

أما علماء القراءات ، فقد كانت لهم كذلك رحلات مهمة طلباً للقراءات والتفسير . ولقد كانت اكثر رحلاتهم العلمية الى مصر لاختصاصها بعدد من البارزين في علمى القراءات والتفسير، وسنكتفي بالاشارة الى أشهرهم علماً ورحلةً فمن أولئك ، ربيع بن سليمان بن عطاء الله أبو سليمان القطان الذى كان من علماء القراءات المعدودين في حقل التأليف (ت ٣٣٣هـ) فلقد كانت له رحلة الى مصر، حيث سمع من عدد من علمائها ، وبمكة من أبن شاذان الجلاب (٢) وغيره . ومنهم محمد بن سفيان القيروانى الفقيه المقرئ الحاذق (ت٤١٥هـ) ، وقد كان من أبرز رجال القراءات الذين كان لهم دور في القراءات : قراءةً وتأليفا . ويذكر أنه أقام في رحلته الاخيرة الى المشرق في مكة ثم المدينة حيث توفى بها (٣) . ثم مكى بن أبى طالب حموش بن ابن محمد بن مختار (ت ٤٣٧هـ) أحد أشهر وأبرز رجالات القراءات لا في القيروان فحسب بل وفى الاندلس التى استوطنها . ولقد كانت له رحلات علمية طاف خلالها أقطار الشرق كالعراق ومصر

---

(١) محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ٨٠

(٢) عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٣٢٤ - محمد بن محمد مخلوف : نفس المصدر السابق أعلاه ، ص ٨١٣ .

(٣) عياض: نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ٧١٢ - ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ص ٢٧١ - محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص١٠٥-١٠٦

والحجاز(١) . ويعد من أغزر رجال القراءات تأليفاً، حسبما سنشير إليه مفصلاً في موضعه إن شاء الله . ومنهم كذلك مقرئ مشهور متأخر هو علي بن فضال المجاشعي القيرواني (ت ٤٧٩هـ) ، كانت له رحلة كذلك الى عدد من أقطار المشرق كالعراق وخراسان وغيرهما . وقد ظل في رحلته الى بغداد التي خرج اليها حتى أدركته (٢) الوفاة هناك .

ويحسن بنا قبل أن نغادر الحديث عن الرحلات العلمية للعلماء المغاربة في سبيل تقدم الدراسات الشرعية ، أن نلقي الضوء على رحلات علماء الاباضية الى المشرق . والواقع أن الدراسات الفقهية الاباضية كانت بحاجة سواء في جبل نفوسة أو في اقليم الجريد الى رحلات علمية الى المشرق وخاصة البصرة بالعراق للاستزادة والتبحر في الفقه الاباضي واصوله وقواعده من أفواه شيوخ الاباضية اللامعين ولذلك فقد رحل الى هناك عدد منهم خلال القرون موضع الاهتمام ، ثم عادوا الى مساقط رؤوسهم يحملون علماً غزيراً هيأ لهم هناك مكانة عالية . وبجهودهم تلك نشطت الدراسات الفقهية نشاطاً كبيراً كما سنلمع اليه بعد ذلك .

وتمدنا المصادر باسماء عدد كبير من أولئك العلماء الاباضية ، نكتفي بذكر أشهرهم وأبرزهم رحلةً وعلماً . فمن أوائل من رحل الى البصرة حيث قابل أشهر شيوخ الاباضية ، محمد بن عبد الحميد ابن مغطير النفوسي الجناوني ، وكانت رحلته قبل عام ١٣٥هـ (٣) .

---

(١) القفطي : أنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الجزء الثالث ، ص ٣١٣ - ٣١٤ - ابن خلكان : وفيات الاعيان ، المجلد الخامس، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ - محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ١٠٧-١٠٨

(٢) الداودي : طبقات المفسرين الجزء الاول ، ص ٤٢١ - السيوطي : طبقات المفسرين ، الجزء الاول ، ص ٢٣- ٢٤

(٣) احمد مختار عمر: النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الاسلامي حتى بداية العصر التركي ، ص ١٣٣

ومنهم كذلك اسماعيل بن ضرار (أودرار) الغوامسى ، فقد رحل الى البصرة ، وتتلمذ على يد أبرز شيوخ الاباضية في وقته وهو أبوعبيده بن أبى كريمة . وقد مكث هناك خمسة أعوام ، ومما يذكر عن مقدار علوكعبه في الفقه الاباضى انه ألقى على مسامع شيخه حوالى ٣٠٠ مسألة عويصه في الفقه الاباضى .(١) ثم نفّاث بن نصر النفوسى ، وهو من أبرز علماء الاباضية حتى نسبت اليه فرقة منهم. رحل الى العراق ، وقابل كثيراً من شيوخ الاباضية وتلقى على أيديهم العلم ، مما جعل له مكانة علمية مرموقة (٢) وغير ذلك .

أما فيما يختص بالدراسات الأدبية والرحلات التى تمت بصددها ، فإننا وإن كنا لم نعثر على رحلات علمية لأعلامها الى المشرق . الا أننا لا نستبعد أن يكونوا قد رحلوا الى هناك حيث النشاط الادبى الواسع ، ولا نستبعد كذلك ألاّ تكون البلاطات الادبية المتناثرة في عواصم الثقافة بالمشرق قد استهوتهم .

وعلى أية حال فإننا لم نعدم إشارات عدة لبعض رحلات الأدباء واللغويين والشعراء المغاربة . ولعل أول اسم يطالعنا هو اسم خالد بن ربيعة الافريقى (كان حياً سنة ١٤٠هـ) الكاتب الذى كان له دور معروف في تقدم الكتابات الرسمية أو ما يعرف بديوان الانشاء ، إذ يذكر أنه إرتحل الى المشرق وبالذات الشام حيث التقى هناك بعبد الحميد الكاتب زعيم كتاب الإنشاء وحامل لوائهم : فخالطه واستفاد من بلاغته (٣) . ولا يعرف للأسف

---

(١) أحمد مختار عمر : النشاط الثقافي في ليبيا ، ص١٣٣

(٢) احمد مختار عمر : نفس المرجع اعلاه ، ص ١٣٤- ١٣٥- على يحيى معمر : الاباضية بين الفرق الاسلامية عند كتّاب المقالات في القديم والحديث ، ص ٢٦٤- ٢٦٥

(٣) حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ، القسم الاول ، ص١٥١-١٥٢ .

تاريخ ولادته ولا وفاته ، وإن كان حسن حسني عبد الوهاب يشير الى أنه كان حياً عام ١٤٠هـ كما ذكرنا .

ومن علماء اللغة والنحو ، نجد رحلة لبكر بن حماد بن سهل بن ابى اسماعيل الزناتى (ت ٢٩٦هـ) أحد أشهر الأدباء والشعراء اللغويين في المغرب كله ، وهو وإن كان من أبناء المغرب الأوسط ، إلاَّ أنه عاش لفترة طويلة في القيروان حتى عد واحداً من أهلها . وسنترجم له بعد إن شاء الله . والمهم أن له رحلة علمية الى المشرق وخاصة بغداد ، حيث قابل هناك جمعاً عظيماً من علماء ولغوي وشعراء العراق المشهورين كالشاعر أبى تمام ، ودعبل الخزاعى ، وعلى بن الجهم ، وابن حاتم السجستانى (١) وغيرهم .

ولدينا أيضا ذكر لرحلة شاعر آخر ، بل لغوى ونحوى في المقام الأول وهو ابو عبد الله محمد بن جعفر التميمى المعروف بالقزاز القيروانى (ت ٤١٢هـ) الذى سنترجم له بعد وقد رحل الى العراق حيث قابل هناك عدداً من علماء اللغة وغيرهم ، وعلى رأسهم أبو على الحسين بن ابراهيم الآمدى وغيره . (٢)

وبالنسبة للدراسات أو العلوم الاجتماعية فلا نتوقع أن تكون هناك رحلات علمية في حقليهما التاريخ والجغرافيا ، بحكم الندرة الشديدة في المعلومات عنها كما سنشير الى ذلك في مكانه إن شاء الله

وبالنسبة للعلوم التجريبية فلم تكن هناك ، رحلات كثيرة في

---

(١) محمد بن عمر والطمار : تاريخ الأدب الجزائرى ، ص ٣٢

(٢) المنجى الكعبى : القزاز القيروانى ، ص ٩ ، ٢٣-٢٤ ، ٣٣

حقولها المختلفة ، فقد إعتمدت النهضة العلمية للعلوم التجريبية على مجهودات العلماء من الأطباء والرياضيين والفلكيين الوافدين وكذلك العلماء المحليين الذين أخذوا عنهم كما سنتبين ذلك بالتفصيل لاحقاً .

بيد أننا لم نعدم ذكراً لبعض الرحلات العلمية التى قام بها بعض الاطباء والكيمائيين المغاربة ، مثل اسماعيل بن يوسف المعروف بالطلاء (١) المنجم ، وهو من مشاهير الكيميائيين المغاربة ، فقد كان له رحلة الى العراق والشام ومصر طلباً للمزيد من العلم في حقل تخصصه الكيمياء ، وقد كانت له بعد ذلك جهود واسعة سنوضحها في مكانها إن شاء الله . ومن الأطباء الذين إرتحلوا الى المشرق ، أحمد بن يونس وشقيقه عمر أبناء يونس الحرانى كما أشار الى ذلك ابن جلجل في كتابه : طبقات الأطباء (٢) والحكماء .

وقبل أن نختتم الحديث عن الرحلات العلمية أبرز رجالاتها في مختلف الحقول والتخصصات لابد لنا من التنويه على أن كل هذه الرحلات العلمية كان لها دورها العظيم في تقدم الدراسات العلمية والثقافية ، ولكن هذا الدور في الحقيقة لم يكن وحده الذى أسهم في تقدم الحياة العلمية في افريقية خلال الفترة موضوع البحث ، بل كان لمجهودات العلماء الذين لم يرحلوا الى المشرق - وهم كثيرون - دورهما العلمى والثقافي جنباً الى جنب مع عامل الرحلات العلمية هذا .

---

(١) الزبيدى الأندلسى : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٤١- حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ٢٥٢- ٢٥٣ .

(٢) ص ٢٠٧ .

الفصل الثانى

المراكز العلميه الرئيسية في افريقية (المغرب الأدنى)

- القيروان
- العباسية وصبرة
- رقادة
- تونس
- المهدية
- سوسة
- اقليم الجريد - قسطيلية (توزر - قفصه - نفطة - قنطرا)
- طرابلس

عمت النهضة العلمية بكافةأوجه معارفها - والتي سنأتي على ذكر تفاصيلها بعد - جل مدن افريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، وأضحت الكثير من مدنها مراكز مهمة للثقافة والعلوم. ولقد تبارت تلك المدن في اهداء أنبغ علمائها وأدبائها وأطبائها الى هذه البلاد . غير أن مدينة القيروان وان كانت تستأثر بالكثير منهم ، بحكم كونها مركز جذب عظيم ،استمدته من واقعها كعاصمة ، روحية وسياسية وعلمية ، بجانبكونها قاعدة عسكرية للبلاد أيضا . على أن نفرا من أولئك العلماء والأدباء والأطباء قاوم عوامل الاغراء والجذب التي كانت تشعها العاصمة القيروان ، فتحيزوا لمدنهم وآثروا البقاء فيها . وكان هذا من يمن الطالع وحسن الحظ ، اذ ظل هؤلاء ينشرون علمهم وأدبهم بين الناس في مدنهم ، وشكلوا بالتالي روافد ثقافية أخرى تصب بجانب رافد القيروان الثقافي المميز في قناة النهضة العلمية لافريقية خلال تلكالفترة.

وثمة أمر آخر يقتضيه هذا التقديم ، وهو أن مدن افريقية لم تكن كلها مراكز علمية بالضرورة ، فقد كانت هناك مدن وأقاليم قدر لها ان تكون دونغيرها مراكز مهمة للثقافة والعلوم ، اما بسبب موقعها الروحي ، أو الجغرافي ، أو السياسي ، أوالمذهبي . وكانت هناك مدن اخرى جاءت مشاركتها ضئيلة في الحياةالعلمية .

القيروان :

لقد تهيأ للقيروان أن تصبح حاضرة المغرب كله والأندلس لفترة من الفترات . وقد بناها عقبة بن نافع عام ٥٠هـ كما هو معروف لتكون قاعدة لتثبيت الفتح ، والانطلاق غربا لمواصلة الفتوحات ، ولكي تكون مركزا لنشر الاسلام واللغة العربية ، وهو ما قاله عقبة بن نافع وهو يضع حجر أساسها أنه يرجو أن تكون (عز للاسلام الى آخر الدهر) (١) . والواقع أن هذا القائد الكبير لم يضع حجر الأساس في مدينة القيروان فحسب ، بل أسهم في تقوية أسس وحدة المغرب العربي ببنائة للمدينة ، نظرا للدور الهام الذي لعبته مدينة القيروان في تاريخ حضارة المغرب العربي . (٢)

ومنذ البدء ، أحيط بناؤها بالاجلال والتبجيل ، ونُسبت الى عقبة بن نافع أمور غيبية عدت بمثابة كرامات له ، كخروج السباع والحشرات ، والهرام من أماكنها ، عند ما أزمع الفاتح البانى على تشييد مدينته على هذه الأرض المهجورة ، وكذلك عند ما وفقه في تحديد مكان القبلة لجامعها أوجامعه (٣) هو . ومع مرور الزمن تضخمت الرواية عند المغاربة بصفة خاصة ، فأصبح ينظر الى عقبة بن نافع نظرة اجلال ارتفعت به الى مصاف الأولياء (٤)

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩ .

(٢) الحبيب الجنحانى : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة العربية الاسلامية في المغرب العربى ، ص ٣٣ .

(٣) المالكى : المصدر السابق والجزء ، ص ٦-٨ - ابن عذارى : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ١٩-٢٠ - سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ج ٢ ، ص ١٨٤ - ١٨٦ مع الحواشي - السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ١١٦-١٢٠ مع الحواشي .

(٤) أنظر سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع أعلاه والجزء ص ١٨٤ - ١٨٥ مع الحواشي ، السيد عبد العزيز سالم نفس المرجع السابق اعلاه والصفحات والحواشي .

وكما أحيط عقبة بهذه النظرة التبجيلية ، أحيطت المدينة نفسها بالنظرة ذاتها بسبب مشاركة اعداد من الصحابة في بنائها الامر الذى أضفى على المدينة هذه النظرة فالدباغ صاحب كتاب معالم الايمان في معرفة أهل القيروان (١) يقول عن القيروان مانصه : (أما القيروان فهى البلد الأعظم ، والمصر المخصوص بالشرف الأقدم ، قاعدة الاسلام والمسلمين بالمغرب ، وقطرهم الأفخر الذى أصبح لسان الدهر ، عن فضله يعرب ، وبشرفه يغرب قرارة الدين والايمان ، والأرض المطهرة من رجس الكافرين وعبادة الأوثان . فقبلها أول قبلة رسمت في البلاد المغربية ، وسجد لله فيها سراء وعلانيه . ناهيك بأرض كانت منازل أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومحط رحالهم ومعقلهم للاسلام ، المقصود اليها بسيرهم وأثقالهم ، والبقعة التى تخيروها مقرا للاسلام والمسلمين ، مصرا موءسسا على التقوى الى يوم الدين ، دار هجرة المغرب . . . الخ .

والشاعر أبو القاسم الغزارى الذى سنترجم له بعد يوءكد هو الآخر على الطابع الدينى لمدينة القيروان ، فهى المدينة التى بناها أصحاب الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وحسبها بذلك فخرا . (٢)

---

(١) الجزء الأول ، ص ٦-٧ .

(٢) وردت تلك الأبيات التى يوءكد فيها الشاعر أبو القاسم القزارى على طابع مدينة القيروان الدينى ، ويتغنى بفضائلها وأمجادها الروحيه وغيرها في القصيدة الرائية التى هجا فيها الفاطميين ومدح بها الثائر البربرى الخارجي أبا يزيد بن مخلد بن كيداد الذى خرج على الخلافة الفاطمية . والقصيدة في الأصل تعتبر من قصائد الفخر . وقد افتخر فيها بالقيروان في معظم أبيات القصيدة .
عن الأبيات تلك والقصيدة انظر الدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢- ٢٣ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : شعراء المغرب حتى خلافة المعز ، ص ٨٩ - ٩٢ - محمد اليعلاوى : شعراء افريقيون معاصرون للدولة الفاطمية . مقال نشر في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد ١٠ ، السنة ١٩٧٣م ، ص ١٢٢-١٢٥ .

و هذا شاعر آخر ، وهو أبو الحسن على بن عبد الغنى الحصرى القيروانى الضرير - الذى سنترجم له بعد أيضا - يشير كذلك الى هذا الطابع الدينى لمدينته ، فنظم الشعر في ذلك مفتخرا بها . (١)

والواقع أن نظرة الاجلال والتبجيل التى أحاطت بالمدينة ، حدت الى أن ينظر اليها أهلها على أنها تمثل في مكانتها الاسلامية المدينة الرابعة بعد مكة والمدينة ، وبيت المقدس . فالدباغ يقول أيضا (٢) نقلا عن أحد شيوخ مدينته قوله : (مازلت أبحث في الآثار والأخبار ، الى أن وجدت أن القيروان رابعة الثلاثة : المدينة ومكة وبيت المقدس والقيروان ، وقد دعا لها كبار الصحابة ممن شهد بدرا وبايع بيعة الرضوان) . والشاعر الحصرى القيروانى الضرير ، الذى أشرنا اليه آنفا يشير في قصيدة له (٣) الى نفس هذا المعنى الذى أشار اليه الدباغ وغيره .

وفي الحق فلو أن أولئك المؤرخين والعلماء والأدباء من أبنائها نظروا الى الحقيقة التاريخية ، وهى أن القيروان كانت بدون ريب رابع مدينة اسلامية تؤسس للمحافظة على الفتوحات الاسلامية ، ونشر الاسلام والدراسات الاسلامية في الأمصار المفتوحة بعد الكوفة والبصرة والفسطاط لكان ذلك أصدق وأبلغ . فقد كانت القيروان تقوم

---

(١) من القصيدة التى رثى بها مدينة القيروان عندما سقطت في يد بنى هلال ، وبنى سليم عام ٤٤٩ هـ عن الأبيات تلك والقصيدة أنظر محمد المرزوقي الجيلانى بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصرى القيروانى حياته عصره رسائلة دواوينه ، ص ١٢٥-١٢٧

(٢) معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ، الجزء الاول ، ص٦-٧

(٣) انظر محمد المرزوقي والجيلانى بن الحاج يحيى أبو الحسن الحصرى القيروانى ، ص ١٢٦

بنفس الدور السياسي والعسكري والديني والعلمي الذي قامت به الكوفة والبصرة والفسطاط . بيد أن دور القيروان في الواقع كان أشمل وأعمق ، لأنها تفردت تقريبا بالدور العلمي في بلاد المغرب في الفترة الزمنية موضع الاهتمام .

ومهما يمكن من أمر، فان الشيء الذي لا يمكن نكرانه ، هو أن تأسيس القيروان ، كان حدثا من أجل الأحداث التي أثرت ليس في تاريخ وحضارة المغرب الأدنى ، بل والمغرب كله .

ولقد أضحت القيروان منذ تأسيسها العاصمة السياسية للمغرب كله والأندلس ، وظلت كذلك الى أن بدأت خريطة المغرب والأندلس السياسية تتغير فانفصلت الأندلس عنها (١) ، وفي وقت لاحق : المغرب الأقصى بتأسيس الدولة المدرارية فالادريسية وانفصل كذلك المغرب الأوسط بتأسيس الدولة الرستمية في تاهرت. كما أنها قد بدأ تفقد قيمتها السياسية تدريجيا بتأسس العواصم السياسية المتلاحقة للدول المستقلة في افريقية : العباسية- رقادة - المهدية- صبرة (المنصورية) . غير أنها مالبثت أن استردت مكانتها السياسية عندما عادت في وقت من الأوقات ابان حكم الصنهاجيين العاصمة السياسية لافريقية والمغرب في الفترة التي أعقبت انتقال الفاطميين الى مصر .

ولئن فقدت القيروان بعض اشراقها السياسي كعاصمة في خضم تلك الأحداث التي أفضت الى تأسيس عواصم جديدة مع انفصال الأندلس والمغربين : الأوسط والأقصى عنها ، الا أنها مافقدت

---

(١) بتأسيس الدولة الاموية عام ١٣٨هـ ، ٧٥٥م على يد عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان ، المعروف بعبدالرحمن الداخل كماهو معروف .

يومـــا مكانتها كعاصمة ثقافية ، ومركـــز علمي رئيسي في بلاد المغـــرب كلها . ذلك أنها أصبحت منذ تأسيسها وحتى سقوطها في يد قبائـــل بني هلال وسليم في منتصف القرن الخامس الهجرى ، العاصمة العلمية الكبرى في المغرب الأدنى والمغرب كله . فلقد تبوأت مركزها العلمـــى الريادى قبل أن يقع فتح الأندلس ، وقبل أن تؤسس عواصم العلـــم والمعرفة في بقية أنحاء المغرب كتونس ، وتاهرت ، وتلمسان ، وفـــاس ومراكش ، وحل بها بعض الصحابة وكثير من التابعين وتابعيهم ، ونشروا فيها العلوم الدينيه في مجالاتها المختلفة ، وتوافد عليها كبـــار الأدباء واللغويين والنحاة حسبما سنعرف بعد لاحقا . ولقد بلغـــت من المكانة الفقهية ، أن أصبح لها مدرسة فقهية نافست غيرها مـــن مدارس الفقه المالكى ، وذلك عندما أنجبت عددا من كبار الفقهـــاء الذين أصبح ينظر اليهم كرموز علمية عاليه ، مثل سحنون ابن سعيـــد وغيره . وفي الأدب بمجالاته المختلفة أهدت الى العربية أساطيـــن الأدباء والشعراء واللغويين والنحاة الذين أعتبروا رموزا لما أنتجتـــه العبقرية الاسلامية ، كابن رشيق وابن شرف وابراهيم الحصرى ، وعلـــى ابن عبد الغنى الحصرى القيروانى صاحب أجمل قصيدة غزليـــة وهى قصيدة : ياليل الصب ، التى عورضت ولا تزال حتى اليـــوم ، ومثل القزاز العالم اللغوى والنحوى المشهور الذى تعدت شهرتـــه حدود القيروان وافريقية ، وفى الطـــب مازال لاسم ابـــن الجزار نظرة احترام وتقدير حتى الآن .

ولقد تنامى دور القيروان العلمي في العصر الأغلبى ، وظهرت فيه بصفة خاصة خصائص المدرسة الفقهية القيروانية التى قـــاد نهضتها وقعد لها القواعد الفقيـه سحنون بن سعيد . ويصف محمود اسماعيل عبد الرزاق [1] دور القيروان في العصر الأغلبى بقولـــه :

---

(١) الاغالبة - سياستهم الخارجية ، ص ٤٤ .

(والحق أن القيروان في العصر الأغلبى حظيت بمكانة مرموقة في الحياة الثقافية ، حتى غدت مركزا للحضارة الاسلامية في المغرب ، وأضحت كعبة يقصدها طلاب العلم والعلماء من الشرق والغرب على السواء ، وصارت همزة الوصل بين حضارة المشرق الاسلامى والأندلس) .

وفي العصر الفاطمي لم تفقد القيروان اشعاعها الثقافي ، بل تعاظم دورها وتنامى حين تصدى علماؤها لعلماء الإسماعيلية في المهدية الذين كانوا يستمدون قوتهم من الخلفاء الفاطميين . وتصدى بعض أدبائها أيضا لأدباء الفاطميين ، الذين كانوا يروجون لافكار الشيعة الاسماعيلية حسبما ستعرف بعد .

أما العصر الصنهاجى فقد كان يحق أزهى عصور الثقافة ، وزهت القيروان بمكانتها العلمية والسياسية التى استعادتها ، وظلت طيلة العصر الصنهاجي الأول (١) تتزعم الحركة العلمية بكافة أوجه معارفها ، وان كان قد غلب على الحياة العلمية وقتها النشاط الأدبي أو الدراسات الأدبية ، كما سنعرف لاحقا بعون الله .

ولقد دفعت المكانة العلمية هذه التى بلغتها القيروان في الفترة الزمنية موضوع الرسالة الى أن يتعصب أبناؤها لها ، ويرون أن مدينتهم فاقت في قيمتها العلمية كثيرا من المدن والأمصار الاسلامية ،

---

(١) أى حتى سقوط القيروان في منتصف القرن الخامس الهجرى الذى به ينتهى العصر الصنهاجي الاول ، ليبدأ العصر الصنهاجى الثاني في مدينة المهدية بعد ذلك حتى سقوط الدولة الصنهاجية الفعلى نهائيا بيد الموحدين .
عن ذلك أنظر قبل ص ٨٧ - ٩٠

بل فاقت في نظرهم مصروبغداد . فالشاعر أبو القاسم القزارى ، الذى عرضنا له من قبل بقول في نفس القصيدة التى هجا فيها الفاطميين ، ومدح بها الثائر أبى يزيد ، وهو في الحقيقة لم يمدح سوى مدينته القيروان يؤكد على أن القيروان فاقت بغداد ، بل ان بغداد يجب أن لا تقارن بها ، ويتساءل بقوله كيف له أن يقيس بغداد عليها ، والشهور لا تقاس عادة بالسنين (١) ؟ وشاعر القيروان المشهور ابن رشيق يقول من قصيدة يرثى بها مدينته القيروان بعد سقوطها على يد الهلاليين ، ان القيروان زهت في مكانتها العلمية على مصر وبغداد معا . (٢)

ومهما يكن في هذا القول من مبالغة وتحيز ، فانه لا يمكن تجاهله ونكرانه في التدليل على مقدار مابلغته النهضة العلمية لهذه المدينة . وعلى أية حال فان مما يؤكد على عظم مكانة القيروان العلمية أنها كانت قمينة بأن يؤلف في نهضتها العلمية مصنفات عديدة حتى الوقت الحاضر . فالمالكى يصنف كتابه : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، وفيه تراجم لبضع عشرات من الفقهاء والعلماء بها . والدباغ يؤلف موسوعة بعنوان : معالم الايمان في معرفة أهل القيروان . ويأبى أحد أبناء القيروان ، وهو أبو الفضل بن ناجى التنوخى الا أن يتقصى مافات الدباغ من تراجم ، فيكمل الكتاب ويزيد عليه تراجم من اختياره - ويزايد عليهما - ان صح هذا التعبير - أحد أبناء القيروان المتأخرين ، وهو محمد بن صالح القيروانى الكنانى

---

(١) أنظر قبل حاشية رقم | ص ١٥٤ .

(٢) عن هذه الأبيات وتلك القصيدة ، أنظر عبد العزيز الميمنى السلفي الراجكوتى : النتف من شعر ابن رشيق ورسيله إبن شرف ص ٧٣ - ٨٠ .

(ت ١٢٠٢هـ) فيؤلف كتابا بعنوان : تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم القيروان ، يستدرك فيه تراجم فاتت الدباغ وابن ناجي ، مع تراجم لاحقة لهما .

وفي الأدب والمسيرة الادبية والشعرية يؤلف ابن رشيق شاعر القيروان المشهور ، ج الذى سنترجم له بعد-كتابا بعنوان :أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، يترجم فيهلبضع عشرات من شعراء القيروان المعروفين في وقته وفي العصر الحديث نجد بعضا منالباحثين المحدثين يخصها بمصنفات تتحدث عن العلم والأدب بها . فهذا حسنحسني عبدالوهاب يصنف : بساط العقيق في حضارةالقيروان وشاعرها ابن رشيق ، وهذا أبو القاسم كرو وزميله عبدالله شريط يصنفان : عصر القيروان . وهذا محمد العروسي المطوى يصنفكتابا بعنوان : سيرة القيروان - رسالتها الدينيةوالثقافية في المغرب الاسلامي. ويكتب الحبيب الجنحاني بدوره كتابا بعنوان : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية في المغرب العربى الى غير ذلك.

وقبلأن نغادر الحديث حول هذه النقطة يجدر بنا الاشارة الى مقولة مأثورة ترددت كثيرا عند تتبع مسيرة الدراسات العلمية والشرعية منها على وجه الخصوص في الامصار الاسلامية ، وهى أن (العلم كقمح نتج بالمدينة وصفى ببغداد ، وطحن بالقيروان ، وغربل بقرطبه ، وأكل بفاس) . وعلى كلحال فاذا كان لنا من تعليق فهو أنه اذا كان حظ القيروان من العلم : الطحن فهو حظ غير مبخوس ، ويكفيها انها كانت تطحنه لتقدمة لقمة سائغة للآخرين .

---

(١) أنظر نص المقوله عند عبدالهادى التازى : جامع القرويين (المسجد والجامعة بمدينة فاس) الجزء الاول ص١٠٩ (نقلا عن غير واحد من المؤرخين) .

(٢) عصر القيروان ، صه .

وكيفما كان الأمر ، فاننا لا نجد في هذا الخصوص عبارة أبلغ من تلك التي أشار اليها أبو القاسم كرو وزميله عبد الله شريط، ولا نملك الا أن نردد معهما قولهما : (لم يلمع في تاريخ المغرب العربي اسم مدينة ولا ازدهر عصر من عصوره بعد الفتح الاسلامي كما لمع اسم مدينة القيروان وازدهر عصرها الذهبي مدة أربعة قرون كاملة ابتدأت من تأسيسها على يد عقبة بن نافع سنة خمسين للهجرة ، وانتهت بانهيارها السياسي العلمي والاجتماعي على أيدي القبائل الزاحفة من صعيد مصر عام ٤٤٤هـ) .

العباسية (١) وصبرة (٢) :-

لعل من الواجب أن نشير في البداية الى أن هاتين المدينتين العباسية وصبرة تعتبران كضاحيتين للقيروان أكثر منهما مدينتان . ولسنا

---

(١) هناك مدينتان في المغرب تعرفان باسم العباسية . العباسية هاتة (القصر القديم) التى تتحدث عنها في المتن ، والتى بناها ابراهيم بن الأغلب المؤسس للدولة الأغلبية . والعباسية الاخرى التى تقع في المغرب الاوسط بالقرب من مدينة تاهرت التى بناها حفيده : الامير محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب الذى تولى الامرة بين سنتى ٢٢٦- ٢٤٢هـ/ ٨٤١ / ٨٥٦م .
أنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٨٥ مع الحواشي (نقلا عن ابن الاثير وابن خلدون وغيرهما) .

(٢) هناك أيضا مدينتان في المغرب تعرفان باسم : صبرة. الاولى صبرة هاتة التى تتحدث عنها في المتن ، والتى بناها الخليفة الفاطمى المنصور ، والثانية : صبرة الليبية . وهى مدينة أزلية تكون مع مدينتى : ليتس مانيا (لبدة) وأويا أو أويه التى عربها العرب الى اياس ، مدينة طرابلس وصبرة الليبية عرفت أيضا بسبرت ، وهى صبراته - سبراته الحالية في ليبيا . وصبرة الليبية هاته غير : صبروا أو واحة صبروا ، وهى احدى واحات ليبيا كما يقول البكرى .
أنظر البكرى : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٥ (عن صبرو) و ص ١٧ (عن صبرة .
وأنظر كذلك سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق أعلاه ، ج ١ ، حاشية رقم ٢٢ ص ٦٦ .

نـنكر أن هاتين المدينتين كانتا في وقتمن الاوقات عامرتين بالسكـــــان والأسواق والمرافق الأخرى شأن كل مدينة ،الا أنهما كانتا تستمـــدان جميع أسباب وجودهما من القيروان بحكم احاطتهما بها أو لنقـــــل ملاصقتها لها ، فبدتاوكأنهما امتداد لها ، بل هما بالفعل كذلـــك حيث أصبحتا بمثابة ضاحيتين كبيرتين لها . ذلكأن هاتين المدينتين ـ الضاحيتين ـ ان صح هذاالقول لمتكن تبعد أقصاهما هى مدينـــة العباسية عن القيروان سوى ثلاثة أميال ، أما مدينة صبرة فلم تكـــن تبعد عنا لقيروان سوى نصف ميل فقط . ومن هنا نستطيع القـــول انهما يشكلان مع مدينة رقادة التى سنتحدث عنها فيما بعد ثـــلاث ضواح تكون مع مدينة القيروان : القيروان الكبرى على غرار القاهـــرة الكبرى كما هو معروف .

والعباسية ورقادةوصبرة مدن سياسية وادارية في المقام الأول ، فالعباسية التى كانت تعرف بالقصر القديم والتى تبعد ثلاثة أميال عـــن القيروان بناها (١)ابراهيم بن الأغلب موسس الدولة الأغلبية نتيجـــة لشعوره بخطر الجند العرب الذين لما تهدأ ثوراتهم بعد ، وكـــان بناؤها في نفس العام الذى تولى فيه ادارة افريقية عام : ١٨٤-٨٠٠م ، مما يؤكد اتجاههالى اتخاذ الحيطة والحذر له ولبنيه من بعده فـــي بناء هذهالمدينة . (٢)

---

(١) أنظر البكرى : المصدر السابق ، ص ٢٨- ٢٩ ، ص ٣٨ - الرقيق القيروانى : المصدر السابق ، ص ٢٢٢ - سعد زغلـول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج٢ ص ٣١- ٣٤ - حسن حسنـــى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس- مختصر يشمل ذكـــر حوادث القطر التونسي من أقدم العصور الى الزمان الحاضر، الجزء الأول ، ص ٧٨ .

(٢) أنظر سعد زغلول عبد الحميد: نفس المرجع السابق، ج٢ ص ٣٣- ٣٤ .

وما أن انتهى من بنائها حتى انتقل اليها بأهله ورجاله وجيشه ، وبانتقاله انتقلت الدوائر والدواوين الحكومية، حيث أصبحت العاصمةالسياسية والادارية [١] لافريقية حتى عام ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م ،عندما تحولت العاصمةالى مدينة رقادة .

يبقى أن نشير الى أنه مع التسليم بان العباسية قد بنيت لغرض سياسى وعسكرى ،الا أن هذا لا ينفى أن يكون ابراهيم بن الأغلب قد رغب بالاضافة الى ذلك فيأن يخلد له أسما وذكرا بين مؤسسي الدول ببناء مدينة تضفي على دولته الناشئة [٢]جوا من الأبهة والفخامة وقد سماها العباسية تيمنا بالعباسيين الذين وطأوا له ذلك الملك .

أمامدينة صبرة ، فقد بناها [٣] ثالث الخلفاء الفاطميين في المغرب ، الخليفة المنصور عام : ٣٣٧هـ/ ٩٤٩م، احتفاءا بانتصارهالكبير على ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد اليفرني، الذى مات متأثرا بجراحه بعد . ولا تبعد صبرة التى سميت بالمنصورية اما نسبة اليه ، واما نسبة لانتصاره على الثائر أبى يزيد أو نسبه لهما معا ، سوى نصف ميل فقط عن مدينة القيروان ،ولقد ظلت

---

(١) سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق ،ج ٢ ، ص٣٤- الحبيب الجنحانى :القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية في المغرب ،ص ٦٠ - ٦١ -

(٢) انظرمثلا سعد زغلول عبدالحميد : نفس المرجع السابق اعلاه والجزء ،ص ٣١

(٣) أنظر البكرى : المصدر السابق ، ص ٢٥-ابن حوقل : المصدر السابق ،ص ٧٣١ - ٧٤ ابن حماد : المصدر السابقص ٦٠- ٦١ (والغريب أن يجعل وحده عام بناءها سنة ٣٣٤هـ) حسن حسنى عبدالوهاب: خلاصة تاريخ تونس ، ص ١٠٠، ١٠٤ - السيدعبدالعزيز سالم : المرجع السابق ،ص ٥٤٤ - ٥٤٥

منذ ذلك الوقت العاصمةالسياسية للدولة الفاطمية وشطرا من الزمن عاصمة كذلك للدولة الزيرية وفى عهد المعز بن باديس الصنهاجي عندما أعاد بناء سور القيروان عام ٤٤٤هـ جعل السور مما يلى مدينة صبرة كفاصل بين المدينتين (١) وقد نقل اليها دواوين الجيش والجباية والرسائل أو المراسلات. (٢).

هاتان المدينتان : العباسيةوصبرة كانت أهميتها الثقافية تكمن في واقعهما كعاصمتين سياسيتين واداريتين . ذلك أنه يمكننا بداهة أن تقول بأنهما كانتا مركزين من مراكز الثقافة والعلوم فيا فريقية طوال مدة دورهما السياسى والادارى . والواقع أن الأدلة لا تعوزنا في التدليل على صدق هذا القول ، اذ ليس خافيا أن الحياة العلمية وخصوصا النواحى الأدبية منها كانت تسير في ركاب الأمراء والحكام. أينما ساروا وحيثما حلوا فمسيرة الحياة العلمية كانت تزهو وتتقدم غالبا في ظل الأمراءوالحكام الذين يشجعون العلم والعلماء والأدب والأدباء ، فكانوا يحيطونهم برعايتهم وتشجيعهم وعطاياهم ، وأحيانا بخلق روح التنافس بين الأدباء والشعراء وغيرهم ، وكانوا ينطلقون في هذا من حب الكثيرين منهم للعلم والأدب أولا ولرغبتهم ثانيا في اضفاء جو من الأبهة والذكر الخالد لبلاطاتهم ، لا سيما وأن العصر الذى نتحدث عنه آنذاك سواء في المشرق أو المغرب الاسلاميين كان عصر ازدهار العلم والفكر والأدب .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٥٤٥ - حسن حسنى عبد الوهاب ، خلاصة تاريخ تونس ، ص ١٠٠ .

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ، ص ٢٨ - ٢٩

وفي الحقيقة فان ذلك الأمر يعتبر ظاهرة عامة في الدولة الاسلامية سواء أكانت خلافة أم مملكة ، أم امارة ، أم حتى اذا كانت ولاية . ثم أن بريق العاصمة كان دائما يثير في نفوس العلماء والأدباء وغيرهم الرغبة في انتجاعها ، والعيش وسط ذلك المناخ العلمي والأدبي الذى يحوطها ، ومن ثم الاستفادة منه .

و العباسية وصبرة لم تكن بدعا في ذلك الأمر ، فكلتاهما ظلت عاصمة سياسية لافريقية مدة زمنية طويلة ، وأنتجعهما انتجاع وفادة لاسكنى كما يخيل الى العديد من الأدباء والشعراء والأطباء وغيرهم . وهذا في الحقيقة مادفعنا الى اعتبارهما مركزين من مراكز الثقافة والعلوم والا فالحق فان كثيرا من المراجع التى تطرقت الى تتبع مراكز الثقافة في المغرب كانت تمر على ذكر دورهما مرورا سريعا (١)- وهذا شيء طبيعى- بحكم ملاصقتهما للمدينة العلمية الكبرى أو الام وهى القيروان كما ذكرنا . وهذا يفسر لنا أيضا ملاحظة بدت لى وهى أن هاتين

---

(١) أنظر مثلا عبد الرؤوف عبد العزيز مخلوف : ابن رشيق ونقد الشعر ، دراسة نقديه تحليلية مقارنه ، ص ٧٤ - حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ، ص ٢٨ ، ٣١ الحبيب الجنحانى : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية في المغرب العربى ص ٦-٦٢ ، ٩٦ ، ١١٢ - حسن ابراهيم حسن : المعز لدين الله بالاشتراك مع طه أحمد شرف ، ص ٩ ، ١٤ ، ١٤٤ ، ٢٢٤-٢٢٥ ، ٢٣٢-٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤١ ، ٢٥٤ - ٢٥٥ فيما يتصل بالمنصوريه

المدينتين ومعهما ، قادة لم ينفق أن انتسب اليها أحد من العلماء والأدباء والاطباء وغيرهم وذلك كما يتضح من خلال استقراء كتب التراجم بمعنى أنه لم يطرق سمعى ذكر لعالم قصرى الأصل نسبةً الى مدينة القصر القديم أى العباسية ، أو صبرى أو رقادى نسبة لصبرة أورقادة(١) ، كما هو شأن المدن الأخرى ذات العرافة العلمية والثقافية . وعلى كل حال فان ما نستطيع اختتام هذه النقطة به هو ان المدينتين قد استمدت مكانتهما العلمية كما ذكرنا من واقعها السياسي ، فلما فقدتا أهميتها السياسة ، فقدت بالتالى تلك الأهمية الثقافية .

---

(١) نقول هذا على سبيل التعميم ، ولا ينفى هذا أن يكون ثمة من كان ينتسب الى هذه المدن - الضواحى - وعلى أية حال فحتى اذا كان هناك من انتسب الى تلك المدن ، ولم يقدر لنا الأهتداء اليه ، فانه يبقى أمرا نادرا .

رقـــادة :-

رفادة مدينة بناها : ابراهيم بن أحمد بن محمد بـــــن الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب عام : ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م، وتقع على مسافـــة أربعة أميال أوثمانية كيلومترات الى الجنوب الغربى من القيروان. (١) وليس هناك خلاف في أن السبب الرئيسى لبنائها هو : رغبة الأميـــر ابراهيم بن أحمد هذا الذى يعرف كذلك بابراهيم الثانى أو الأصغـــر -للتفريق بينه وبين جده الأعلى ابراهيم في أن يجارى عظماء الدول وكبـار الحكام من منشىء الدول الذين يبادرون الى تأسيس مدينة أو مـــدن تخلد مع الأيام ذكرهم (٢)، لا سيما اذا عرفنا أن عصره أو السنين الأولـى منه تمثل العصر الذهبى للاغالبة. (٣)

وللمؤرخين والجغرافيين عدة تفسيرات بشأن تسميتها برقـادة منها ماذكر أن أسمها مشتق من الرقاد أو النوم (٤)، وذلك أن الأميـــر

---

(١) البكرى : المصدر السابق، ص ٢٧ - ٢٩ ابن خلكان : المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٩ - الكناني القيرواني : تكميـــل الصلحاء والاعيان لمعالم الايمان في أولياء الله - حاشيـــة رقم ٥٦ ، ص ٣١١ - ٣١٣ - حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس، ص ٨٩ - ٩٠ سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق، ج ٢، ص ٢١٦ - ٢١٨ مع الحواشي.

(٢) الكنانى القيروانى : نفس المصدر والحاشية والصفحه اعلاه - سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع اعلاه والجزء، ص ١١٤.

(٣) الكنانى القيروانى : نفس المصدر والحاشية والصفحة اعـــلاه سعد زغلول عبد الحميد : نفس المصدر والصفحه اعلاه، ص ١١٤

(٤) أنظر البكرى نفس المصدر السابق اعلاه ص ٢٧ ، الكنانـــى القيروانى : نفس المصدر السابق اعلاه والصفحه - سعـــد زغلول عبد الحميد : نفسه الحاشية رقم ٣٦ ، ص ١١٦ -١١٧

ابراهيم بن أحمد أصيب بارق منع النوم من عينيه فنصح بالخروج الى البادية حيث هذا المكان الذى بنيت عليه هذه المدينة التى داعب النوم فيها اجفانه فرقد فيه . ومن الأقوال ايضا ماقيل ان هذا المكان عرف برقادة نسبة الى رقاد جثث الخوارج (١) من قبيله ورفجونه الذين كانوا تغلبوا على القيروان في أعقاب مقتل حبيب بن عبد الرحمن الفهرى عام ١٤٠هـ .

وقد انتقل اليها الأمير ابراهيم بن أحمد فور انتهاء بنيانها عام ٢٦٤هـ (٢) ، واستتبع هذا بالضرورة انتقال الدوائر والدواوين الحكومية ، ولقد قصدها الناس من كل حدب وصوب ، فعظم شأنها وعلا صيتها . وظلت عاصمة للدولة الاغلبية حتى سقوطها عام ٢٩٦هـ كما أنها ظلت كذلك عاصمة للخليفة الفاطمى الأول عبيد الله المهدى حتى انتقل منها الى مدينته المهدية عام ٣٠٨هـ . (٣)

رقادة هذه اختلف شأنها عن مدينتى العباسية وصبرة ، رغم مايجمعهما واياهما من خصائص ككونهن ضواحى للقيروان ، وكواقعهن عواصم سياسية وادارية كما ذكرنا . ذلك أنه خلد لها دور كمركز من مراكز العلوم والثقافة بافريقية في كثير من المصادر والمراجع وهو دور لم يكن نتيجة حتمية لواقعها كعاصمة سياسية شأن ماذكرناه عن العباسية وصبرة ، ولكنه كان دورا علميا وثقافيا واضحا .

---

(١) البكرى : المصدر السابق ، ص ٢٨١ - سعد زغلول عبد الحميد المرجع السابق ، حاشية ٣٦٢ ، ص ١١٦ - ١١٧ .

(٢) ابن خلكان : المصدر السابق ، المجلد الثالث ، ص ١١٩ - سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ص ١١٧ .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق اعلاه والجزء ، ص ١١٧ - وما بعدها - السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٣٧١ - ٣٧٢ حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ص ٨٩ - ٩٠ .

والواقع أن رقادة أضطلعت بدور ثقافي مهم في نشر وازدهار العلوم التجريبية على وجه الخصوص ، ذلك لأن الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى) كانت قد تطورت كثيراً في عهد الأغالبة ، وكان أبرز ماميز الحياة العلمية في عهدهم : التقدم في الدراسات الشرعية ، وتلى ذلك التقدم في العلوم التجريبية التى بلغت غاية من إزدهار آنذاك [١] ، وكان الفضل في انتشارها وازدهارها يعود لبعض الامراء الاغالبة ومنهم الأمير ابراهيم بن احمد الذى كان شديد الولع بالعلوم الرياضية [٢] والحكمة . لذلك فما أن انتهى من بناء رقادة حتى بادر بانشاء بيت الحكمة الذى قصد من إنشائه أن يأتى على غرار بيت الحكمة العباسى في بغداد . وقد وصفها علماء المغاربة المحدثون بأنها كانت بمثابة أول اكاديمية علميه في المغرب كله . [٣]

---

(١) حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ، القسم الأول ، ص ٢٦ - ٣٠ ، ٧٣ - ٧٤ ، ١٩٣ عثمان الكعاك : تاريخ الجزائر ، ص ١٥٩ .

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسيه ، القسم الاول ، ص ١٩٣ .

(٣) دأب جل من أشار من الباحثين المغاربة على وجه الخصوص الى بيت الحكمة هذا على تسميته بالجامعة وعلى رأس هؤلاء حسن حسنى عبد الوهاب في كتبه ، وخاصة الورقات (أنظر القسم الاول ، ص ٢٧ ، ٧٣ - الخ) ومنهم عثمان الكعاك في كتابه : تاريخ الجزائر ، ص ١٥٩ ، وابراهيم التوزرى في المرجع السابق ، ص ١٦٢ ، والحبيب الجنحانى : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية فى المغرب العربى ، حاشية رقم ١٧٧ ، ص ١١١ . وهذه الحاشية مهمة جدا في توضيح ماذكرنا اذ يقول فيها (في بعض الكتب الحديثة تقارن بيت الحكمة في تاريخ الثقافة الاسلامية بالجامعة ، ولكن نظام بيت الحكمة ودورها العلمى يجعلان مقارنتها بما يعرف اليوم بأكاديمية العلوم أقرب . وهو ماثميل اليه في المتن .

ولقد دأب الأمراء الأغالبة على تعهد بيت الحكمة بالرعاية والتشجيع وهم : ابراهيم بن أحمد مؤسس رقادة ، وابنه عبد الله وحفيده زيادة الله بن عبد الله (١) وجهدوا في أن يقتفوا نهج الخلفاء العباسيين الذين أسسوا ورعوا بيت الحكمة البغدادى ، لذلك فقد عملوا على أن يزودوا هذا البيت برقادة بالمصنفات العلمية والفلسفية على وجه الخصوص وبذلوا الأعطيات الكبيرة في اقتناء تلك المصنفات من مظانها المختلفة وخاصة من بغداد ، وكانوا في الوقت نفسه يرغبون ويمنون فطاحل العلماء للقدوم الى بيت الحكمة برقادة (٢) . كما الحقوا ببيت الحكمة هذا قسما للترجمة عن اللغة اللاتينية وغيرها . (٣)

والحقيقة أن دور بيت الحكمة برقادة لم يقتصر على العلوم الرياضية والطبية فحسب ، بل كانت رقادة وبيتها ذلك مجالا للمناظرات الكلامية بين أهل السنة وغيرهم . ويأتى على رأس المتكلمين والفلاسفة الذين أموا رقادة الفقيه المتكلم سعيد بن الحداد والفيلسوف أبو بكر الغمودى وغيرهما . (٤)

---

(١) يُنسب نفر قليل من الباحثين المحدثين الى زيادة الله الثالث ابن عبد الله بن ابراهيم بن أحمد بن الأغلب، وهو آخر الامراء الاغالبة فضل تأسيس بيت الحكمة ، مع أن الشائع والمعروف أن مؤسسة هو جده ابراهيم بن احمد بن محمد بن الاغلب ، الذى أسس مدينة رقادة أنظر عثمان الكعاك مركز الثقافة ، ص ٢٢ ، وكل من ينقل عنه .

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات القسم الأول ، ص ٢٦ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ابراهيم التوزرى : المرجع السابق ، ص ١٦٣- عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب، ص ٢٢ .

(٣) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع والقسم اعلاه ، ص ٢٧ ٢٠٠- ٢٠٣ عثمان الكعاك: مراكز الثقافة ص ٢٢١

(٤) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع اعلاه ، ص ٢١٣ - ٢١٧ .

أما العلوم الطبية ، فقد إزداد شأوها كثيرا وترتب على ازدهارها ، أن إنفصل علم الصيدلة عن علم الطب(١) ، أما علم النبات ، فقد تعددت المصنفات التى تناولته بالحديث(٢) .

ويرى أحد المغاربة المحدثين أن بيت الحكمة برقادة كان يضم بجانب العلماء المسلمين بعضا من القساوسة المسيحيين الذين عُهد اليهم بترجمة المؤلفات اللاتينية واليونانية . (٣)

ولعب بيت الحكمة برقادة دورا مهما في انتشار العلوم الرياضية والطبية على وجه الخصوص في أوربا وخاصة ايطاليا ، وبالتحديد مدينة سالرنو ، وذلك عندما تمكن قسطنطين الافريقى من نقل ماتلقاه من علوم رياضية وطبيه من بلاده التونسية الى ايطاليا حيث نشرها هناك . (٤)

ومما ساعد على ازدهار العلوم العقلية هذه ، هو حب آخر الامراء الثلاثة للدولة الاغلبية للعلم والعلوم العقلية على وجه الخصوص وقد ذكر أن هؤلاء الثلاثة الأمراء كانوا يُجيدون التحدث باللغة اللاتينية (٥)

---

(١) عثمان الكعاك: مراكز الثقافة في المغرب، ص ٢٢ .

(٢) عثمان الكعاك: نفس المرجع والصفحة

(٣) حسن حسنى عبد الوهاب: الورقات ، القسم الأول ، ص٢٧ ، ٢٠١

(٤) يرى حسن حسنى عبد الوهاب في ذلك أثراً قوياً ساعد في انبعاث النهضة الأوربية التى استفادت من المدرسة العلمية الافريقية .
أنظر نفس المرجع والقسم أعلاه ص ٢٧٠ - ٢٩ ، ٢١١ - ٢١٣ -
وكذلك يشير عثمان الكعاك الى ذلك الأثر العلمى الافريقى في النهضة الأوربية .
أنظر نفس المرجع اعلاه ، ص ٢٣ ، ٢٦ .

(٥) حسن حسنى عبد الوهاب ، نفس المرجع ، والقسم اعلاه ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

ويرى حسن حسني عبد الوهاب أن بيت الحكمة ، كان يحتل مكانة في أحد قصور الأمير ابراهيم بن أحمد مؤسسة ومؤسس رقادة كما عرفنا . وقد تتبع حسن حسني عبد الوهاب عبد الوهاب بيت الحكمة هذا ، ورسم له - تخميناً - تصوراً يوضح قاعاته وفصوله وخزائن كتبه وهيئته الادارية ، مما يترك انطباعا بأن هذا البيت يشبه تماما مثيلة البغدادى . (١)

ومما هو جدير بالذكر أن المراجع حفظت لنا اسم واحد من مشرفيه في عهد الأمير زيادة الله بن عبد الله بن ابراهيم ، وهو أبو اليسر الشيبانى الذى قدم مهاجرا من بغداد . وسنتبين لاحقا دوره ومكانته العلمية في موضعه باذن الله .

يبقى أن نشير أخيرا الى نقطة هامة رافقت بيت الحكمة هذا ذلك أن حسن حسني عبد الوهاب وغيره يستخدمون أحيانا لفظ : بيت الحكمة القيرواني (٢) ، مما يستشكل معه الباحث في شأن نسبته الى رقادة ، ولكن حسن حسني عبد الوهاب وغيره يؤكدون على أن هذا البيت أقيم برقادة ، وظل هناك طيلة مدة حكم الأمراء الأغالبة الثلاثة المذكورين وبعض من عهد الدولة الفاطمية ، وليس هذا فحسب ، بل يناقش مسألة أحقية رقادة به دون القيروان فيعقد فقرة بعنوان : التباس يؤكد فيها ذلك . (٣)

---

(١) الورقات ، القسم الأول ، ص ١٩٤ - ١٩٩ .
(٢) نفس المرجع والقسم أعلاه ، ص ٢٧ . (بيت الحكمة القيرواني)
عثمان الكعاك : تاريخ الجزائر ، ص ١٥٩ .
(٣) نفس المرجع والقسم ، ص ١٩٢ - ١٩٣ .

فكيف نوفق بين ترديده لعبارة: بيت الحكمة القيروانـــى ، وبين ما ثبت من أن كان في رقادة ؟ لعل ما يبدو لى معقولا ، هـــو هذا القول هو من قبيل اطلاق الكل على الجزء ، فـإفريقية كانـــت تعرف ايضا ببلاد القيروان (١) ، وكانـــت افريقية ومازالت تعـــرف بالبلاد التونسية نسبة الى مدينة تونس . وهكذا صح أن يقال : بيـــت الحكمة القيروانى ، أما اذا أريد التخصيص فيقال : بيت الحكمـــة الرقادى ، أو بيت الحكمة برقادة . ومما يدل على أن هذا المفهـــوم هو الذى جرى عليه العرف ، هو أن حسن حسنى عبد الوهاب نفسه أشار في بعض المواضع الى بيت الحكمة برقادة بقوله : بيت الحكمـــة التونسى . (٢) . ولا شك أن ذلك نسبة للقطر كله .

وأيا ما كان الأمر ، فقد ظل بيت الحكمة هذا برقادة يـــؤدى دوره في الحياة العلمية وبخاصة التجريبية منها كما ستعرف بعد طيلـــة مدة حكم الدولة الأغلبية ، وعندما سقطت الدولة الأغلبية وقامت الدولـــة الفاطمية ، ورث الفاطميون في جملة ما ورثوه ، بيت الحكمة هذا . غيـــر أنهم حاولوا تغيير طابعه التقليدى ، فأصبح في عهدهم وطيلـــة بقاء عاصمتهم في رقادة قبل بناء المهدية مكانا ليث الدعاية للمذهـــب الاسماعيلى والترويج له (٣) . ومما يذكر في هذا الصدد أنهم عندمـــا رحلوا الى مصر ، أخذوا معهم الكثير من المصنفات التى كان بيـــت الحكمة يحتوى عليها . (٤) .

---

(١) أنظر قبل ص ٣٧

(٢) الورقات ، القسم الأول ، ص ١٩٠ ، ١٩٩ .

(٣) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع والقسم أعلاه ، ص ٢٠٥ - ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٤) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع والقسم أعلاه ، ص ٢٨ ، ١٩٦ ، ٢٠٦

تونـــس :-

وكما كانتالقيروان أثرا خالدا من آثار المسلمينالانشائيـــة ومحدثاتهم في بلاد المغرب كانتمدينة تونس مازالت كذلك. فهـــذه المدينة دون ريب منمنشآتالمسلمين في هذه البلاد ، وقد تهيأ لهـــا أن تكون ذات شأن عظيم في تاريخ افريقية (المغرب الأدنى) ، وخاصـــة منذ القرن السابع الهجرى وحتى الوقت الحاضر ،ويكفى أن نشيـــــر الى أنها هى الوحيدةتقريبا منمدن افريقية التى أعطت اسمها للبـــلاد والسكان .

وقد التصق اسم مدينة تونس بجسان بن النعمان [1]الغساني الذى ينسب اليه بناؤها وتمصيرهـا على الأرجح [2] بعد تخريبه لمدينة

---

(١) أنظر البكرى : المصدر السابق ، ص ٣٧ - ٣٨ ، المالكى : المصدر السابق ،ص ٣٧ - الرفيق القيروانى : المصـــدر السابق ، ٦٦ - ابن أبى دينار : المصدر السابق ،ص٩ - سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق ،ج ١ ، ص ٢٣١- ٢٣٢ .

(٢) واذا كانت معظمالمصادروالمراجع تشير الى أن حسان بـــن النعمان هو بانى مدينة تونس ،فان بعضا من المصادر تذكر أن زهير بن قيس البلوى قد افتتحها . (أنظر ابنابى دينار: نفس المصدر السابق، ص ٩ ، لكنهذا غير معقول ، فحملـــه زهير كانت في العقد السادس من الهجرة ،بينما بناء تونـــس كان في العقد الثامن منالهجرة ، وهو ماناقشة ابن ابـــى دينار في نفس الصفحة ، وبعض المصادر تُغرب فتذكـــر أن الذى بناها هو عقبة بن نافع . وهذا القَول الذى أنفرد به المراكشي صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغـــرب، لم يشر اليه أحد من المؤرخين القدامي والمحدثين سواه. أنظر محمد الهادى العامرى : تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الازدهار والذبول ،حاشيةرقم (١) ص ٩

قرطاجنة البيزنطية التى لا تبعد عنها سوى ١٠ أميال فقط وكان الغرض من بنائها تأمين قاعدة بحرية (تطل منها افريقية على العالم الخارجى) ويكون لها نفس الدور الاستراتيجى الذى كانت تؤديه قرطاجنة .

ومنذ ذلك الوقت أخذت المدينة تكبر وتتسع ، وتعهدها القادة والولاة ، ثم بعض أمراء وخلفاء الدول المستقلة في افريقية بالرعاية (١) حتى أصبحت في الفترة الزمنية موضوع الرسالة ثانى مدينة افريقية بعد القيروان . هذا وينسب المؤرخون للخليفة العباسى المنصور قولا مأثورا يدل على أهمية تونس التى أخذت تزداد . وهو سؤاله لكل من يقدم عليه من الافريقيين : كيف حال أحد القيروانيين (٢) ، يقصد مدينة تونس .

ويميل نفر كبير من المؤرخين القدامى ، وبعض من الباحثين المحدثين الى ترجيح أن تسمية تونس بهذا الاسم ، انما هى تسمية عربية مشتقة من المعنى اللغوى للكلمة (٣) بينما يرى عدد من الباحثين العرب

---

(١) عن جهود القادة والولاة العرب ثم بعض أمراء وخلفاء الدولة المستقلة في المغرب الأدنى في رعاية وتعمير مدينة تونس أنظر حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات القسم الأول ، ص ٢٩ - ٩٤ - محمد الهادى العامرى ، المرجع السابق ص ٩ - ١١ .

(٢) أنظر حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع والقسم أعلاه ، ص ٢٩٢ .

(٣) يرى بعض المؤرخين القدامى أن مدينة تونس بنيت في موضع قرية عرفت : ترشيش أو طرشيش ، وسميت تونس لأن المسلمين عندما فتحوا افريقية نزلوا بقرية ترشيش في أحدى غزواتهم وكان بجانب القرية صومعة للرهبان ، فكان المسلمون يتأنسون براهب كان فيها ، ويقولون هذه الصومعة تونس - ومن هناء جاء الاسم ، وقيل بل ان المسلمين كانوا يسمعون أصوات الرهبان المنبعثة من الصومعة فيتأنسون بها وكانوا يقولون هذه البقعة تونس ، وقيل أن العرب =

والأجانب الى أن تسميةتونس المدينة بتونس ، هونسبة لقريـــة كانـــت تعرف بتونس " THNES " أو تينس " TYNE'S "(١)

وكانت مدينةتونس في الفترةالزمنية موضوع الرسالة مركزا مـــن مراكز الثقافة والعلوم ،فقد استوطنها عدد من العلماء والأدباء الذيـــن لم يبهرهم بريق العاصمة الثقافية الكبرى : القيروان ، وغيرها مـــن العواصم السياسية الأخرى . غير أن بعدها النسبى (٢) عن مدينـــة

= وجدوا زيتونه منفردة في الموضع الذى بقى به المسجد ،فقالوا هذه تونس ، وسمى المسجد بمسجد أوجامع الزيتونه .
أنظر البكرى : المصدر السابق ،ص ٣٧ - ٣٨ - ابن ابـــي دينار : المصدر السابق ، ص ٩ - ١٠ - سعد زغلول عبد الحميد المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٣ مع الحواشي (فيما ينقله عن البكـــرى وصاحب الاستبصار والادريسى) محمد الهادى العامـــرى : تاريخ المغرب العربى في سبعة قرون بين الازدهار والذبول ص ٩ ، حيث يقول دون أن يعلل لماقال (تونس تسميـــة عربيةواضحة) .

(١) أنظر حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ،القسم الأول ، ص ٢٩٠ ،حيث يقول ان تونس THUNES قرية فينيقيـــة الأصل ،وان كان لم يبرهن علىأنها هى نفسها التى اقيمت عليها مدينة تونس العربية،وانظر كذلك سعد زغلول عبد الحميد نفس المرجع السابق ،ج ١ ، ص ٢٣٣ حيث يميل الى انهـــا نسبة الى تونس او تينس TYNE'S (فيما ينقله عن جوتييه)
وأنظر الحاشية رقم ٩٩، من نفس الصفحة - الرفيق القيروانى : المصدر السابق ، حاشية رقم ٢ ،ص ٦٦ (فيما يؤكده المحقق للكتاب من أنها نسبة لقرية لا يتينيه تعرف ب : TYNES وذلك نقلا عن حسين مؤنس في كتابه : فتح العرب للمغرب)

(٢) يقول ابن ابى دينار ان تونس تبعد عن القيروان بأربع مراحـــل (أى ١٥٧ ميل كما يذكر محقق ومعلق كتاب ابن أبى دينـــار في الحاشية) .
أنظر المصدر السابق ، ص ١٣ مع حاشية رقم (١) من نفـــس الصفحة .

القيروان جعل منها مدينة مغلقة- ان صح هذاالقول - لذلك فان أثرها العلمى والثقافي لم يكن واضحا ، رغم كونها المدينة الافريقية الثانية في الأهمية بعد القيروان .

والواقع أن تونس - على ما يبدو من غرابة - لم تكن مركزا رئيسيا من مراكز الثقافة والعلوم على الأقل في الفترة الزمنية موضوع البحث ، فهى لم تتسم مركزها الريادى العلمى ، بل والسياسى والاقتصادى الا بعد سقوط القيروان في عهد الزيريين في منتصف القرن الخامس الهجرى بين العرب، ثم سقوط مدينة المهدية في عهدهم أيضا النورمانديين في منتصف القرن السادس الهجرى . ومع ذلك فلم تتبوأ مركزها الريادى آنذاك لا فى منتصف القرن الخامس الهجرى ولا في منتصف القرن السادس ، بل فى القرن السابع عندما قدر للحفصيين وهم أتباع الموحدين كما هو معروف أن يؤسسوا لهم دولة في المغرب الأدنى ، فاتخذوا من تونس عاصمة لهم.

ومن ذلك الوقت أصبحت تونس وارثة القيروان وغيرها من العواصم السياسية والادارية الافريقية كالعباسية ورقادة وصبرة والمهدية (١) (وقد استفحلت حضارة تونس على عهود الحفصيين ، فهم أول من عنى بها كعاصمة ، وأشادوا المصانع والقصور ، والمدارس للعلم وطلابة وغرسوا بها الحدائق . . وأذاعوا صيتها في العالم الاسلامي). (٢)

---

(١) عن المكانة التي بلغتها مدينة تونس ابتداء من قيام الدولة الحفصية ، أنظر ابن أبى دينار: المصدر السابق ، ص١٤-١٦
محمد الهادى العامرى : المرجع السابق ، ص ٩ - ١٨٨ .

(٢) محمد الهادى العامرى : نفس المرجع السابق ، أعلاه ص ١٠ .

وما يقال عن تونس المدينة ، يقال أيضا عن جامعها العتيد : الزيتونه ، فلم يكن له ذكر في الفترة الزمنية موضوع البحث مع جامع عقبة بن نافع في القيروان ، ولم يضطلع بدوره الثقافي والعلمى الا مع قيام الدولة الحفصية . ومنذ ذلك الوقت أصبح مهوى الأفئدة ، وأصبح يحمل مشعل العلوم الدينية لا فى المغرب الأدنى فقط ، بل وفى المغرب كله والأندلس والأجزاء التى امتد اليها الاشعاع الثقافي الاسلامي من قارنى افريقيا وأوروبا . غير أن هذا لا ينفى البته أهميته ودوره العلمى قبل ذلك ، لكن ذلك الدور لم يكن واضحا بارزا قبل قيام الدولة الحفصية .

وعلى أية حال فان ما تود أن نؤكده هنا هو : أن مدينة تونس كانت تزخر بعدد لا بأس به من العلماء والأدباء وغيرهم مما هيأها لتكون مركزا من مراكز الثقافة والعلوم الافريقية في الفترة موضع اهتمامنا ، وأصبح لها بالتالى دور علمى آنذاك ، لكن ذلك الدور كان ضئيلا ولا يتناسب مع مكانتها كمدينة افريقية ثانية بعد القيروان . ولعل السبب أو الأسباب التى أدت الى ذلك هو بعدها عن العاصمة القيروان كما قلنا ، ثم أثر طبيعتها البحرية والتجارية والأهم من هذا في تصورنا هو أنها لم تضطلع بدور سياسى آنذاك . غير أنه عندما أتيحت لها الفرصة كى تكون عاصمة للبلاد ، تنامى دورها وازدادت أهميتها ، واستعادت مكانتها كعاصمة للبلاد الافريقية كوريثة لقرطاجنة القديمة . (١)

---

(١) في هذا الصدد يذكر سعد زغلول عبد الحميد : أن تونس استعادت مكانتها كعاصمة للبلاد الافريقية باعتبارها تمثل قرطاجنة الحديثة التى خلفت قرطاجنة القديمة وهو يرى أن ذلك كان أمرا طبيعيا لأن القيروان كانت شبه مدينة اصطناعية نظرا لطابعها العسكرى . لذلك فبعد أن عظمت وكبرت كمدينة اقليمية عادت بعد ذلك لوضعها الطبيعى ، فيما استردت تونس كما قلنا مكانتها ثانيه . أنظر المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٨٤

ولئن ضنت كتب التاريخ والأدب بتوضيح مكانتها العلمية في الفترة التي تهمنا ، فانها لم تضن علينا بذكر أعلام تزهو بهم تونس ، وخاصة من الذين كان لهم دور في الدراسات الشرعية ، كعلي ابن زياد التونسي ، أول من أدخل موطأ الامام مالك وجامع سفيان الثوري بلاد المغرب ، وكعبد الرحيم بن أشرس ، ومحرز بن خلف ، وأبي اسحاق ابراهيم بن حسن التونسي ، وابي يزيد شجرة بن عيسى التونسي وغيرهم ممن سنترجم ونعرض لدورهم لاحقا ان شاء الله .

وفي دنيا الأدب والشعر أهدت تونس الى البلاد الافريقية واحدا من أشهر شعراء القطر كله وقتذاك ، وهو علي الابادي التونسي وكثيرين غيره ممن سنعرض لذكرهم ان شاء الله .

المهديـــة :

المهدية مدينة بناها الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله الملقب بالمهدى سنة ٣٠٣هـ ، وانتقل اليها فور انتهاء بنائها سنة ٣٠٨هـ . ولقد سميت بالمهدية نسبة اليه (١) ، وهى عبارة عن شبه جزيرة تقـــــع على رأس بارز من البحر (كهيئة كف متصل بزند والبحر محيط بهـــا)(٢) وهى الى الشرق من مدينة سوسة ، وتبعد عن القيروان مرحلتين أى حوالى ستين ميلا . (٣) .

ويعزو كثير من المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين بنائها الى عدة أسباب ، لعل آكدها هو شعور الخليفة عبيد الله المهـــــدى بعدم القبول في القيروان ، ورقادة ، نظرا لجو العداء الذى كان محتدما مابين الشيعة الاسماعيلية ، وبين جل السكان السنة (٤) . ذلك الشعـــــور

---

(١) البكرى : المصدر السابق ، ص ٢٩ - ٣١ - ابن حوقل : المصدر السابق ص ٧٣ - ابن حماد : المصدر السابق ص ٤١-٤٣ - حـــــن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس : ص ٩٧ .

(٢) الكنانى القيروانى : المصدر السابق ، تعليق رقم ٢٥٩ - ص ١٨٦ .

(٣) أنظر ابن حوقل ، نفس المصدر السابق اعلاه ، ص ٧٣ - البكرى : نفس المصدر السابق اعلاه ، ص ٢٩ .

(٤) أنظر مثلا المالكى : المصدر السابق ، ص ٢١٦ ، مقدمـــــة المحقق السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٥١٨-٥١٩ - الحبيب الجنحانى : المرجع السابق ، ص ٩٢ - عبده بدوى : مع حركة الاسلام في افريقية ، ص ٤٣ .

بالخوف من السنة لم يقتصر على الانتقال من القيروان ورقادة وبناء المهدية بل تعداه الى أن يفكر الخليفة في بناء بليدة صغيرة على بعد رمية سهم فقط عن المهدية تكون مقرا فقط لمصالح الناس التجارية من دكاكين وخلافة ، فيما تكون سكناهم في المهدية ، وبذلك يضمن لنفسه اشغال أذهانهم بين مصالحهم وأموالهم، وبين أهاليهم عندما يضطرون الى مفارقتهم ليلا ونهارا (١) ، وقد سميت هذه البلدة : زويلة (٢) . زد على ذلك ماكان يستشعره من تهديد القبائل البربرية في المغربين الأقصى والأوسط المناوئين له ولأتباعه من البربر الاخرين من قبيلتي كتامه وصنهاجة (٣) . وينضاف الى ذلك كله . كما يستنتج - عادة - رغبته في السير على نهج العادة التى اعتادها موسسوا الدولة في بناء مدينة تخلد ذكرهم ، ومن ثم الابتعاد عن عاصمة خصومهم. (٤)

ويؤكد بناؤها في ذلك الموقع المشار اليه آنفا ، والخطوات التى اتخذها الخليفة مباشرة ، كاتخاذه مرسى طبيعيا للمدينة ، وبنائه لدار صناعة كبيرة وتحصينه لها على الطابع الحربى للمهدية ، ويرى بعض الباحثين (٥) أن بناء المهدية في ذلك الموقع قصد منه العمل على بسط السيادة الفاطمية على حوض البحر الأبيض المتوسط، والاستعداد لغزو مصر.

---

(١) كان السكان والرعية يعانون عنتا من هذا التدبير وعندما قيل للخليفة (ان رعيتك في عناء من هذا ، قال لكن أنا في راحة لأنى بالليل أفرق بينهم وبين أموالهم ، وبالنهار أفرق بينهم وبين أهاليهم ، فامن عائلتهم) انظر ياقوت الحموى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٦٠

(٢) وقد يقال لها زويلة المهدية واحدى المهديتين . أنظر ياقوت : نفس المصدر السابق ، ج ٣ ، ص. ١٦٠ . حسن حسنى عبد الوهاب خلاصة تاريخ تونس، ص٩٨ .

(٣) أنظر البكرى : المصدر السابق ، ص. ٣ - السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع السابق ، ص ٥١٨ - الحبيب الجنحانى : المرجع السابق ، ص ٩٢

(٤) الحبيب الجنحانى : نفسه، ص ٩٢

(٥) الحبيب الجنحاني : نفسه ، ص ٩٣ حسن ابراهيم حسن : المعز لدين الله، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

ومدينة المهدية تعتبر بكل المقاييس مركزا مهما من مراكز الثقافةوالعلوم في افريقية (المغرب الأدنى) في الفترة موضع اهتمامنا فهي أولا : عاصمة سياسية وادارية محدثة ، وهذا رسم لها بالضرورة دورا علميا وثقافيا واضحا ، تأسيسا على ماسلف ذكره من حتمية الدور الثقافي للعواصم السياسية المحدثة . ولذلك فلن نبعد عن الحقيقية اذا ماقلنا أنها أصبحت مركز جذب كبير للعلماء والأدباء والأطباء وغيرهم سواء من الذين ساروا فيكنفالدولة الفاطميةطواعيه، أو الذين اضطرتهم الظروف لسكنى المهدية من المغاربة السنة.

وهانحن أولاء ، تطالعنا أنباء فئة لابأس بها من الشعراء الذين حاموا حول موسسها عبيد الله يمدحونه ويمدحونها ، فهذا أبوعبيدالله بن حبوس الفاسي يمدح المهدي، وقد اختط المدينة بطابع الأسد ، (١)

---

(١) ينسب الى عبيدالله المهدي بصر بعلم النجوم لذلك اختط بطالع برج الأسد ،لأنه كما قيل برج ثابت . ولذلك ثبتت (أنظر ابن حماد : المصدر السابق ، ص ٤١). غير أن هذا الأمر كما تعلم مخالف للاسلام ، وهو ماأشار اليه المحققان لكتاب ابن حماد هذا بقولهما : (كلام ابن حماد في هذا الشأن لا يوافق الاسلام في قليل ولا كثير ، فليس برج الأسد سبب ثبات المهدية. وقد تعرضت المهدية لما تعرضت له سائر المدن ، وهي الان مدينة شبه مغمورة في تونس، أنظر المصدر السابق ، اعلاه ، حاشية رقم ٤ ،ص ٤١ . ومع معرفتنا الأكيدة لذلك ، الا أننا أوردنا هذا للاستشهاد به في ذكر توافد الشعراء على المهدية أول بنائها .

فيقول : بطالع الاسد اختط البناء بها لكنك الاسد الدامى الأظافير[١]

وهذا شاعر آخر لم يرد له اسم يقول :

ليهنك أيها الملك الهمام قدوم فيه للدهر ابتسام
حططت الرحل في بلد كريم رعنه لك الملائكة الكرام
لقد عظمت بأرض الغرب دار بها الصلوات تقبل والصيام[٢]

وذلك شاعر يدعى ابن بديل يقول عن المهدية :

بنيت لدى أقصى المغارب دار قطنت بها الأحرار والأبرار[٣]

وثمة شاعر آخر مجهول الأسم أيضا يقول في المهدية :

خطتت بارجاء المغارب دار دانت لها الامصار والأقطار[٤]

---

(١) ابن حماد : المصدر السابق ، ص ٤١ .
(٢) احمد الطيب الفقيه : المهدية عبر التاريخ ، ص٦٦ (نقلا عن ابن عذارى) ابراهيم الدسوقي سعد جاد الرب : شعراء المغرب حتى خلافة المعز ، ص ٦٠ (نقلا عن ابن عذارى وغيره) .
(٣) أحمد الطيب الفقيه : نفس المرجع السابق ، ص ٦٥ .
(٤) أحمد الطيب الفقيه : نفس المرجع ، .

والمهدية في ثانى اعتبار لأهميتها كمركز علمى وثقافي ، عاصمة لدولة اختلف توجهها السياسى والمذهبى والأدبي ، بل والحياتى عماألفه السكان من توجهات سياسية ومذهبية - وهو المهم - وأدبية قبل مجيء الفاطميين الى المغرب . لذلك فمن الطبيعى وهى العاصمة والمقر لهذه الدولة لن تضطلع بهذا التوجه الفاطمى ، فيحتشد بها الأدباء والشعراء الذين الذين كانوا يشكلون مايمكن تسميته بأبواق دعاية متنقلة ، ويرفعون عقائرهم بأحقية هؤلاء الخلفاء الفاطميين بالأمر. وهذا أحدهم يقول فيحق الخليفة المهدى :

هذا الامام الفاطمى ومن به ... أمنت مغاربها من المحذور
والشرق ليس لشامه وعراقه ... من يهرب من جيشه المنصور
حتي يفوز من الخلافة بالمنى ... ويفاز منه بعدله المنشور (١)

أماالدور الحقيقى الذى أضطلعت به المهدية ، فهو ذلك الذى قصد منه الدعاية للمذهب الاسماعيلى ونشره بين السكان ما أمكن ذلك . ولقد قدروا أنه لا يتأتى لهم ذلك الا بجعل المهدية مركزا للدعوة للمذهب الشيعى الاسماعيلى يدعو ويروج له ويوضح أسسه ، فكان أن هيأوا لذلك دعاة نشطين مزودين بحصيلة مذهبيةكبيرة ، رتبوا الدعوة ترتيبا منظما دقيقا ، اضطلع به فيما بعد واحد من أشهر دعائهم على الاطلاق في دور الظهور وهو القاضى النعمان ،(٢) الذى سنعرض لدوره الخطير فيما بعد ان شاء الله .

---

(١) أنظر ، رابح بونار : المرجع السابق ، ص ١٦٨ (فيما ينقله عن ابن عذارى) .

(٢) أنظر ، عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ، ص ٢٥ .

وبالاضافة الى هذا غدت المهدية ساحة يحتدم فيها الجدل المذهبى بين دعاة الشيعة وأحيانا الخلفاء أنفسهم - كما حصل في عهد المهدى [١] - وبين علماء المالكية الذين رأى العديد منهم في مقارعة أولئك الدعاة الشيعة بالحجة والأدلة الشرعية واللغوية والقياسية وغيرها واجبا دينيا يأثمون على تركه والتقاعس [٢] عن القيام به .

وهكذا فقد شهدت المهدية في ذلك الوقت المبكر من عمرها شيوع تلك المناظرات والمساجلات العلمية بين ممثلى الاكثرية السنية الساحقة وهم علماء المذهب المالكى ، وبين ممثلى الاقلية الشيعية من الدعاة الذين فشلوا في توضيح وجهة نظرهم ، وكانت الغلبة من نصيب علماء المالكية كما سيتضح لنا بعد .

والمهدية في ثالث الاعتبارات التى تؤكد اهميتها كعاصمة علميه مميزه ، لم تفقد قيمتها العلمية والثقافية هذه بالاستغناء عنها كعاصمةسياسية . فعلى الرغم من المدة الزمنية القصيرة التى ظلت فيهاكعاصمة من عام ٣٠٨ - ٣٣٧هـ ، الا أنها احتفظت بأهميتها العلمية بعد ذلك ، ولم يؤثر فيها فقدها لمكانتها كعاصمة . ذلك لأنها ظلت تحتفظ بمكانتها كقلعة أولى للشيعة [٣] حتى ساعة نبذ

---

(١) أنظر ، بعد ص ٥٦٠.

(٢) عن هذه المجالس العلمية والمناظرات المذهبية وغيرها أنظر تعرضنا لها بالتفصيل بعد ص .

(٣) أنظر ابن عذارى : المصدر السابق ، والجزء ، ص ٢٦٦ ، عبده بدوى ، مع حركة الاسلام في افريقية ، ص ٨٤ .

المعز بن باديس للدعوة والمذهب الشيعي على مشارف العقد الرابع من القرن الخامس الهجرى . وبالاضافةلذلك ، فقد سكنها الكثير من السنيين ، ولمع بينهم عدد من العلماء والأدباء المرموقين في الفترة موضع اهتمام البحث ، وعلى رأس هؤلاء يأتى عالم القراءات المشهور أبو العباس أحمد بن عمار المهدوى ، والعالم الفقيه ابن عبد الجبار المعروف بابن الصائغ وغيرهما .

والمهدية في رابع الاعتبارات ، عادت و تسمت دورا سياسيا مهما ، ترتب عليه بالضرورة دور علمى وثقافي كبير وذلك عندما تمخضت الاحداث التى تلت ترك المعز بن باديس للمذهب الشيعى والسيادة الفاطمية عن سقوط عاصمته القيروان واجزاء من دولته بيد العرب كما هو معروف ، وكما أشرنا اليه مرارا . فتقلصت دولته في المهدية التي لجأ اليها ، وفي بعض أحوازها . و هنا عادت المهدية بلاطا سياسيا وعلميا وأدبيا لدولة أولنقل بقايا دولة واستمرت تقوم بدورها هذا حتى سقوطها بيد النورمانديين عام ٥٤٣هـ/١١٣٨م وما يهمنا من هذا هو ماترتب على التجاء المعز بن باديس للمهدية من دور علمى للمدينة ، ذلك أنه قد قصده العلماء والأدباء ، بوأسونه ويخففون عليه وقع الصدمةالتى تعرض وتعرضت لها دولته حتى وافته المنيه عام ٤٥٤ / ٤٥٥هـ فرثوه أيضا (١) ، وهو مايقف بنا الحديث عنده كما رسمنا من منهج .

---

(١) أنظر ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ - ابن خلكان : المصدر السابق ، المجلد الخامس ، ص ٢٣٣ - ٢٣٦ الميمنى الراجكوتى : النتف من شعر ابن رشيق وزميلة ابن شرف القيروانيين ، ص ١٧ ، ٥٧ ومابعدها - حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العقيق ، ص ٩٠-٩١- الزركلى : المرجع السابق ، الجزء السابع ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

غير أنه لا بأس من أن نذكر ما آل اليه أمر المهدية بعد ذلك، فلقد قدر لها أن تلعب دورا علميا مهما باعتبارها عاصمة لدولة استمر بقاؤها أزيد من ثلاثة أرباع قرن . وباعتبارها أيضا تمثل المدينة الدولة التى لم يعد للصنهاجيين سواها وسوى بعض أحوازها كما ذكرنا. ذلك أنه تتابع على المجيء اليها اعداد كبيرة من العلماء والأدباء والأطباء وغيرهم الذين روعهم اضطراب الأمور في افريقية بعد هجوم القبائل العربية فجاؤوا والى المهدية يزاولون علمهم وينشرون أدبهم وطبهم في هذه البيئة الهادئة نسبيا بتشجيع من خلفاء المعز بن باديس من أولاده واحفاده والحق أن هذا الدور العلمى الاخير للمهدية قارب دورها العلمى الأول في عهد الفاطميين على أول بنائها مع اختلاف التوجه طبعا . وتبالغ كتب التاريخ والأدب في توضيح هذا الدور الذى أدته المهدية على عهود خلفاء المعز في صورة تكاد تعيد أمجاد القيروان وتجعل المهدية وكأنها وريثة لها آنذاك. (١)

---

(١) عن بلاط المهدية في عهود خلفاء المعز وخاصة ابنه تميم، أنظر ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ص ٢٩٨-٣٠٤
ابن خلكان : المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٣٠٤-٣٠٩

سوســـــة :

سوسة مدينة ساحلية تحيطها المياة من جميع جهاتهـــا ماعدا الغرب (١) وتقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط في جنوبـــي مدينة تونس (٢) ، وهى تبعد عن المهدية مسيرة ثلاثة أيام (٣) والمسافـــة بينها و بين القيروان ستة وثلاثين (٤) ميلا .

ومدينة سوسة الأغلبية ، قائمةفي نفس المكان الذى كانت تقـــوم عليه المدينة الفينيقية الأزلية : حضرموت التى حرف لفظها في عهـــود خلفاء الفينيقيين على افريقية ، وهم الرومان والوندال والبيزنطيين الـــى هدرمات " (٥) . ويرى أحد الباحثين وهو حســـن حسنى عبد الوهاب أن تسميتها بحضرموت ليس فيه مايثير الدهشة ، اذا ما عرفنا أن الفينيقيين ، وهم من الكعنعانيين القادمين منذ عهود سحيقة من جنوب شبة الجزيرة العربية حيث اقليم حضرموت في اليمن (٦)

وكيفما كان الأمر ، فقد كانت مدينة سوسة قائمة ومعروفـــة بهذا الاسم ، زمن الفتح الاسلامى للمغرب ، وان كان الفضل يرجـــع للاغالبة في تعميرها . أما تسميتها بسوسة فان معظم المصنفات الجغرافية التى تناولت جغرافيتها لم تشر للاسف الى سبب تسميتها بذلك ، ويرجـــح حسن حسنى عبد الوهاب (٧) وهـــو الذى كتب فصلا مهما عن مدينـــة

---

(١) البكرى : المصدر السابق ، ص ٣٤ ، ياقوت الحموي : معجـم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٨١-٢٨٣ .

(٢) الكنانى القيروانى : المصـــدر السابق ، تعليق رقـــم ٢٣ ، ص ٧ .

(٣) ياقوت الحوى : نفس المصدر السابق اعلاه ، ج ٣ ، ص ٢٨٣

(٤) البكرى : نفس المصدر السابق والصفحه اعلاه ياقوت الحموى نفس المصدر و الجزء والصفحه اعلاه .

(٥) أنظر حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الثانـــى ص ١٥-١٨ .

(٦) الورقات ، القسم الثانى ، ص ٥

(٧) نفس المرجع والقسم اعلاه ، ص ١٦

سوسة أن اسم سوسة بربرى الأصل ، بيد أنه لم يشر الى مايعنيه هـــذا اللفظ البربرى .

ومدينة سوسة تدين في تمصيرها وازدهارها وتطورها للأغالبة الذين وجهوا لها عنايتهم ، وجعلوا منها مدينة على درجة كبيـــرة من الأهمية ، فأحدثوا بها الكثير من المنشآت الدينية والمدنيـــة والحربية . ولقد تعهدها بالرعاية اكثر من أمير أغلبى ، واستمرت فـي ازدهارها وتطورها حتى أفل دورها ببناء مدينة المهدية الفاطمية (١) .

ومدينة سوسة مركز مهم للثقافة والعلوم في افريقية في الفـترة موضع اهتمامنا . والواقع أن أهميتها العلمية والثقافية قد جاءت مـن موقعها البحرى الاستراتيجى ، ذلك أن الاغالبة اتخذوا من البقعـة البحرية التى قامت عليها مدينة سوسة الحديثة مرفأ بحريا لمدينتهم البرية الكبرى : القيروان بما في ذلك مدينتى العباسية ورقادة . ولقد فرضت عليهم الأحداث السياسية والعسكرية التى كانت توجهها الدولة البيزنطية في القسطنطينيه والقـوى المهيمنه على ايطاليا والجـزر التابعة لها وأهمها صقلية ضد السواحل الافريقية أن يؤسسوا لهـم مرفأ بحريا لا يبعد كثيرا من السواحل الأوربية من جهة ، ولا يبعد عـن عاصمتهم البرية القيروان كثيرا من جهة أخرى ، فاستقر عزمهم علـى سوسة باعتبارها المكان الأمثل ، فأسسوا فيها دار الصناعة السفن ، وأحاطوها بسور منيع وحصنوها بسلسلة من المحارس والأربطة (٢) التى تشكل ظاهـرة

---

(١) عن جهود الأغالبة في تمصير واعمار سوسة وازدهارها ، أنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٧١- ٧٢ ، ٨٥ ، ١٠١- السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابـق ، ص ٣٥٧ - ٣٦٠ ، ٣٦٣ - ٣٦٥ ، ٣٦٧ - ٣٦٨ - حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الثانى ، ص ٢١- ١٢٤ .

(٢) أنظر سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق والجـزء اعلاه ، ص ٧١ - ٧٢ - السيد عبد العزيز : المرجع السابـق ص ٣٦٣- ٣٦٨ - حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجـع السابق والقسم أعلاه ، ص ٢٤-٣٣ ، ٤٤- ٤٦ ، ٨٨- ٩١ ، ٩٥ - ٩٧ .

مغربية مميزة كما سنعرف بعد . وترتب على ذلك أن اضطلعت سوسة بدور عظيم في تاريخ الفتوحات الاسلامية وهو فتح صقلية الذى تم عبرها . ونحن لا يهمنا تتبع تلك الأحداث والمواجهة مع البيزنطيين والفرنجة بقدر ما يهمنا الاشارة الى أهمية سوسة العلمية والثقافية ، ذلك أنها أصبحت بحكم كونها ثغرا بحريا ومعقلا من معاقل الدفاع عن الاسلام والمسلمين تستهوى أفئدة الراغبين في الجهاد في سبيل الله المتطوعين للرابطة فيها ، وفي أحوازها . وهكذا فقد قصدها أعداد كبيرة من المجاهدين لسكناها ، وسكنى رباطها ومحارسها ، وكان من بينهم الكثير من العلماء والأدباء والعباد الذين كانوا بالاضافة الى انقطاعهم للعبادة والمثاغرة علماء يشار اليهم بالبنان (١) . ولقد أحدث هؤلاء بها نهضة علمية مهمة ، بالاضافة الى عدد لا بأس به ممن أنجبتهم المدينه نفسها . غير أن وجه تلك النهضة في الحقيقة كان مقتصرا في الدرجة الأولى على الدراسات الشرعية ، وهذا شئ طبيعى لأن سوسة جزء من كل وهو افريقية التى كانت الدراسات الشرعية أهم ما يميز حياتها العلمية ، هذا من جهة ومن جهة اخرى لطبيعة المدينة الحربية والجهادية - ان صح هذا - اذ ليس غريبا أن تستحوذ على عدد من العلماء والعباد والعلماء أيضا ممن يتحرقون شوقا للمثاغرة والمرابطة في سبيل الله . وتسعفنا كتب التراجم والطبقات وكتب التاريخ والأدب أيضا بذكر أسماء لا معة منهم مثل : يحيى بن عمر الكنانى ، وزيدان بن اسماعيل الواسطى السوسي ، وأبو عبدالله محمد بن زيتون ، وسهيل بن عبدالله القيروانى وعبدالحميد الصائغ ، ويحيى بن خالد السوسى وغيرهم الذين سنترجم لهم لاحقا بعون الله .

---

(١) أنظر المالكى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٩ - ٢٤٨ - ٣٢٠ - ٣٢٥ ، ٣٢٤ - ٣٢٧ .

وفي دنيا الأدب والشعر لم تخل سوسةمن علماء وأدبـــــاء وشعراء كان لهم ذكر على مستوى القطر الافريقى كله ، ومن بين أولئـــك محمد بن عبدون الوراق السوسى ، والصفار السوسى ، وأحمد بن أفلـــح السوسى وغيرهم ، ممن سنترجم لهم بعد ان شاء الله.

بلاد الجريد - قسطيلية :-

بلاد الجريد - قسطيلية - اقليم من أهم أقاليم البلاد التونسية بالأمس واليوم ويقع في الجنوب التونسي ، ويضم عددا من المدن الهامة في تاريخ حضارة تونس القديمة والمعاضرة مثل : توزر ، قفصة ، نقطة ، نفزاوة ، الحامة أو الحمة ، قنطرار . وغير ذلك(١) .

وهذا الاقليم كما يرى عدد من المؤرخين الجغرافيين المسلمين القدامى ، يمتد طبيعيا الى ما يلاصقة من أراضى : ليبيا و الجزائر(٢) . وفي هذا الصدد يرى سعد زغلول عبد الحميد أن اقليم الجريد هو جزء من الأقليم الصحراوى ، وهو أحد الاقاليم الطبيعية الثلاث التى تمتد أفقيا لتشكل المغرب العربى الواحد ، وهى بالاضافة للاقليم الصحراوى : الاقليم الساحلى واقليم التل أو اقليم الجبال (٣) .

وتأسيسا على ذلك يعتقد سعد زغلول (٤)عبد الحميد فيما ينقله

---

(١) البكرى : المصدر السابق ص ٤٨ ، ٧٥ - ياقوت : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٧ - ٥٨ ، ٢٠٦ ، ج ٤ ، ص ٣٤٨ ، ٣٨٢ ، ج ٥ ، ص ٢٩٦ - ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٧٣ ، ج ٦ ، ص ١٣٢ - سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٥ مع الحواشي - صالح باجة : الاباضية بالجريد في العصور الاسلامية الاولى ، ص ٦-٧ .

(٢) أنظر سعد زغلول عبد الحميد (فيما ينقله عن ابن حوقل والبكرى وصاحب الاستبصار وابن سعيد في الجغرافيا وغيرهم) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٥ مع الحاشية رقم ٧٦ من نفس الصفحه .

(٣) المرجع السابق ، والجزء اعلاه ، ص ٧٢ - ٧٦ .

عن مصادره المختلفة ، أن لبلاد الجريد مفهومات : عام ويشمل (كل الشريط العظيم الممتد جنوبا " من المغرب الى الشرق " من السوسي الأقصى ، ومدينة تارودانت الى سجلماسه على سمت من فاس الى فجيج على سمت تلمسان الى سفوح جبل راشد جنوب تاهرت الى وارجلا على قبلة بجاية ، وبالقرب منها وادى ريع الى اقليم الزاب ومدينة بسكرة الى بلاد الجريد (قسطيلية) الى نفزاوة ، ثم فزان ، وودان ، وأخيرا واحات وجنوب برقة) . أما المفهوم الخاص فهو اقليم قسطيلية الذى [1] حددنا مدنه وموقعه آنفا ، وهو الذى يهمنا من المفهومين لهذه البلاد باعتبار اقتصارنا الحديث على افريقية (المغرب الأدنى) فحسب .

بقي أن نشير في هذه العجالة الجغرافية الخاطفة ، الى أن معظم الجغرافيين والمؤرخين المسلمين القدامى كانوا يطلقون على هذا الاقليم لفظ قسطيلية بمدنه التى سبق ذكرها ، وان لم يخل الامر من اختلاف فيما ينضم اليه ، وفيما يخرج [2] عنه . أما لفظ الجريد ، فهو

---

(١) نفسه ، ص ٧٥ .

(٢) انظر البكرى : المصدر السابق ، ص ٤٨ (حيث لم يضم قفصه ونفزاوة الي ما يراه من اقليم قسطيلية وهى مدن توزر ، نفطه الحمه) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ٩٢ (وليس عنده تعريف واضح لقسطيلية بل يعتبرها مدينة وليستا قليما . وعلى هذا فهي مدينة توزر فحسب)-ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٧٣ ، ج ٦ ، ص ١٣٢ (وهو الوحيد تقريبا من بين المؤرخين والجغرافيين القدامى الذى أشار الى المفهوم الواسع لمفهوم قسطيلية اذ يضم عنده نفطة وتوزر وقفصة وبلاد نفزاوة) صالح باجيه : الاباضية بالجريد ، ص٦-٧ (وعنده الجريد - قسطيلية وتشمل توزر وضواحيها ، نفطة وضواحيها (قنطرار الحامة ، سدادة تيقوس) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ص ٧٥ (قسطيلية ومدنها نفطة ، توزر قفصة ، بسكرة) .

تسمية رديفة للفظ قسطيلية ، وهى مأخوذة أى التسمية من الصفة التى تغلب على ذلك الاقليم وهى كثرة أشجار النخيل به التى يتصاعد جريدها بكثافة كبيرة .ومن هنا سميت بلاد الجريد (١) أو بلاد النخيل ،أو بلاد التمور ، وأحيانا شط الجريد (٢) ويبدو أن هذه التسمية غلبت على هذا الاقليم اكثر من تسميه قسطيلية. (٣)

ويستدعى اقليما لجريد منا وقفة توضح وضعيته السياسية والمذهبية - لما فى ذلك من ارتباط وثيق مع ماستقرره من أهمية علمية وثقافية له- فهذا الاقليم بحكم كونه يقع في أقصى الجنوب التونسى ، وغير بعيد عن ولايتى طرابلس والجزائر كما عرفنا ، كان في أغلب فقرات التاريخ على الاقل في الفترة موضع بحثنا أقرب الى هاتين الولايتين منه الى افريقية . وكما نعرف أن الدولة الأغلبية كانت تبسط سلطتها على كل البلاد التونسية مع أجزاء من ولاية طرابلس وأجزاء من ولاية الزاب الجزائرى ، بالاضافة لاقليم الجريد طبعا . غير أنه في المقابل كانت هناك الدولة الرستمية التى قامت عام ١٦١هـ في بلاد الجزائر كما نعرف أيضا .

---

(١) أنظر البكرى : المصدر السابق ، ص ٤٨ (فيما يتعلق بكثرة نخيل قسطيلية) سعد زغلول عبد الحميد (نقلا عن مصادره المختلفة) : المرجع السابق ،ج ١ ، ص ٧٥ مع حاشية ٧٦ ، اذ يقول ان قسطيلية تعرف باسم بلاد الجريد أو بلاد التمر أو جزائر التمر لكثرة نخيلة أو بلاد النخيل .

(٢) أنظر صالح باجيه : نفس المرجع السابق اعلاه ، حاشية ٣ ، ص ١٠ - محمد التونجى : المرجع السابق ، ص ٨٥ حيث يستخدم في خارطة افريقية لفظ شط الجريد ، وغيرها .

(٣) أنظر في هذا مثلا ابن خلدون ، الذى يستخدم لفظ الجريد للدلالة على قسطيلية في معظم الاجزاء التى ورد فيها ذكره . أنظر المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٢ ، ٤٣٣ ، ٥٢٩ ، ٨٣٦ ج ٦، معظم صفحات الجزء ، ج ٧ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ٣٥٤ ، ٣٦٣ ، وصفحات كثيرة أخرى .

بيد أن الحدود بين الدولتين لم تكن واضحة المعالم ، بل كانت متشابكة متداخلة بحكم احاطة الدولة الرستمية بالذات بالدولة الأغلبية من الجنوب والشرق والغرب (١) ، ولقد نجم عن هذا الوضع الحدودى أن أصبحت تبعية اقليم الجريد ، قسطيلية السياسية تخضع حينا للدولة الأغلبية وأحيانا كثيرة للدولة الرستمية (٢) . وعلى هذا فقد غدا إقليم الجريد يشكل أهمية كبرى للدولة الرستمية تنبع من ذاته باعتباره امتداد للفكر والمعتقد الاباضى من جهة ، ولكونه همزة وصل بين دولة المذهب الاباضى الرئيسية وهى الدولة الرستمية من جهة ، وبين معقل الاباضية في ولاية طرابلس وهو جبل نوفسه الذى كان يتبع سياسيا ومذهبيا للدولة الرستمية من جهة أخرى وذلك بعد الاتفاق الذى تم بين عبد الله بن ابراهيم الأغلب خليفة والده المؤسس ، وبين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم خليفة والده المؤسس أيضا للدولة الرستمية على اقتسام ولاية طرابلس بين الدولتين (٣) .

---

(١) أنظر محمود اسماعيل عبد الرازق : الاغالبة حاشية رقم ٢٣ ص ٣٦ وانظر كذلك الخوارج : في بلاد المغرب ص ١٨٨ مع الحواشي - محمد على دبوز : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٥٠٠ ، ٥١٥ ، ٥١٦ .

(٢) أنظر محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ص ١٠٣ مع حاشية رقم ٢٢ من نفس الصفحة - محمد على دبوز : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٥١٥ - ٥١٦ (حسبما يُفهم من كلامه)

(٣) عن الاتفاق السياسى الذى قسمت بموجبه ولاية طرابلس بين الأغالبة والرستميين ، أنظر سعد زغلول عبد الحميد (فيما ينقله عن مصادره) : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٠ مع الحواشي - السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ - محمود اسماعيل عبد الرازق : نفس المرجع لسابق اعلاه ، ص ١٠٤ - ١٠٦ - وكذلك الخوارج في بلاد المغرب ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

لكننا وبالرغم من أن الشواهد التاريخية تعوزنا لا نعتقد بأن اقليم الجريد كله كان خاضعا سياسيا وبالتالي مذهبيا للدولة الرستمية فعلى سبيل المثال مدينة قفصة وهي احدى مدنه الكبرى لم تكن اباضية الهوى شأن نقطة مثلا قنطرار والحامة وغير ذلك ، فقد عاشت فيها اكثرية سنية لمع فيها منذ اتمام الفتح وحتى انتهاء الفترة الزمنية موضوع البحث عدد كبير من علماء المذهب المالكي كما سنشير بعد قليل . ولربما يعود هذا الى قربها النسبي للقيروان وغيرها من المدن السنية المالكية (١) وبعدها بعض الشيء عن اقليم الجريد الذي تنتمي اليه جغرافيا ، وكذلك هناك مدينة توزر التي يشار اليها على أنها العاصمة السنية لبلاد (٢) الجريد ، وقد لمع فيها هي الأخرى عدد كبير من علماء وأدباء القطر الافريقي حسبما سنلمح الى ذكره بعد قليل .

وكيفما كان الأمر ، فان الحقيقة التي لا مراء فيها ، أن اقليم الجريد - قسطيلية - كان من أهم المراكز العلمية الرئيسية في افريقية في الفترة الزمنية موضوع البحث ، فالجريد بحكم ثنائية عن العاصمة الثقافية الكبرى القيروان وغيرها من العواصم الثقافية الاخرى ، أضطر - كما يخيل الى - الى الاعتماد على نفسه في ارواء حاجته من العلوم والمعارف وخاصة الدينيه منها . وكان لتمركز البربر بحكم وجودهم الأصلي فيه ، وحماسهم للاسلام وتعاليمه ، الأثر الجليل في انتشار الاسلام ، والدراسات الشرعية بينهم . ولقد أتاح له هذا أن ينجب علماء محليين ، لذلك فان معظم الاسماء اللامعة من العلماء والأدباء في هذه المنطقة والذين سنترجم لهم كانوا ينتسبون الى مدن هذا الاقليم بالدرجة الأولى .

---

(١) يقول البكري : ان قفصة على مسيرة ثلاثة أيام من القيروان ، بينما مدينة نفزاوة على مسيرة ستة أيام أما توزر فهي آخر مدينة في اقليم قسطيلية .
أنظر المصدر السابق ، ص ٤٧ ، ٧٥ .

(٢) صالح باجية : المرجع السابق ص ٩

ولعل الأمر الثاني الذي جعل من الجريد مركزا مهما للثقافة والعلوم في افريقية وقتذاك ، أنه أصبح بحكم ثنائية أيضا عن العواصم السياسية الكبرى للمغرب الأدنى - كما يتراءى لنا - ملجأ لكل من لا يشعر بالأمان هناك من العلماء والأدباء وغيرهم سواء أكانوا من السنة أم الشيعة ، أم الأباضية(١) .

والأمر الثالث في تصورنا الذي جعل منه مركزا مهما للعلوم والثقافة ، هو ما سبق أن ذكرناه عن وضعيته السياسية فالمذهبية . ذلك أنه بقيام الدولة الرستمية بالقرب من هذا الاقليم تسلل اليه المذهب الاباضي خاصة وأن البربر يشكلون كما ذكرنا جل سكانه ، ولما كان البربر يشعرون بأن الدولة الرستمية التي قامت على أساس ديني قويم من وجهة نظرهم يخلد ويحقق مبادىء الاسلام العادلة ، فقد استهوتهم الآراء الاباضية فاعتنقوها ، ويضاف الى هذا أولئك الذين فروا بمعتقدهم الاباضي الصغرى نحو الجنوب هربا من الضرباب المتلاحقة التي تعرضوا لها من قبل الولاة الأمويين فالعباسيين ، فأمراء الدولة الأغلبية(٢) . فلما

---

(١) اذا كان التجاء علماء وأدباء من السنة الى اقليم الجريد يبدو أمرا مستغربا رغم أننا لا نستبعد فان احتواء الجريد على اتباع كثير لمذهب الشيعة والاباضية أمر لا يدفع ولا ينكر وبالتالي لابد أن نتوقع وجود علماء وأدباء وهذا معروف تاريخيا - من الشيعة والاباضية. فمدينة نفطه سميت الكوفة الصغرى كما يقول البكري نظرا لكثرة الشيعة فيها والجريد زخر بعدد كبير من علماء وأدباء الاباضية ، أنظر البكري : المصدر السابق ، ص ٧٤ - ٧٥ صالح باجية : المرجع السابق ، ص ١٣ .

(٢) عن ثورات الخوارج وملاحقة ولاة الدولتين الأموية والعباسية لهم ، ثم بعض أمراء الدولة الاغلبية . أنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٦ ، ٣٩٦ ، ج ٢ ، ص ٤٠ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٤٠ ، ١٤٣ - السيد عبد العزيز سالم ص ٢٠٧ - ٢٧٩ - ٤٥٢ محمود اسماعيل عبد الرزاق الخوارج في بلاد المغرب ، ص ٤٢ - ١٠٧ ، ١٨٩ - ١٩١ .

قامت الدولة الرستمية شعر هؤلاء بوجودهم وأهميتهم ، وترتب على ذلك أن ارتبط معظم الجريد بالولاء المذهبي للرستميين منذ قيام دولتهم وحتى سقوطها عام ٢٩٦هـ . (١)

ونخلص من هذا كله الى القول بأن اقليم الجريد - قسطيلية عرف نهضة علمية عظيمة تعددت اتجاهاتها وتوجهاتها بتعدد انتماءات سكانه المذهبية ، واصطرعت به العلوم والآداب السنية بالشيعية بالاباضية ، وان كانت الثقافة الاباضية هي الاكثر وضوحا وبروزا حسبما ألمحنا الى أسباب ذلك. غير أن هذا لا يعني البته أن الجريد كان حكرا للثقافة الاباضية . فهذه مدينة قفصة وهي من أمهات مدنه تسكنها أغلبية سنية ، وينشأ فيها عدد كبير من العلماء والادباء المشهورين ، ليس فيها فحسب بل في افريقية كلها حتى أنه قد نشأت بها مدرسة في الحديث (٢) نافست مدرسة القيروان الفقهية السحنونية نسبة الى سحنون بن سعيد أشهر علماء المذهب المالكي في افريقية . ولقد كادت هذه المدرسة الحديثية التي أسسها مالك بن عيسى القفصي الذي سنترجم له بعد أن تغلب على افريقية لو أمتد به الأجل كما يقول محمد بن الحارث بن أسد الخشني (٣) ، وقيل مالك بن عيسى القفصي أشتهر بها عدد من العلماء الذين كانوا من أوائل الطبقات المالكية التي استمدت علومها المذهبية من مؤسس المذهب المالكي نفسه : مالك بن أنس كالحارث بن أسد القفصي وغيره. (٤) وبجانب مدرسة قفصة الحديثية ، كانت هناك مدرسة

---

(١) صالح باجيه : المرجع السابق ، ص ١٣-١٤

(٢) عن هذه المدرسة الحديثية وعن النهضة العلمية في قفصة أنظر مجموعة من العلماء والأدباء : تاريخ قفصه وعلمائها ، ص ٨٩ ، ١٣٢- وانظر كذلك بعد ص ٣٩٩ - ٤٠١

(٣) كتاب طبقات علماء افريقية ، ص ١٤٧

(٤) أنظر المالكي : المصدر السابق ، والجزء ص ٢٠٥ - عياض : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٩ .

فقهية من رجالها : حمد يس بن ابراهيم القفصي وأبو اسحاق بن منصور القفصي وغيرها . (١)

وهذه مدينة توزر التي كانت تعتبر عاصمة الجريد السنية وتولي وجهها جنوب القيروان تستزيد من علومها الشرعية على وجه الخصوص من علمائها الكبار، فأبي محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني وأبي الحسن القابسي وغيرهما (٢) ، وها هي تهدي مثلا للقطر الافريقي عددا من العلماء والأدباء نذكر منهم على سبيل المثال اثنين من ابرزهم وأشهرهم هما : يحيى بن علي بن زكريا الشقراطيسي ، وابنه أبو محمد عبدالله بن يحيى بن زكريا الشقراطسي الذي كان ومايزال من أشهر من أنجبتهم مدينة توزر حتى الوقت الحاضر . ويكفي أن نشير الى أنه هو أول من نظم ملحمة شعرية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وظلت لأمد طويل مثالا تُحتذى تعارض وتشطر وتخمس وتشرح ، وهي القصيدة اللامية الشقراطسية (٣) التي سنتناولها بالحديث في مكانها بعد ان شاء الله . ومما يجدر ذكره هنا أن أبا يزيد مخلد بن كيداد اليغرني الذي شن ثورة ضخمة على الدولة الفاطمية في القرن الثالث الهجري ، قد تلقى علومه ودراسته الدينية والمذهبية في مدينة توزر هذه . (٤)

---

(١) أنظر مجموعة من العلماء والأدباء : تاريخ فقصة وعلمائها ص١١٦-١١٩ وأنظر بعد ص٣٤٨

(٢) من الذين تتلمذ واعلى هذين العالمين الجليلين يحيى بن زكريا الشقراطسي والد عبدالله الشقراطسي صاحب القصيدة الشقراطسية أنظر الهادي مصطفى التوزري أعلام الافارقة (عبدالله الشقراطسي) ص١٧ ، ١١-١٣ .

(٣) أنظر الهادي مصطفي التوزري : نفس المرجع اعلاه ، ص١٦ - ٤٢ نص القصيدة، ص ٤٣-٦٠) وانظر كذلك : كارل بروكلمان تاريخ الادب العربي ،الجزء الخامس، ص١٠٨-١١٢

(٤) أنظر صالح باجية المرجع السابق ص ١١٥ - ١١٦

ومدينة نفطة التي تعتبر من معاقل الاباضية ، كانت تشتمل على عدد من العلماء والأدباء الذين كانوا ينتسبون اليها ، وكانوا يختلفون في انتماءاتهم المذهبيةعن الغالبية من سكانها ، فهذا أبو عبدالله محمد بن الحسن النفطي يتلقى علومه في القيروان ليعود لمدينته ثانية فينشر فيها علومه وان كان قد نسب اليه شيء من التشيع (١) وهذاأحد رجالها ويدعى البغلى يروج لافكار شيعيه حتى قبل أن تقوم الدولة الفاطمية (٢) ومثله محمد بن رمضان الشاعر الذى كان يروج هو الاخر لافكار شيعيه (٣) وهذا عالم مالكى من أبنائها وهو أبو الحسن بن اسماعيل يتلقى علومه في القيروان على عدد من علماء المالكية وعلى رأسهم سحنون بن سعيد وغيره (٤) .

أماازدحام مدن الجريد بعلماء الاباضية على وجه الخصوص وبالفقه والثقافة الاباضية فهو أمر معروف لا ينكر . فلقد ازدحمت أغلب مدنه وخاصة مدينة قنطرار أو قنطرارة (٥) بشيوخ المذهب الاباضي الذين كانوا يؤلفون مؤلفات فقهية على أسس مذهبهم . وسنكتفى هنا بذكر عدة اسماء مشهورةمن علمائهم من أبناء الجريد ، مؤجلين الحديث عن مكانتهم ومؤلفاتهم الفقهية في مكانة من الدراسات الشرعية ، فمن بين تلك الاسماء نجد أمامنا أسماء لامعة بارزة ، كأبى القاسم بن يزيد من مخلد الوسياني وأبى الربيع سليمان بن على بن يخلف وابن سلام بن عمر ، وأبى خزر بن يعلى بن زلتاف الوسياني ، وأبى نوح سعيد بن يخلف المزاني وغيرهم ممن سنعرض له كما ذكرنا ان شاء الله .

---

(١) صالح باجيه : المرجع السابق ، ص ١١ ، وانظرحاشية رقم (١) من نفس الصفحة .

(٢) صالح باجيه : نفس المرجع السابق ، ص١١ حاشيه رقم (٢) وأنظر ماذكره البكرى عن نقطه من انه يطلق عليها الكوفه ص ١٢٨

(٣) صالح باجيه : نفس المرجع السابق ، ص١١ ، حاشية رقم (٢)

(٤) صالح باجيه : نفسه ، ص١١

(٥) انظرصالح باجيه : نفسه ص١٢-١٣ (نقلاعن الدرجينى صاحب كتاب طبقات المشائخ) .

طرابلس :

طرابلس اقليم ليبي يشكل مع اقليمي برقة وفزان : دولة ليبيا الحديثة الموحدة ، ويلفظها معظم الجغرافيين والمؤرخين العرب القدامى : أطرابلس [١] ويبدو أن جل العرب والمسلمين قد استسهلوا لفظها هكذا : طرابلس باهمال الهمزه . أما أهلها فانهم يضبطونها أحيانا : طرابُلُساً وطرابُلْس وفي بعض الأحيان يستخدمون : طرابلس أطرابلس كما أطلق عليها المؤرخين والجغرافيين [٢] العرب .

وولاية طرابلس أو الاجزاء الغربية منها (ومنها المدينه) بالتحديد تعتبر باتفاق عدد كبير من المؤرخين والجغرافيين القدامى والمحدثين داخله ضمن مفهوم افريقية (المغرب الأدنى) [٣] وتضم بالاضافة لطرابلس العاصمة مدينتي : لبدة وسبراته ، كما تضم مدينة زويلة أيضا [٤] وطرابلس المدينة متصلة بجبل نفوسه الذى يحيط بمنطقة (مدينة طرابلس الساحلية كالهلال ، ويفصل بينها وبين الصحراوات الجنوبية في فزان وما وراءها . ولهذا تسمى الاقاليم الساحلية المنخفضه من طرابلس بالجفارة والاقاليم

---

(١) أنظر ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ٧١- البكرى : المصدر السابق ، ص ٦، ٧، ٩، ١٠، ٥٨٥ ، ١٨٢- ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٥ ، ٨ ومعظم الصفحات التي ورد فيها ذكر مدينة طرابلس- ياقوت : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٥ - سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦٦ مع الحاشية رقم ٢٢ من نفس الصفحه (نقلا عن ابن خرداذبه صاحب كتاب المسالك والممالك) الطاهر أحمد الزاوى : معجم البلدان الليبية ، ص ٢٣ - ٢٥

(٢) معجم الطاهر أحمد الزاوى : نفس المنرجع اعلاه ص ٢٤

(٣) انظر قبل ص ٣٢، ٣٣

(٤) البكرى : نفس المصدر السابق اعلاه ، ج ٣ ، ص ١٦٠ وهناك في المغرب اكثر من مدينة تعرف بزويلة ، فهناك زويلة السودان مقابل مدينة =

الداخلية المرتفعة بالجبل وبالظهر) . (١)

وجبل نفوسه عبارة عن سلسلةجبال صخرية تمتد من الغرب الى الشرق ، وتبلغ طول مسافته حوالى ٢٠٠ كيلومتر (٢) ، أو نحو ثلاثة أيام كما يقول ابن حوقل (٣) . وقد سمى نفوسه باسم قبيله نفوسه البربرية التى كانت ومازالت تقطنه (٤) . ويحتوى الجبل على عدد من المدن والقرى يأتى على رأسها مدينتا : شروش أو شروس باهمال الرسم ، وكانت عاصمة علمية للاباضية بالجبل ، ثم مدينة جادوا . (٥)

وولاية طرابلس أو ماهو داخل منها في مفهوم افريقية كان بلا نزاع من أهم المركز العلمية الرئيسية في افريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع البحث . واذا ماذهبنا نقيم الدليل على صدق هذه الفحوى ، فان الأدلة لا تعوزنا لحسن الحظ . فلقد تضافرت عدة عوامل ومسببات جعلت من هذه الأجزاء من ولاية طرابلس وخاصة المدينة نفسها ذات أهمية علمية وثقافية .

= اجدابية (في ليبيا الآن) ثم زويلة المهديه التى بناها الخليفة المهدى كما ذكرنا من قبل .
انظر ياقوت : المصدر السابق اعلاه ، ج ٣ ، ص ١٦٠ ،
ويقول ياقوت : نفسه ص ١٦٠ أن هناك محلةوباب في مصر يعرفان بزويلة .

(١) سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص٦٦-٦٧ .
(٢) الطاهر أحمد الزاوى : معجم البلدان الليبية ، ص ٩٧
(٣) صورةالارض ، ص ٩٢ ، وانظر كذلك البكرى ، المصدر السابق ، ص٩
(٤) الطاهر أحمد الزاوى : نفس المرجع اعلاه ، ص ٩٧
(٥) البكرى : نفس المصدر السابق اعلاه والصفحه - ابن حوقل نفس المصدر اعلاه ، ص ٩٢ - ٩٣ - الطاهر أحمد الزاوى : ص ٩٨ .

ولعل أول ما يمكن الاشارة اليه من تلك العوامل ، هو الموقع الوسط لطرابلس(١) بين المشرق والمغرب الاسلاميين . واذا ماقلنا موقع طرابلس ، فان القول لابد أن ينصرف بالضرورة لموقع ليبيا الذى تنتمى اليه . ولقد أتاح لها هذا الموقع دورا ثقافيا مهما . فهي من جهة تيمم وجهها نحو المشرق الاسلامي فتغترف من أدنى أقاليمه لها: مصر الكثير من علومه وآدابه ، وهى من جهة اخرى تولى وجهها كذلك نحو المغرب الاسلامي فتنهل من أدنى عواصمه الثقافية لها : القيروان ، حظا غير يسير من علومه وادابه . وبدهى أن ذلك كان يتم من خلال الرحلات العلمية الى هنا وهناك . وعلى هذا الاساس فان ثقافتها منذ العصر الفينقيى وحتى العصر العربى ذات انتماءات ثلاث : مشرقيه ومغربية ومحلية .

وأيا ماكان الامر ، فان الاشعاع الثقافي للقيروان في العصر الاسلامى وللمغرب عموما ، كان هو الاكثر برزوا ووضوحا في ولاية طرابلس كما يقول عثمان الكعاك. (٢)

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن أهمية موقع ليبيا الوسطى الثقافي ، راجع أحمد مختار عمرو: النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الاسلامي حتى بداية العصر التركى ، ص ٢٨٥ - ٢٩١ - عثمان الكعاك: مراكز الثقافة في المغرب ص ١١٥- ١١٦ صالح مفتاح : برقة وطرابلس من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر (رسالة ماجستير) مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص ٢١٦ - ٢١٨. ((لم تطبع))

(٢) مراكز الثقافة في المغرب ، ص ١١٥- ١١٦.

وقد هيأ الموقع الوسط لطرابلس ولليبيا عموما في العالم الاسلامي دورا علميا اضافيا (١) . فعبر اراضيها ارتحل المئات من علماء وأدباء بقية المغرب والاندلس نحو المشرق الذى كان محط آمالهم بسبب المكانة العلمية التى كان يعيش ذروتها آنذاك ، وعبر اراضيها كذلك ارتحلت مجموعات من علماء وأدباء مشرقيين نحوها في بعض الأحيان ، ونحو بقية المغرب. والأندلس كثيرا تحتوطأة دواعى امنية وسياسية ومصلحية . . الخ .

وفى كلتا الحالتين كانت جموع معظم هؤلاء وأولئك من العلماء والادباء تحط رحلها في ليبيا وفى طرابلس بصفة خاصة مستروح من وعثاء السفر . وقد يطيب المقام ببعضهم فيقيمون فيها بعض الشيء . ولسنا في حاجة الى كبير عناء لنستنتج حدوث تفاعل ثقافى وعلمى مؤثر في كثير من الأحيان ، ومتأثر في آحايين قليلة .

وبالاضافة الى ذلك فان لموقع طرابلس الوسط دور علمى وثقافي ثالث ، وهو وقوعها على طريق الحج (٢) بالنسبة للمغاربة والاندلسيين وقد أتاح لها هذا الافادة من وجود العلماء والأدباء الذين كانوا يحطون بها عصا التسيار مؤقتا في طريقهم لاداء منسكهم وخاصة اولئك الذين كانت سمعاتهم العلمية تسبق اشخاصهم .

---

(١) صالح مفتاح : برقة وطرابلس من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٢) صالح مفتاح ، نفس المرجع اعلاه والصفحات .

وثمة عامل آخر جعل من طرابلس والقطر الليبي عموما بيئة علمية ومركزا ثقافيا مهما ، وهو استيطان الاباضية فيها وفي جبل نفوسه على وجه الخصوص كما ذكرنا . ولذلك فقد سادت الجبل نهضة علمية وثقافية اباضية الملامح والسمات دون شك . والواقع أن ذلك الدور الثقافي لجبل نفوسه ، كان من أهم أدوار الثقافة الاباضية المبكرة ، وقد جاءت تلك الأهمية من أنه قد تأسست فيه ،أى جبل نفوسه أول امامية (١) واباضية ،أولت العلوم وخاصة ما يتفق مع المذهب الاباضى منها رعايتها . واضطلع جبل نفوسه كذلك باثراء الحياة العلمية الاباضية بالعديد من المصنفات المذهبية . وفي هذا الصدد وغيره كان دور جبل نفوسه الثقافي الاباضى أوضح بروزا من دور اقليم الجريد الثقافي الاباضى والدليل على ذلك تركز نسبة كبيرة من علماء الاباضية فيه .

واذا كنا قد ذكرنا من قبل أن جبل نفوسه كان يتبع سياسيا ومذهبيا للدولة الرستمية منذ قيامها وحتى سقوطها ، فان هذا لا يعنى مطلقا ان الجبل كان خاملا ثقافيا ومذهبيا . وقد رأينا قبل قليل مبلغ اسهاماته الثقافية والمذهبية . ويمكن القول أن النهضة العلمية في الجبل كانت توازى على أقل تقدير مثيلتها في الدولة الرستمية في المغرب الأوسط ، وأن جبل نفوسه كان يسهم ثقافيا ومذهبيا في مسيرة الحياة العلمية الرستمية .(٢)

وأخيرا لابد لنا من استعراض بعض الأسماء اللامعة لعلماء وأدباء ولاية طرابلس تحقيقا لما سلف ان رسمناه من منهج تاركين الحديث عن أعمالهم ومجهوداتهم العلمية لموضعه المناسب فيما بعد . ومن بين

---

(١) أنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ،ج ٢ ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٩ - ٣٠٠ ؛ أنظر كذلك ص ٣٢٦ ومابعدهما - صالح مفتاح : برقة وطرابلس من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر ، ص ٥٧ - ٦٧

(٢) انظر مثلا سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق أعلاه والجزء ص ٣٢٦ - ٣٢٨ - ٣٥١ .

أولئك هناك شخصيات عاصرت بواكير النهضة العلمية في طرابلس وافريقية معا ، مثل محمد بن معاوية الحضرمى الطرابلسى الذى رحل الى المدينة وسمع من الامام مالك بن أنس مباشرة . ومثل محمد بن ربيعة الحضرمي الطرابلسى ،الذى قابل مالكا والليث بن سعد وغيرهما . وهناك اسماء أخرى لامعة مثل ابى الاسود موسى بن عبد الرحمن القطان الطرابلسي وأبي الحسن على بن المنمر وعبد الله الشعاب وغيرهم من علماء المالكية ممن سنترجم لهم لاحقا .

أما فيما يتعلق بالمدن الاخرى في الاجزاء الغربية من ولاية طرابلس كصبرانه وليدة وزويله وغيرها ، فان المصادر لا تمدنا للاسف بتفاصيل الحياة العلمية وغاية ماتعرف هو انتساب بعض العلماء لبعضها مثل عبد الرحمن بن محمد الحضرمى اللبيدى ، وأبو عبد الله محمد بن الحسن الزويلى السرتى ، وغيرها .

أما عن علماء الاباضية في جبل نفوسه ، فقد برز واشتهر خلال تلك الفترة موضع اهتمامنا عدد كبير منهم نذكر منهم على سبيل المثال : اسماعيل بن ضرار الغدامسي، ومحمد بن عبد الحميد بن مغطير النفوس ، وعمر بن يمكتن ، ونفّاث بن نصر النفوس ، وعمروس بن فتوح النفوسي ، واخرين غيرهم ممن سنترجم لهم في موضعه بعون من الله .

الفصل الثالـــــث

وسائط الثقافة في افريقيـــــــة

- المساجد : المسجد الجامع بالقيروان - جامع الزيتونـــــه - المساجد الأخرى في مدن افريقية
- الكتاتيب
- الرباطات
- المكتبات العامة والخاصة

وسائط الثقافة في افريقية (المغرب الادنى)

مدخـــل :

اذا كنا في الفقرة السابقة قد أبرزنا دور بعض المدن والأقاليم العلمى والثقافي في افريقية(المغرب الأدنى) ، واذا كنا قد بينا أن المكانة العلمية التى تبوأتها تلك المدن والأقاليم ، انما كانت تعود الى مكانتها الروحية والسياسية ، والمذهبية ،والجغرافية الى غير ذلك فان ماهو خليق بالتنويه هنا هو الاشارة الى أن تلك المكانة العلمية التى حظيت بها تلك المدن سالفة الذكر والتى هيأت تلك الاسباب السابقة لها التطور والانتشار كما تقدم ، كانت تمر عبر قنوات عديدة كفلت لها تلك المكانة . فالمساجد والكتاتيب والرباطات والمكتبات العامة والخاصة وغيرها من القنوات هى التىأبرزت الدورا لعلمى لهذه المدينة أو تلك . ولا يخفى علينا أن تلك القنوات كانت هي الخيار الرئيسى الذى انتشرت عن طريقة العلوم والثقافة الاسلامية والعربية غالبا في العصور الاسلامية وحتى وقت قريب . ونقول غالباً لأن هناك وسائط ثقافية أخرى كقصور وبلاطات الملوك والأمراء ، والمنتديات العلمية في بيوتات الوزراء وعليه القوم ، وفي بيوتات العلماء والأدباء كذلك .

ولعل من يمن الطالع أن تحظى افريقية (المغرب الأدنى) بكل تلك القنوات العلمية ، بل إن بعضها وهى الرباطات مثلاً كانت إحدى الخصوصيات أو السمات الثقافية التى تفوق بها المغرب عن المشرق تقريبا . ولقد تضافرت تلك القنوات ولنسمها منذ الآن الوسائط في تقدم الحياة العلمية في افريقية المغرب الأدنى" في الفترة موضع اهتمامنا حسبما سنوضح أبعادها بعدإن شاء الله .

١- المساجـــد :

لعل من قبيل القول المكرر المعاد الإشارة الـــــــى أن المساجد والجوامع في العالم الاسلامي كافة كانت وماتزال ذات رسالـة تعبدية وعلمية خالدة . ومنذ أن وضع الرسول صلى الله عليه وسلـــم ، أساس مسجده بالمدينة المنورة ، إضطلعت المساجد ولا تزال بهذيـــن الدورين الاساسيين : التعبدى والعلمى في المقام الأول ، كما أن مـــن نافلة القول أيضاً الإشارة إلى أن المسجد كان في العصور الاسلاميـــة الأولى وحتى وقت قريب المقر الذى تُناقش فيه قضايا ومشكلات المسلميـــن السياسية والأمنية والعسكرية وغيرها .

ومساجد وجوامع افريقية (المغرب الأدنى) لم تكن بدعـــا في هذا ، فبجانب رسالتها التعبديه ، مافتئت تعمل طوال الفترة الزمنية موضوع الرسالة - وهو مايهمنا - على الوفاء برسالاتها ووظائفها الأخـــرى العلمية والثقافية والاجتماعية والسياسية . . الخ واذا كنا لسنا بصـــدد تناول أدوارها التعبدية والاجتماعية وغير ذلك ، فإن مانود أن نبســـط الحديث عنه هو الدور العلمى والثقافي الذى إضطلعت به .

المسجد الجامع بالقيروان :-

لا يختلف إثنان في التأكيد على أهمية المسجد الجامع بالقيروان ، أو جامع عقبة بن نافع نسبة لمؤسسه كما يطلق عليه أيضا ، ليس في أفريقية (المغرب الأدنى) فحسب ، بل وفي المغرب كله وتأتى أهميته تلك من كونه أقدم مسجد في المغرب كله والاندلس هذا من جهة ومن أهميته العلمية والثقافية من جهة ثانيه ومن ثم أهمية معالمة المعمارية الاسلامية من جهة ثالثة ، وبطبيعة الحال فان مايهمنا هنا هو الاشارة الى دوره العلمى والثقافي في افريقية .

وكما احيطت القيروان بالاجلال والتبجيل العميقين من قبل المغاربة بصفة عامة وأهل المغرب الأدنى بصفة خاصة والقيروانيين بصفة أخص ، فقد أحيط جامع عقبة بن نافع كذلك بكل مظاهر ذلك الاجلال والتبجيل وما من ريب في أن مشاركة عقبة بن نافع وعدد من الصحابة والتابعين في تخطيط المسجد وتحديد قبلته هو الذى أضفى على المدينة والمسجد في نظر المغاربة طابعاً دينياً عميقاً .

ولذلك فليس عجيبا أن نرى المدينه تستهوى الأفئدة والنفوس، وأن يستهوى جامعها الاكبر بقدر أكبر واعظم تلك الافئدة والنفوس .

وكيفما كان الأمر ، فان الشيء الذى لا مراء فيه هو أن جامع عقبة بن نافع كان قلب القيروان النابض بالحياة، وكان عقلها المفكر أيضا على الأقل في الفترة الزمنية موضوع الرسالة . فإلى جانب دوره الدينى العلمى والثقافي ، كان دوره السياسي والاجتماعي خطيراً . وتاريخ مدينة القيروان إرتبط فيما يتراءى لى في أدق وأعظم بمسجدها الكبير .

ومنذ اللحظات الأولى لتخطيطه شرع مسجد عقبة بن نافع يمارس دوره العلمي والثقافي بجانب وظيفته التعبدية . وكم هي صادقة تلك العبارة التي فاه بها عبدالهادي التازي في كتابه : جامع القرويين [1] سالف الذكر عندما كان يتحدث عن مدينة فاس وجامعها القرويين ، فهو يقول : (يخيل الى أنه عندما يسأل المرء عن الوقت الذي بدأت فيه دراسة العلم بالقرويين فكأنما يسأل عن الوقت الذي بدأت الصلاة فيها ، لأن تلك من هذه لا فرق بينهما إطلاقاً في نظر الاسلام) . وبقدر ما في هذه العبارة من مصداقية ، فانها لا تخص جامع القرويين وحده ، وانما هي عامة لكل الجوامع الكبرى ، بل ومساجد العالم الاسلامي كافة . أو لم يكن المسجد هو الجامعة ، والمدرسة التي تعلم وتثقف وترشد ، وتنير؟ ان الأمثلة على هذا مبسوطه شائعة لا سبيل لتتبعها من فرط شيوعها ، وجامع عقبة بن نافع لم يكن بدعاً في هذا ، فهو الجامع الذي خطه القائد عقبة وعدد من الصحابة والتابعين الذين دخلوا افريقية ، وبثوا فيها حلقات العلم والمعرفة .

ولئن سكتت المصادر عن التصريح بأسماء التابعين الذين ألقوا دروسهم الدينيه في جامع القيروان الأعظم (فيما عدا عكرمه مولى ابن عباس) [2] فإن من غير المعقول ألاّ نعتقد أن أولئك التابعين وخاصة أعضاء البعثة العلمية التي أرسلها عمر بن عبد العزيز الى افريقية كانوا يلقون علومهم ومعارفهم فيه . وعلى الرغم من أن اغلب المصادر

---

(١) الجزء الأول ، ص ١٠٨

(٢) عن تصدي عكرمة للتدريس والإقراء في المسجد الجامع بالقيروان ، أنظر قبل ص ١٠٨

التى أرّخت لتلك الفترة قد أشارت الى أن أعضاء تلك البعثة كانوا يلقون دروسهم في المساجد الأخرى التى أسسوها في القيروان [١] فإننا لا نرى ما يحول بينهم وبين التصدر للتدريس في اكبر الجوامع وأولها لا في القيروان وافريقية فحسب، بل في المغرب كله والأندلس .

ونفس الأمر يمكننا باطمئنان أن نعمّمه على غير أعضاء البعثة العلمية المذكورة من التابعين الذين تقاطروا على افريقية والمغرب والذين اشارت المصادر والمراجع الى دورهم العلمى الملحوظ في التعليم والتثقيف [٢] .

وما يقال عن جموع التابعين ، سواء أكانوا من أعضاء البعثة المذكورة ، أم غيرهم ، يمكن أن يقال عن الكثرة الكاثرة من علماء القيروان الذين ولدوا وترعرعوا فيها كما يمكن أن يقال عن أولئك الذين وفدوا اليها من بقية مدن افريقية أو المغرب والأندلس أو المشرق منذ مطلع القرن الثاني الهجرى ، فمعظمهم كانوا يتخذون من الجامع الأعظم حلقة للتدريس.

ولقد أورد الدباغ في معالمه [٣] إشارة مهمة جدا تؤكد ما ذهبنا إليه من إحتواء جامع عقبة بن نافع على السواد الأكبر من العلماء المحليين والوافدين . فقد روى حديثا لأحد علماء وقضاة القيروان المبرزين ، وهو القاضى عبد الله بن غانم (ت. ١٩٠ هـ)

---

(١) المالكى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٤-٦٥ - الدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٢٠٢٧

(٢) أنظر ابو العرب التميمى : المصدر السابق ، ص ٢١-٢٦ - المالكى : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ٧٧- ٨٩ الدباغ نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص .

(٣) الجزء الاول ، ص ٣١٠.

الذى عاصر الولاة العباسيين وبالتحديد الهالية منهم ، ثم عاصر قيام الدولة الأغلبية ومؤسسها ابراهيم بن الأغلب يتلخص بأنه (إنصرف يوماً من جامع القيروان الأعظم بعد صلاة الجمعة ، فدخل عليه بعض أصحابه ، فسأله ابن غانم : حضرتاليوم الجامع؟ قال : نعم ، قال : كيف رأيت ؟ قال : رأيت أصلحك الله به سبعين فلنسوة تصلح للقضاء ، وثلاثمائة قلنسوه فقيه ، فترجّع ابن غانم وقال : مات الناس ( )

وحديث ابن غانم هذا مهم من ناحيتين : أولاهما تدلنا دلالة واضحةعلى أن جامع القيروان قد شهد قبل ذلك أعداد كبيرة من القضاء والفقهاء والعلماء الذين لازموا أساطينه وأروقته وأنهم بلغوا من القلة في عهد ابن غانم حداً جعله يتحسر ويتألمويقول عبارته تلك : مات الناس وثانيهما أن في العدد الذى ذكره الرجل لابن غانم من العلماء والفقهاء في عصره الدليل على مكانة جامع القيروان ، رغم أنه لا يرقى الى ماعهده وعلمه ابن غانم من قبل .

ومع تنامى مكانة القيروان السياسيةوالثقافية والعلمية ، تنامت أهمية جامعها الأعظم . فقد قصده العلماء من كل حدب وصوب يلقون فيه دروسهم ويحلّقون فيه الحلقات مع تلامذتهم . ولقد تصدى هؤلاء العلماء للإقراء والتدريس في الجامع الأعظم منذ القرن الثانى الهجرى وحتى قيام الدولة الفاطمية عام ٢٩٦هـ حين فضّل أكثر علماء المالكية ترك التدريس في الجامع مرغمين نظراً للإختلاف المذهبى مع الشيعة ، وإقتصارهم على بيوتهم ومساجدهم ، بل واحياناً حوانيتهم ومصدر رزقهم(١) . فالقاضى عياض يروىفي مداركه(٢)

---

(١) أنظرفي هذا الشأن : حسن حسنى عبدالوهاب: الورقات القسم الأول ، ص١٠٨ .

(٢) الجزء الثانى ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

عن العالم القيرواني جبلة بن حمود بن عبد الرحمن الصدفي (٢١٠ - ٢٩٩هـ) . وموقفه من الفاطميين مانصه : (قال الفقيه ابن سعدون القروي : لما دخل عبيد الله الشيعي القيرواني، وخطب أول جمعه ، وجبله حاضر ، فلما سمع كفرهم قام قائماً وكشف عن رأسه حتى رآه الناس، وخرج يمشي الى آخر الجامع ويقول : قطعوها قطعهم الله ، فما حضرها أحد من أهل العلم بعد هذا) . وهذا الموقف وإن كان متعلقاً بصلاة الجمعة إلاّ أننا نعتقد أن علماء المالكية قد تركوا حضور الجامع بالكلية مرغمين .

ودليل آخر يرويه لنا القاضي عياض أيضاً في مداركه (١) ، وهو قوله (كان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد في حالة شديدة من الاهتضام والتستر كأنهم ذِمّة تجرى عليهم في كثرة الأيام محنٌ شديدة . .) وهذا القول ينطبق بالدرجة الاولى على علماء القيروان فضلاً عن عامتهم . ويورد الدباغ معالمه (٢) موقفاً ثالثاً وهو أن ربيع القطان وهو أحد علماء السنة المالكية الذين وقفوا من الشيعة موقفاً متشدداً كان يلتزم الإقراء في حانوته الذي يبيع فيه القطن ، حيث يقدم عليه الطلبة وغيرهم من الذين يستشكل عليهم شأن من شؤون الفقه .

بيد أن بقية المعارف غير العقائدية والمذهبية كعلوم اللغة العربية والنحو وغيرها لم ينقطع تحصيلها عن الجامع فقد واصل علماؤها التدريس في الجامع الأعظم . (٣)

---

(١) الجزء الثاني ، ص ٣١٨ ، ٣١٩

(٢) الجزء الثالث ، ص ٢٩ - ٣٠

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ١٠٨

ولعل من تحصيل الحاصل الإشارة هنا تأسيساً على ما ألمعنا اليه من إيضاح لدور الجامع العلمي والثقافي الى أن العلوم الدينيه بكافة فروعها من فقه وحديث وقراءات وعقائد كانت هي التي صبغت دور الجامع العلمي والثقافي . ولعل علوم اللغة العربية في تصورنا تأتي في المقام الثاني . أما بقية العلوم والمعارف الأخرى ، فانه لم يتسن لنا معرفة نشاطاتها في الجامع الأعظم نظراً لغياب التنويه الصريح على ذلك في الكتب التي تناولت مسيرة تلك العلوم في المغرب الأدنى خلال الفترة موضوع الرسالة .

ومادمنا بصدد الحديث عن الجو العلمي الذي كان يشيع بين جنبات الجامع الأعظم ، فان مما يقتضيه السياق هنا ، هو الاشارة الى أن الجامع كان مقراً وموئلا للقضاة وخاصة قضاة المالكية ، ففيه وفي ساحاته كانت تقضى الاحكام وتفض المنازعات بين الخصوم. (١)

ولقد شهد الجامع أيضا في الفترة التي نشبت فيها المجادلات الكلاميه بين أتباع المذاهب والفرق المختلفة توافد أعداد من أتباع تلك الفرق اليه ، مما حدا بعلماء المالكية الى التصدى لهم بقوة. (٢) ولقد حدت تلك التجمعات بعالم القيروان الأشهر وقاضيها المبرز سحنون بن سعيد الى تفريق حلقاتهم عن الجامع. (٣)

---

(١) على سبيل المثال أنظر المالكي: المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٨ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٩٢-١٩٣ ، ٢٧٦ ، ٢٨٤ ، ٣٠٧ .. الخ .

(٢) أنظر المالكي : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ١٨٢- عياض : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٧٤ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٢٧٦- ٢٧٧- عياض ، نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٦٠٠ .

وعند ما قامت الخلافة الفاطمية في افريقية (المغرب الأدنى)، جهدوا في بداية الأمر على أن يجعلوا من الجامع الأعظم منبراً يوضّحون فيه موقفهم وأصول دعوتهم بل ويمارسون فيه تطبيق تلك الأصول سواء أكان ذلك فيما يتعلق بصيغة الآذان المختلفة عما تأخذ به المذاهب السنيه أم عن طريق منع صلاة التراويح حسبما سنفصله بعد في موضعه[1] إن شاء الله، ولقد دفع هذا الأمر علماء وفقهاء المالكية وهم الغالبية العظمى لعلماء السنة الى اعتزال الصلاة في المسجد الجامع وخاصة صلاة الجمعة. وعند ما نشبت الثورة ضد الفاطميين في المغرب الأدنى بزعامة أبى يزيد مخلد بن كيداد اليغرني، انضمت اليه جموع حاشدة من أهل السنة بقيادة أبرز علماء المالكية وقتها، وقد رغب هؤلاء أن يعلنوا عن موقفهم المؤيد لابى يزيد من على منبر الجامع الأعظم وهو ما تحقق لهم بالفعل. ومن منبر جامع القيروان نفسه أعلن علماء المالكية تبرؤهم من دعوة أبى يزيد ومناصرته عند ما تكشفت لهم نواياه واتجاهاته الخارجية التى كان يضمرها.[2]

ولم يكتف علماء المالكية باعلان مواقفهم من الشيعة وأبى يزيد مخلد من على منبر الجامع الأعظم فحسب، بل وعارضوا كل

---

(١) أبو العرب التميمى: كتاب المحن، ص ٢٩٤ - ٢٩٥- المالكى: المصدر السابق، الجزء الثانى، ص ٣١ - ٣٣- ٤٣ - ابن ابى دينار: المصدر السابق، ص ٥٥ ومابعدها حسن حسنى عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ص ٩٥ - ٩٦. ولمزيد من المعلومات عن هذه الممارسات أنظر بعد ص ٥٢١-٥٢٢

(٢) أنظر عياض: المصدر السابق الجزء الثانى، ص ٣١٨-٣٢١.

إتجاه يرمى الى التفريق في النظرة بين فرق الشيعة ، فعندما سئل أحد علمائهم - أى علماء المالكية - المعروفين وهو أبو اسحاق ابراهيم بن حسن التونسى في عهد المعز بن باديس الصنهاجي عن رأية في الشيعة ، أجاب بجواب أثار زملاءه من العلماء ، فطلبوا منه التبروء من موقفه علانيةً من على منبر الجامع الأعظم (١) بالقيروان .

واضافة الى هذا وذاك فقد غصّ المسجد الجامع بجانب العلماء والفقهاء واللغويين وغيرهم برهطٍ من العباد والزهاد الذين كان لهم شأو كبير في افريقية (المغرب الأدنى) . وليس بعيداً أن يمارس هؤلاء دوراً علمياً وثقافياً حتى ولو كان ضئيلا . (٢)

أما وقد تهيأ لنا إبراز كثير من جوانب دور الجامع الأعظم العلمى والثقافي ، فانه يجدر بنا أن نختتم الحديث عن الجامع بذكر بعض من صرحت المصادر والمراجع بتصديهم للتعليم والتدريس فيه . فالى جانب عكرمه مولى بن عباس الذى أشرنا من قبل الى دوره العلمى بالجامع ، هناك عدد من الفقهاء الذين وردت أسماؤهم صراحة ، فمن هؤلاء يزيد بن الطفيل أحد علماء القيروان المتقدمين ، ويذكر المالكى (٣) أنه كانت له حلقه عظيمه بالمسجد الأعظم . ومنهم كذلك أسد بن الفرات بن سنان أحد أبرز علماء القيروان آنذاك (٤).

---

(١) عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٧٦٦-٧٦٧

(٢) المالكى : المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ١٢٨ ، ١٣٠-١٣١ ، ٢١٦ ، ٢٣٣ ، ٣٩٨ .

(٣) المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ١١٠

(٤) أنظر المالكى : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ١٨٢- عياض: المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

وأبوجعفر موسى بن معاوية الصمادحي الذى كان يفتى في جامع القيروان أزيد من ثلاثين عاما [١] . ومن العلماء الذين درسوا في المساجد الجامع : أبو الوليد مروان بن أبى شُحمة المسيلى الأفريقى[٢]، ثم العالم المشهور : يحيى بن عمر بن يوسف الأندلسي وقد ذكر (أنه كان ليحيى بن عمر كرسى في الجامع للسماع ، فيجلس عليه ويسمع عليه الناس لكثرتهم) [٣] . ومن الفقهاء المتأخرين أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الله المالكى صاحب كتاب: رياض النفوس ، فقد كان له مجلس بالجامع الأعظم يجتمع اليه فيه ويسمع كلامه) [٤]

ومن علماء الحديث ، يرد اسم ربيع بن سليمان القطان ، كأحد علماء الحديث الذين كانت لهم حلقة بجامع القيروان ومن علماء القراءات ، ابن برغوث المغربى الذى أمره احد قضاة القيروان

---

(١) المالكى : المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ٢٩٠-
عياض : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٤٠٦

(٢) المالكى نفسه ص٣٠٣- ٣٠٤

(٣) المالكى : نمفسه ، ص ٣٩٨ - عياض : نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٦ - الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٣- ٢٤٥ - محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ٧٣

(٤) أنظر المالكى : نفسه ، المقدمة التى كتبها المحقق ، ص ٤٣ه
عياض: نفسه ج ٢ ، ص٣٢٣-٣٢٥ - الداودى : طبقات المفسرين الجزء الاول ، ص ١٧٠- ١٧١ - محمد بن محمد مخلوف: نفس المصدر السابق . ص ٧١ .

آنذاك ،وهو : عبدالله احمد بن طالب الذى سنترجم لـــــــه من بعد ألاّ يقرئ الناس الابحرف نافع [١] . وكذلك منهم : ربيـــع بن سليمان القطان الذى مرينا ذكره قبل قليل . ومنهم ايضـــا : أبو بكر القصرى امام جامع القيروان . [٢]

أما في اللغة والأدب فيأتى من علمائهم ابو عبدالله محمـــد بن جعفر التميمى المعروف بابن القزاز القيروانى كواحد من أشهـــر علماءاللغة الذين تتلمذوا في المسجد الجامع على يد شيوخ اللغـــه والأدب . ثم علت به همته بعد أن اشتد عوده الى التصدى للتدريس تحت سوارى المسجد الجامع [٣] ومنهم أيضا الأديب الشاعر المشهور : بكر بن حماد [٤] بن كلّب الزناتى التاهرتى الذى تصدر لاملاء دروسه في العلم والأدب بجامع القيروان الاعظم.

---

(١) المالكى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧٨

(٢) ابن الجزرى : غاية النهاية في طبقات القراء ، عنى بنشره ج . برجستراسر ، الجزء الاول ، ص ١٨٥ ، ٢١١

(٣) أنظر المنجى الكعبى : القزاز القيروانى حياته وآثاره ص ١٦- ١٩ .

(٤) عادل نويهض : معجم اعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى منتصف القرن العشرين ، ص ٥٤- ٥٥ (نقلا عن كثير من المصادر والمراجع) .

جامع الزيتونه بتونس :

وكما كانت مدينة تونس تأتى في المرتبةالثانية من الأهمية بعد القيروان في افريقية (المغرب الأدنى) خلال الفترة موضوع البحث، فان جامعها الأعظم : الزيتونه يحل كذلك ثانيا بعد جامع القيروان الأعظم . وجامع تونس الأعظم المعروف بالزيتونه يعود فضل تأسيسه الى الوالى الأموى المعروف عبيدالله بن الحبحاب (١١٦- ١٢٣هـ/ ٧٣٤/ ٧٤١م) علىالأرجح . ونقول على الأرجح لأن هناك منالمؤرخين القدامى والباحثين المحدثين اليوم من ينسب بناء الجامع الأعظم الى القائد حسانبن النعمان الغسانى [1] ، ويذكرون أن الذى جدده وزاد فيه هو: عبيدالله بن الحبحاب . بل ورد أيضا أن زيادةالله بن الأغلب هو الذى بنىجامع الزيتونه .[2]

---

(١) أنظر ابن ابى دينار: المصدر السابق ، ص ١٦- ١٧ . ويستبعد ابنابى دينار أن الجامع لم يبن الا في عهد عبيدالله بن الحبحاب . ويتساءل كيف يمكن للمسلمين أن يمكثوا نيفا وثلاثين عاما بغير مسجد ؟ ولذلك فهو يعتقد بأن المسجد بنى في عهد حسان ، ثم زيد فيه وفي ضخامته من قبل بدالله بن الحبحاب ، وبذلك يرى أن الاشكال قد زال حول هذا الأمر . والواقع أن ابنأبي دينار قدأشار الى جانب ذلك الى الاقوال التى قالت بأن بأني الجامع هو عبيد الله بن الحبحاب ، ولكنه يبدو أنه أراد الجمع بين الرأيين أى أن الجامع ربما يكون من بناء حسان بن النعمان ، والزيادة والتوسعة من نصيب عبيدالله بن الحبحاب . ومن الباحثين القلائل الذين تناولوا هذا الموضوع ، سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٢ (حيث ينسب بناء الجامع لحسان والزيادة لعبيدالله بنالحبحاب) - محمد الحسينى عبدالعزيز : الحياة العلمية فيالدولة الاسلامية ص١٣٦

(٢) أنظر ابنابى دينار: نفس المصدر السابق ، ص١٢ (نقلا عن ابن ناجى مكمل ومعلق كتاب معالم الايمان)- السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق ، ص١٥٣ (نقلا عن النويرى في نهاية الارب) .

وتردد كذلك أن أحمد بن محمد بن الأغلب هو الذى بناه.(١)

بيد أن كثيراً من المصادر التاريخيه المتقدمة- وجل المراجع الحديثة-، تشير صراحة الى أن بانى الجامع هو : عبيد الله بن الحبحاب(٢)، أما حسان بن النعمان الذى يعود فضله تأسيس مدينة تونس إليه فقد بنى مسجدا صغيرا (٣) بها ، ثم مالبث أن بنى المسجد الجامع بالقرب منه بعد ذلك.

على أن بعض المصادر التاريخيه وان كانت قد أشارت الى أن ابن الحبحاب هو الذى بنى المسجد الجامع الا أنها قد أوردت خطأً أن تأسيسه كان عام : ١١٤هـ (٤). ولكن الواقع التاريخى ينكر ذلك ، فالجامع لم يبن الا فى عام : ١١٦هـ أوبعده ذلك لأن عبيد الله بن الحبحاب لم يقدم افريقيه والياً من قبل

---

(١) أنظر الدباغ : المصدر السابق ، الجزء الثانى ، حاشية رقم (٢) ص١٤٨ (وقد علق المحققان على ذلك بقولهما : ان الأمير احمد بن محمد بن الأغلب قد جدده بعمده وقبابه)

(٢) أنظر الرقيق القيروانى : المصدر السابق ، ص١٠٧- البكرى : المصدر السابق ، ص٢٣٧ - ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ص٥١ - ابن ابى الضياف : المصدر السابق ، ج١ ، ص١١٢- السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص٣٥١-٣٥٢ - سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٨٠ (وهذا خلاف قوله السابق في ص١٠٢) - وأنظر الكتاب الذى أصدرته وزارة التعليم العالى والبحث العلمى الكلية الزيتونيه للشريعة وأصول الدين بمناسبة ذكرى مرور ثلاثة عشر قرنا على تأسيس الزيتونه ، الفصل الذى كتبه الشيخ محمد الشاذلى النيفر بعنوان : جامع الزيتونه في تاريخ تأسيسه ، ص١٣ -١٥ (حيث أثبتت من نفر كبير من المؤرخين القدامى والمحدثين أن بانى الجامع هو عبيد الله بن الحبحاب)

(٣) أنظر الفصل الذى كتبه الشيخ محمد الشاذلى النيفر في الكتاب الذى أصدرته وزارة التعليم العالى والبحث العلمى التونسية المشار اليه أعلاه ص١٤-١٥.

(٤) انظر البكرى : نفس المصدر السابق ، ص٣٧ - ابن ابى دينار : نفسه ص٩-١١-١٦، ١٧ (نقلا عن مجموعة من المؤرخين) - محمد الحسينى عبد العزيز - نفس المرجع اعلاه ص١٣٦.

الخليفة هشام بن عبد الملك الا في عام : ١١٦هـ[1] ، وذلك خلفا للوالي السابق عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (١١٠- ١١٥هـ - ٧٢٨- ٧٣٣م) . ومن الطبيعي اذا أن يكون تأسيس المسجد الجامع بعد قدومه الى افريقية . ويرى احد الباحثين المحدثين ،أنه كانت لعبيد الله بن الحبحاب أهداف سياسية ودينيه وعلميه في اتخاذه مدينة تونس العاصمة ، وبناء جامعها العتيق . [2]

ويميل الشاذلي [3] النيفر الى أن تسمية المسجد الجامع بتونس بالزيتونه ، هي تسمية محدثةوقعت في القرن السابع الهجري أي في عهد الدولة الحفصية التي حكمت المغرب الأدنى إبتداءاً من الثلث الأول من القرن السابع الهجرى وحتى القرن العاشر الهجري ومنذ ذلك التاريخ أصبح الجامع يعرف بجامع الزيتونه حتى يومنا هذا .

---

(١) أنظر مثلا ابن الا ثير : الكامل في التاريخ ، الجزء الرابع، ص ٢١٩- الرقيق القيروانى : المصدر السابق ، ص ١٠٧- ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص٥١ - سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ،ج ١ ، ص٢٧٨- كتاب وزارة التعليم العالي والبحث العلمى التونسيه - ذكرى مرور ثلاثة عشر قرنا على تأسيس الزيتونه ، ص ١٥-١٦ .

(٢) ذكرى مرور ثلاثة عشر قرنا على تأسيس الزيتونه ،الفصل الذى كتبه محمد الشاذلى النيفر بعنوان : جامع الزيتونه في تاريخ تأسيسه ، ص ٢١ .

(٣) أنظر الفصل السابق اعلاه من الكتاب، ص ٢٢- ٢٩ (حيث أكد على أن كل المصادر التى ذكرت جامع تونس الكبير لم تلصق به لفظ : الزيتونه ، بل كانتتطلق عليه جامع تونس أومسجد جامع تونس، أوجامع مدينة تونس أو المسجد الجامع . ولكن منذ القرن السابع الهجرى بدأ يطلق عليه جامع الزيتونه حتى الان ، أى منذ العهد الحفصى حتى الآن .

أما لفظ الزيتونه نفسه الذى أُلصق بالجامع ، فقد ورد فيه عدة تفسيرات تغلف الاسطورة بعضها ، ومن ذلك ماقيل من أن النبى نوح عليه السلام (لماكان في السفينه على الطوفان وقفت به يوماً وسط البحر : فأوحى اللهاليه أن تلك بقعة يقال لها : جامع الزيتونه ، فلما دخلها الصحابة (أى مدينة تونس) وجدو الرهبان في صومعتها ، لأن صومعة الجامع قديما كانت للرهبان) [١] وينقل ابن ابى دينار[٢] عن ابن الشباط التوزرى صاحب كتاب : صلة السمط أن المسلمين وجدوا زيتونه منفردة في موضع المسجد ، فقالوا : هذه تونس ، وسمى المسجد بجامع الزيتونه) . أما السيد عبدالعزيز سالم[٣] فيذكر أنه سمى بجامع الزيتونه نسبةً الى القديسة : زيتونه التى عاشت في زمن الوندال ، ونحن لانرى فيما ذهب اليه الشاذلى النيفر من رأى مايدفع الى تجاهله . فهو يقول إن سبب التسمية : الزيتونه ربما يعود الى ما اشتهرت به البلاد التونسية من كثرة اشجار الزيتون التى تشكل أهمية غذائية للسكان ، ومن هنا تفاءلوا بتسمية مسجدهم بمسجد الزيتونه. [٤] ومما يجدر ذكره أن هناك مسجدا آخر يعرف بجامع الزيتونه ، ولكنه في القيروان وليس في تونس [٥] ، وقد كان له دور ثقافى وعلمى رصدته كتب التراجم والطبقات. [٦]

---

(١) أنظر محمد الشاذلى النيفر: نفس الفصل السابق ، ص ٢٢

(٢) المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، ص ١٠

(٣) تاريخ المغرب في العصر الاسلامى ، ص ١٦٣

(٤) الفصل السابق من كتاب ذكرى مرور ثلاثة عشر قرناً على تأسيس الزيتونه ، ص ٢٦٥

(٥) انظر مثلا المالكى : المصدر السابق ،ج ١ ، ص ٧٠ (حيث يشير الى أن اسماعيل بن عبيد الانصارى احد التابعين من اعضاء البعثة العلمية التى ارسلها عمر بن عبدالعزيز الى افريقية قد بنى بها المسجد الكبير بالقيروان الذى يعرف الآن (أى فيعصر المالكى) بمسجد الزيتونه) الكنانى القيروانى المصدر السابق ، ص٤٦ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٢٩ ، ١٤٢ ، ١٦٣ ، ٢٣٣.

(٦) أنظر الكنانى القيروانى : نفس المصدر السابق اعلاه والصفحات.

احتل جامع الزيتونه في نفوس المغاربة بصفة عامة وأهل المغرب الأدني بصفة خاصة والتونسيين بصفة أخص مكانة سامقة الذرى تضاءلت معها مكانه جامع القيروان الأعظم - حاشا الدينيه - نفسه . ذلك لأن الجامع ومنذ أن وضع أساسه وحتى الوقت الحاضر مابرح يضطلع بدوره العلمي والثقافي الريادي لا ينافسه في هذا من المؤسسات العلمية القائمة سوى الجامع الازهر بمصر والقرويين بالمغرب . ولئن تعثرت خطوات جامع القيروان العلمية بعد تعثر واقعها السياسي الذي نتج عن الزحف الهلالي على افريقية كما هو معلوم . فإن جامع الزيتونه باتمنفرداً بالاضطلاع بالدور الثقافي والعلمي الريادي وحده هناك . فغدا محط الانظار ومهوى الأفئدة ، وكيف لا ؟ وهو الجامع المعمور (الذي إمتد إشعاعه ، وخفق نوره ، وتواصل مده ، فكان كعبة القصاد وأمل الرحالين ، وذخر الاسلام وعلومه ، بالنسبة للمغرب العربي ، وعدد من أقطار القارة الافريقية)[1] ؟ وليس بدعاً بعد هذا أن (تتصل حياة الزيتونه بحياة تونس إتصالاً وثيقاً وترتبط حياتها بشتى نواحي الحياة فيها ، ثقافية كانت أو اجتماعية أو سياسية)[2] ومن أجل ذلك (كان تعلق الامة التونسية بها تعلقاً جعلها ملء المسامع والأفواه والمقل عند التونسيين بدون تفرقة بين صنف وصنف ، فهي متجه الأنظار ومطمح الافكار وقبله الوارد ين لمنهل المعارف) .[3]

---

(١) الطاهر المعموري : جامع الزيتونه ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي ص٣

(٢) الطاهر المعموري : نفس المرجع والصفحه اعلاه .

(٣) محمد الشاذلي النيفر : نفس الفصل السابق من كتاب وزارة التعليم العالي التونسية ، ص ٨ .

هذه المكانة العلمية الكبرى التى وصل اليها الجامع الأعظم بتونس يجب الا تصرفنا عن الحقيقة والواقع التاريخى فهذه المكانة لم تأت الا متأخرة . فجامع الزيتونه لم يقدر له في الفترة موضوع الرسالة أن يتبوأ دوره العلمى الريادى الذى تتميز به والذى أشرنا اليه آنفاً كاملاً وغير خاف أن هناك أسباباً حالت دون ذلك . لعل من أهمها وأكدها أن مدينة تونس وجامعها الأكبر لم يحظيا من أهل المغرب الادنى بنفس الحظوة التى بلغتها القيروان وجامعها العتيق . والسبب الثانى أن مدينة تونس لم تتسم دورها السياسى كعاصمة الا بعد إنهيار الوحدة المركزية للمغرب الأدنى إثر الزحف الهلالى الذى قلص الدولة الصنهاجية وحجمها ، وذلك عندما إتخذها الخراسانيون (١) وهم أسرة إنفصالية خرجت على الصنهاجيين عاصمة ، ثم جاء الحفصيون بعدهم ، فكرسوا المدينة قاعدة وعاصمة للبلاد التونسية حيث لا تزال كذلك حتى اليوم ، ولسنا هنا في حاجة الى القول بأن الجامع قد ناله من هذا القدر الأسمى . وثمة سبب آخر ، وهو فى الحقيقة قدر مشترك بين جامعى القيروان وتونس، وهو أن المصادر التاريخية وكتب التراجم والطبقات لم تسعفنا في الاشارة الى النشاط العلمى بالجامعين الا قليلا ، على الأقل في الفترة موضوع الرسالة . غير أن النشاط العلمى بجامع الزيتونه مالبث أن نال حقه من الاشارة منذ القرن السابع الهجرى وحتى الآن في معظم كتب التاريخ والتراجم والأدب مما لا حاجة لنا هنا الى تبيانه وابرازه .

---

(١) عن هذه الاسرة ، أنظر ابن عذارى ، المصدر السابق والجزء ص ٣١٤ - ٣١٥ .

بيد أنه وعلى الرغم من عظم تأثير تلك الأسباب سالفة الذكر في الحركة العلمية للمدينة والجامع، فإن من غير المنطقي أن نجرد المدينة وجامعها العتيق من أى نشاط علمي ملحوظ . أما المدينة فلقد سبق لنا أن تحدثنا عن مكانتها العلمية ، وأما الجامع فإننا نتفق مع الطاهر[1] المعمورى في أنه يعسر أن نتصور خلوه من حلقات العلم .

ذلك لأنه استقر بمدينة تونس عدد لا بأس به من التابعين الذين قدموا افريقية للتعليم والتدريس بجانب تصديهم للجهاد في سبيل الله . ومن الطبيعى أن ينشر أولئك العلماء علومهم ومعارفهم الدينيه بين أبناء المدينة وغيرهم من القادمين والوافدين اليها ، حتى إذا مابنى جامعها ، التحقوا به يلقون دروسهم الدينيه وغيرها . ومن الطبيعى كذلك أن تحظى المدينة إثر ذلك بأجيال من أبنائها الذين قدر لهم أن يصبحوا علماء وفقهاء ، بالاضافة الى الوافدين من العلماء والفقهاء اليها من بقية مدن افريقية أو من المغرب أو المشرق الاسلاميين .

ويحسن بنا قبل أن نختتم الحديث عن جامع الزيتونة أن نشير الى أسماء بعض العلماء الذين ألقوا فيه دروسهم من الذين نُصّ صراحة في كتب التراجم عن دورهم ذلك والى أولئك الذين يظن أنهم قد تصدوا للتدريس فيه أيضا . فمن التابعين الذين سكنوا مدينة تونس وأثرا الحياة العلمية فيها : أبو محمد : خالد بن أبى عمران التجيبى[2] ، وقد توفى بمدينة تونس عام : ١٢٥هـ ، أو ١٢٧هـ ،

---

(١) جامع الزيتونه ، ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركى ص ٤٩ .

(٢) أبو العرب التميمي : المصدر السابق ، ص ٢٥ ، ٢٤٥ - ٢٤٧ - المالكى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٣ - حسن حسنى عبد الوهاب : المرجع السابق ، القسم الاول ، ص ١٢٥-١٢٦ .

و منهم أبو كريب : جميل بن كريب [١] المعافرى ، وقد تولى القضاء في افريقية ، وكان من سكان مدينة تونس وتوفى عام ١٣٩هـ ، ومنهم كذلك يحيى بن سعيد بن قيس الأنصارى ، ويروى محمد بن حارث الخشنى صاحب كتاب طبقات علماء تونس المدرج ضمن كتاب طبقات [٢] علماء افريقية لأبى العرب التميمى ، أنه كان ليحى بن سعيد باب في الجامع الأعظم مغلق لا يفتح إلّا إذا جاء يحيى الى المسجد الى غير ذلك مما لم تصرح المصادر وكتب التراجم يذكرهم . والمظنون أن بعض هؤلاء التابعين قد تصدوا للتدريس في الجامع الأعظم بجانب تدريسهم في بيوتهم والمساجد الاخرى . ويروى المالكى [٣] في هذا الصدد أن (عمرو بن راشد بن مسلم الكنانى التابعى ، ويقال له : عماره بن راشد وهو الغالب عليه ، نزل بمدينة تونس فسكنها وأختط بها) ، ومعروف أنه يقصد بأنه قد اختط بها مسجدا على ماسلفت به العادة من التابعين وكبار العلماء والفقها ، وقتذاك

ولقد تلت هذه الصفوة من التابعين الاجلاء ، علماء مغاربة الأصل ، أى ولدوا ونشأوا فى افريقية ومدنها ، وكان نصيب مدينة تونس من اولئك نصيباً عميماً . فهذا على بن زياد الطرابلسي وهو الذى استوطن تونس حتى أصبح يعرف بعلى بن زياد التونسى والذى سنترجم له من بعد بنشر علومه الدينيه التى تلقاها

---

(١) ابو العرب التميمى : المصدر السابق ، ص ٢٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ - المالكى : المصدر السابق والجزء - ص ١٠٣ - حسن حسنى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، القسم الاول ، ص ١٢٥ - ١٢٦

(٢) المالكى : نفس المصدر السابق والجزء اعلاه ، ص ١٠٧ - ١١٠ حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع السابق والقسم اعلاه ص ٢٥ - ٢٦ وانظر كذلك المالكى : نفسه ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٣) نفسه ، ص ٨٧ .

من علماء المدينة المنورة وعلى رأسهم الامام مالك بن أنس في مدينة تونس بصفة خاصة وفي موطنه افريقية بصفة عامة حتى أن أبرز شيوخ المالكية في الفترة موضوع الرسالة كانوا يدينون له بالفضل والثناء العميقين. وغير بعيد أن يكون قد ألقى جزءا من معارفه وعلومه في جامعها الاكبر بجانب حلقته في المنزل والمسجد وتمدنا كتب التراجم والطبقات باسم آخر علم آخر ألقى دروسه في الجامع الاعظم الا وهو : أبو البشر زيد بن بشر[1] الأزدى الذى توفي عام ٢٤٠ أو ٢٤٢هـ. ومن الذين تصدوا للتدريس كما يظن بجامع تونس الأعظم منهم : أبو العباس عبد الله بن أحمد الأبياني[2] المتوفى عام ٣٠٢هـ ولقمان بن يوسف الغساني[3] الذى كان واحدا من العلماء التونسيين المعروفين آنذاك. وقد توفى عام ٣١٩هـ. هذا الى غيرهم ممن لم يسعفنا الحظ في العثور على نصوص صريحة عن إلقائهم للعلوم والدروس بالمسجد الجامع خلال تلك الفترة موضوع الرسالة.

---

(١) المالكى : المصدر السابق والجزء ص ٣٠١ - ٣٠٢ عياض: المصدر السابق ج ٢، ص ١٠-١١-

(٢) عياض : نفس المصدر السابق والجزء اعلاه ، ص ٣٤٧- ٣٥٢ حسن حسنى عبد الوهاب الورقات ، القسم الأول ، ص ١٢٧

(٣) عياض : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ٣١١- ٣١٣

المساجد الأخرى في مدن افريقيـة :

لم يكن جامعا عقبة بن نافع بالقيروان ،والزيتونه بتونس وحدهمـا ، المركزين اللذين إضطلعا بالدور أو النشاط العلمي والثقافي الريادي في افريقية خلال تلك الفترة فحسب ،بل كانت معظم المساجد والجوامع تشاركهما في بث ذلك الاشعاع العلمي . وكم هي صادقة ملاحظة عثمان الكعاك وهو يتحدث في كتابه : مراكز الثقافة[1] ، التي يشير فيها الى أن من بين الخصائص التي تميزت بها أقطار المغرب - والمغرب الأدنى على وجه الخصوص كما يتراءى لنا - هي ظهور المساجد الخاصة وكثرتها . فالمتتبع لكتب التراجم والطبقات المغربية تصادفه العشرات من الامثلة التي تؤكد صدق تلك الملاحظة . فكتاب ريـاض النفوس مثلا ملىء بالاشارة الى تلك المساجد الخاصة التي أسهم التابعون ممن قدموا الى افريقية في تأسيسها ، ثم ما لبثت أن غدت تقليدا متبعا عند علماء افريقية من بعد . ولقد كان الهدف من تأسيس تلك المساجد الخاصة بجانب وظيفتها التعبدية إتخاذها كمدارس أو مراكز لنشر علومهم ومعارفهم الدينية على وجه الخصوص . ولعل ما يلفت النظر الى جانب هذا ،أن تلك المساجد لم تنتصب في المدن الكبرى فحسب ،بل كانت متوفرة في كل مدن افريقية. ولقد كان شائعا هذا أيضا في أقطار العالم الاسلامي ، الا أنه يبدو أنه في المغرب الأدنى أبرز وأوضح .

فلقد أسهمت تلك المساجد الخاصة ،بالاضافة الى المساجد الجامعة بكل مدينة في دفع مسيرة الحياة العلمية قدماً الى الامام . وفي القيروان مثلا هناك بضع مساجد خاصة أقامها عدد من التابعين وغيرهم لخدمة ذلك الهدف. فهذا اسماعيل بن عبيد الانصاري أحد أفراد البعثة العلمية التي بعثها عمر ابن عبد العزيز كما مر بنا يؤسس[2] في القيروان مسجداً كبيراً ، وهو الذي عرف

---

(١) ص ١٣-١٤

(٢) المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ٧٠.

فيما بعد بمسجد الزيتونة. وذاك أبو عبد الله على بن رباح بن نصير اللخمي أحد التابعين من غير العشرة ، يسكن القيروان ويختط[١] بها داراً ومسجداً ويقول المالكي (وأنتفع به وتفقه على يديه أهل القيروان)[٢] . ومنهم أبو رشيد حنش ابن عبد الله السبأى الصنعانى ،سكن القيروان وأختط بها مسجداً ينسب[٣] إليه . ومنهم كذلك أبو عطيف: جندب بن بشر أو حبيب بن بشر الذى سكن القيروان واختط بها مسجدا[٤] . ومن التابعين الذين اختطوا مساجد خاصة لهم بالقيروان بالاضافة الى أولئك: زياد بن أنعم السفيانى[٥] وعبد الله عبد الرحمن بن أشيفع[٦] بن وعلة الشيبانى المعروف بابن وعلة المصرى .

والى جانب هذه المساجد الخاصة التى زخرت بها القيروان ،هناك مسجدان كان لهما دور ملحوظ فى تاريخ الحياة العلمية فضلاً عن تأثيرهما الصوفى ، وهما مسجد الخميس، ومسجد[٧] السبت اللذين كان يؤمهما عدد من العلماء والفقهاء بجانب الزهاد والمتصوفة.

ولم يقتصر الامر على التابعين وحدهم ، فقد أقام عدد من العلماء والفقهاء ،المغاربة المعروفين مساجد خاصة نسبت فى بعض الأحيان لهم. وكانوا غالبا ما يلقون فيها دروسهم وللمرة الثانية يسعفنا كتاب رياض النفوس للمالكى بشواهد عديدة تؤكد صدق ما ذكرناه ، فهذا البهلول ابن راشد أحد أبرز فقهاء وعلماء افريقية (المغرب الأدنى) وقتذاك يختط مسجدا ينسب اليه من بعد . ومن العلماء الذين ذكر أنه كان لهم مسجدا خاصا أبو خارجة عنبسة بن خارجة الفافقى ، وأبو محمد عبد الله بن أبى حسان اليحصبى ،ومحمد بن سحنون ،

---

(١) المالكى : المصدر السابق والجزء ،ص ٧٧.
(٢) المالكى : نفس المصدر السابق والجزء ،ص ٧٧.
(٣) المالكى : نفس المصدر السابق والجزء ،ص ٧٨.
(٤) المالكى : نفسه ، ص ٧٩.
(٥) المالكى : نفسه ،ص ٨٣.
(٦) المالكى : نفسه ،ص ٨٣.
(٧) انظر بعد ص ٤٦٦

وعبد الجبار السرتى ،ومحمد بن أحمد بن معتب بن أبى الأزهر، ويحى بن عمر ، ومحمد بن أحمد بن أبى سليمان الصراف ،وعمر بن يوسف الخزاعى .... الخ(١) .

ومعظم هذه المساجد كما يتراءى لنا كانت بمثابة مراكز علمية، تنشر العلوم والمعارف عن طريقها ، وتسهم مع جميع المراكز والوسائط فى اثراء الحياة العلمية فى افريقية آنذاك .

واذا ما أجلنا النظر فى بقية المساجد التى تأسست فى المدن والأقاليم الأخرى من افريقية ،فاننا سنجد لحسن الحظ الكثير من الشواهد والأدلة . فمدينة سوسة مثلا غصت بعديد من المساجد الخاصة بالاضافة للمسجد الجامع الكبير بها . ومن بين تلك المساجد التى كان لها دور علمى معروف مسجد أبى قطاطة الذى شيده الامير الأغلب بن الأغلب عام ٢٢٣هـ ،وقد يطلق عليه ابو قطاطة أو فتاتة ، وهو أحد فتيان الأمير المذكور الذى عهد اليه بتشييده ومن المساجد الخاصة بسوسة كذلك مسجد أبى الفضن :نفيس السوسى ،ومسجد يحيى بن عمر كذلك ، ومسجد محمد بن بسطام الذى انتقل الى السكنى بسوسة ، فشيد بها مسجده الذى نسب اليه (٢) إلى غير ذلك .

وازدحمت مدينة طرابلس ، بل والاقليم كذلك بالعشرات من المساجد الخاصة ،فضلا عن الجوامع الكبرى . فقد ذكر بأن هناك مسجدين بناهما عمرو بن العاص فى مدينة طرابلس كانا من المساجد التى اعتبرت من مقار العلم (٣) . والى جانب ذلك ،أنشأ الفاطميون ابان فترة حكمهم هناك جامع طرابلس

---

(١) عن المساجد تلك ، انظر المالكى : المصدر السابق والجزء ،ص ١٣٧ ، ١٦٥ ، ٢٠٣ ، ٣٣٨ ، ٣٦٦ ، ٣٧٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠٧ ، ٤٧١ .

(٢) عن مسجد ابى فطاطة وابى الفضن السوسى ويحيى بن عمر ومحمد بن بسطام فى مدينة سوسة انظر حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات، القسم الثانى ، ص ٦٥-٦٦ ، ٦٧-٢٦٨ ، ٨١-٨٢ ، ١٤٢-١٤٣ .

(٣) عن هذين المسجدين ، انظر أحمد مختار عمر: المرجع السابق ،ص ١٠٥-١٠٦ ،صالح مفتاح : برقة وطرابلس من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر، ص ٢٢٦ .

الأعظـــم (١) الذى بناه أحد رجال الدولة الفاطمية وهو خليل بن اسحاق (٢) . وينسب للخليفة المعز لدين الله بناء مسجد فى طرابلس أثناء مرورة عبرها فى طريقه الى مصر عام ٣٦٢هـ. وقد عرف هذا المسجد بمسجد الناقـة تيمنـــا بالناقة المحملة ذهبا التى أهداها الخليفة لأهل طرابلس(٣) .

وعلاوة على ذلك هناك مساجد خاصة أشادها عدد من علماء وفقهـــاء طرابلس كمسجد عبد الله بن الشعاب ومسجد خطاب الذى ينسب الى الشيـــخ أبى نزار خطاب البرقى ، ومسجد الجدة أو مسجد الجدود ، ومسجد أبى مسـلم مؤمن بن خرج الهوارى(٤) ... الخ . وفيما يتعلق ببقية المدن ، فمع افتقارنا الـى النصوص التى تشير الى وجود مساجد خاصة بها ، فاننا نعتقد أنها لم تكن تخلوا من تلك المساجد . مثلها مثل القيروان وسوسة وطرابلس وغيرها . .

---

(١) أحمد مختار عمر: المرجـع السابق ، ص ١٠٥-١٠٦ ، صالح مفتاح : المرجع السابق ، ص ٢٢٦- ، الطاهر أحمد الزاوى : معجم البلدان الليبيـــه ، ص ٩١-٩٢ .

(٢) عن خليل بن اسحاق ، أنظر بعد ، ص ٦٨٩-٦٩٠

(٣) أحمد مختار عمر : نفس المرجع السابق أعلاه ، ص ١٠٧-١٠٨ .

(٤) عن هذه المساجد الخاصة لهؤلاء العلماء وغيرهم ، أنظر أحمد مختار عمر: نفسه ، ص ١٠٦-١٠٧ ، ١٠٨ ، صالح مفتاح : نفسه ، ص ٢٢٦-٢٢٧ .

٢ - الكتـاتيـــب :

لا مراء فى أن الكتاتيب من أقدم وأهم الوسائط الثقافية بعد المساجد والجوامع التى اسهمت فى نشر العلوم والمعارف الاسلامية على وجه الخصوص. والكتاتيب ، جمع : كتاب ، وهو لفظ مشتق من التكتيب . وتعليم الكتابة . وقد يقال له : المكتب ، وهو موضع التعليم كمقعد (١) ، والجمع : المكاتب . والظاهر أن (كلمة كتاب ، جمع كاتب ،فأطلق المكان على من يعمل به ، من باب اطلاق المظروف على الظرف)(٢) . ويرى الفيروزأبادى أن فى قول من يشير الى أن الكتاب والمكتب بمعنى واحد خطأ لغوى . (٣)

ومهما يكن من أمر ،فإن الشئ الجلى هنا هو أن الكتّاب من أقـــدم المؤسسات العلمية التى تصدت للتعليم والتدريس . ودور الكتّاب العلمى مذكور فى العالم الاسلامى كله منذ عصور الاسلام الأولى وحتى يومنا هذا . فلم يخـــل منه شارع ولا حى من الأحياء فى المدن والقرى باعتباره النواة الأولى فى العملية التعليمية مع المساجد والجوامع ، وعن طريقة بزغت بواكير العلم والمعرفة .

ولقد شهدت افريقية (المغرب الأدنى) ظهور تلك الكتاتيب مبكـــرا ، فمنذ أن وطأت أقدام المسلمين أرض المغرب ، واستوطنوه وبنوا دورهـــــم ومساجدهم ، دفعتهم الظروف والواقع الى تثقيف أولادهم فأنشأوا الكتاتيب للقيام بتلك المهمة (٤) . وقوام الكتاب : معلم ومكان وصبيان .

---

(١) الفيروزابادى : القاموس المحيط ، الجزء الأول ، ص ١٢٦ .
(٢) ابراهيم العبيدى النوزرى : المرجع السابق ،ص ١٠٢ .
(٣) القاموس المحيط ، الجزء الأول ،ص ١٢٦ .
(٤) انظر محمد بن سحنون : كتاب آداب المعلمين ،تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ،طبعة جديدة بمراجعة محمد العروسى المطوى ،ص ٣٣-٣٤

ولقد كان الهدف الأسمى من إيجاد تلك الكتاتيب تنشئة أولئك الصبيان تنشئة دينية قويمة عن طريق البرنامج الدراسى الذى يقدّم فيها والقائم على اقرائهم لكتاب الله وتحفيظهم إياه سواء كان كلا أو جزءا بالاضافة الى ضرورة الالمام بقواعد الكتابة والقراءة وبعض المبادئ الدينية التى تتصل بالصلاة والصوم والحج . مع شيء يسير من علوم اللغة والنحو ومبادىء الحساب(١) . وغنى عن القول أنه ليس هناك ثمة ازدواجية فى هذا بين دور المساجد والجوامع ، وبين دور الكتاتيب فالمساجد والجوامع كان كيانها العلمى يعتمد على الحلقة والشيخ والمريدين والمنسون ، بينما الكتاب كان مقتصرا على الصبيان عن طريق تقديم محصلة علمية متواضعه في حجمها توطئة للالتحاق بالحلقة فى الجامع . فالكتّاب يمهد الطريق للصبى بعد بلوغه السن والتحصيل الملائمين الى الانتظام فى حلقات الشيوخ فى الجوامع والمساجد التى تعد مرحلة علمية متقدمة(٢) .

وكما ذكرنا من قبل ، فقد شهدت افريقية (المغرب الأدنى) ظهور الكتاتيب فيها مبكرا ، وهذا الدباغ يروى فى معالمه (٣) عن غياث بن أبى شبيب أن سفيان ابن وهب أحد الصحابة الذين دخلوا افريقية فى خلافة عبد الملك بن مروان كان يمر عليه وعلى زملائه من التلاميذ فى الكتاب، فيسلم عليهم.

والكتاتيب كانت تنتصب اما فى المساجد ، واما فى أماكن خاصة(٤) . وفى المغرب عموما كانت الكتاتيب فى البادية ملحقة غالبا بالمساجد . أما فى المدن

---

(١) أنظر محمد بن سحنون : كتاب آداب المعلمين ، ص ٣٣ - عثمان الكعاك : مراكز الثقافة فى المغرب ، ص ٥٢ - أحمد مختار عمرو : المرجع السابق ، ص ١١٥-١١٦ - ابراهيم العبيدى التوزرى : المرجع السابق ، ص ١٠٥-١٠٧ - عبد السلام أحمد الكنونى : المدرسة القرآنية فى المغرب الى ابن عطية ، ص ٣٦ .

(٢) أنظر المادة الواسعة التى كتبها ابراهيم العبيدى التوزرى : المرجع السابق ، ص ٩٨-١٠١ .

(٣) الجزء الأول ، ص ١٥١

(٤) ابن سحنون : المصدر السابق ، ص ٣٨-٥٨ - الرضاع : فهرست الرصاع، حاشية رقم ٦ ، ص ١٣٢ - عبد السلام أحمد الكنونى : المرجع السابق ص ٣٦-٣٧ - أحمد مختار عمر : المرجع السابق ، ص ١١٥ .

فقد كانت اما ملحقة بها واما مستقلة[1] عنها . وقد عرفت افريقية الكتاتيب الخاصة[2] والكتاتيب العامة ، فالخاصة هي التي كانت تنتصب في قصور الأمراء والوزراء وعلية القوم ، والعامة هي التي كانت تنتشر في زوايا وأركان المدينة . ويقوم على هذه الكتاتيب وتجهيزها معلم أو مؤدب له حظ يسير من العلم الديني ، ولم يكن شرطا أن يكون عالما مبرزا في العلوم الدينية وغيرها ، بل يشترط فيه حفظ كتاب الله وتجويده .... الخ .

ولقد كان المؤدب يلقى ترحيبا وتكريما من قبل السكان ، ومن قبل أولياء الأمور ، فهو (الرجل المرغوب فيه الذي تتخاطفه العشائر البربرية ليكون المؤدب والامام والمرشد والكاتب والحكيم والعريف ....الخ)[3] . ويقول الكعاك أن قاعدة الاحترام والاكرام للمؤدب ما زالت مرعية في دول المغرب العربي حتى اليوم[4] . ويحسن بنا أن نسرد الآن موقفا مهما للتدليل على مكانة الكتاب والمؤدب وهو موقف القاضي عبد الله بن غانم ، اذ يروى أن (ابنه دخل عليه وقد انصرف من المكتب ، فسأله عن سورته ، فقال له الصبي : حولني المعلم من سورة " الحمد " ، فقال له : " اقرأها ، فقرأها ، فقال له : " تهجها ، قال : (أي راوي القصة) : فتهجاها ، فقال له : " ارفع ذلك المقعد " ، فرفعه ، فاذا تحته دنانير كثيرة ، قال : وأبو عثمان شاك في عددها (أي الراوي) ، الا أنها أكثر من العشرة ودون العشرين ، قال : فحملها الى معلمه فدفعها له ، فأنكر المعلم ذلك وأتى بها الى ابن غانم وأخبره أن الصبي أتاه بها ، فقال له ابن غانم كالمعتذر : " لم يحضرني غيرها يا معلم ، أتدري ما علمته ، علمته " الحمد لله رب العالمين " بحرف واحد مما علمته خير من الدنيا وما فيها ")[5] .

---

(١) عبد السلام الكنوني : المرجع السابق ، ص ٣٦-٣٧ .
(٢) ابن سحنون : المصدر السابق ، ص ٣٤-٣٥ ، ٣٨- الرصاع : المصدر السابق والحاشية والصفحة - ابراهيم العبيدي التونسي : المرجع السابق ، ص ١٢٥ .
(٣) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ، ص ٥٢ .
(٤) نفس المرجع أعلاه والصفحة .
(٥) أنظر المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٥-١٤٦ .

ولا تسعفنا كتب التراجم والطبقات ولا كتب الأدب والتاريخ للأسف بذكر شئ ذى بال عن الكتاتيب من حيث أماكنها فى المدن وأعدادها ، والمعلمين والمؤدبين القائمين على ادارتها . فجلّ ما نعرفه هو أنه كانت هناك بالقيروان وتونس وطرابلس وبلاد الجريد كتاتيب كان لها دور علمى ملحوظ(١) . أما عن المعلمين والمؤدبين فلم تذكر لنا تلك المصادر إلاّ عدداً يسيراً منهم ، وفى يقيننا أنها أهملت ذكر عشرات منهم ، فلم تحفل الا بالتنويه عن أولئك الذين كانوا بالاضافة الى أنهم فقهاء وعلماء بارزين قد امتهنوا التعليم والتأديب فى الكتاتيب أو المكاتب . ومن أولئك العلماء المؤدبين ، أبو على شقران بن على الهمذانى العالم الذى ألف فى افرائض كتابا لم يؤلف مثله فى افريقية (٢) (فقد كان يقرئ الناس مجانا فى كتاب منسوب اليه فى القيروان)(٣) . وكان الى جانب ذلك من أشهر العباد والزهاد فى افريقية وقتذاك(٤) . ومنهم الصالح والواعظ المشهور محرز بن خلف بن أبى رزين البكرى ، فقد عمل معلما للصبيان فى تونس واشتهر بذلك ، حتى كان يطلق عليه : المربى محرز(٥) . ويروى أنه طلب من عالم القيروان المبرز فى وقته محمد بن ابى زيد المعروف بمالك الأصغر والذى سنترجم له من بعد تحرير موجز يوضع الشئ الضرورى للصبيان من أمور الدين ، فكتب له رسالة فى الفقه اشتهرت وذاعت ، ومما جاء فى مقدمتها يخاطبه : (... أما بعد ، أعاننا الله واياكم على رعايته ودائعه ، وحفظ ما أودعنا من شرائعه ، فانك سألتنى أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة بما تنطق به الألسنة وتعتقده القلوب وتعلمه الجوارح وشئ من الآداب عنها ، وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب

---

(١) انظر ابن سحنون : المصدر السابق ، ص ٣٣-٣٨ ، ٦٨-٦٩ - عبده عبد العزيز قلقيلة : النقد الادبى فى المغرب العربى ، الجزء الاول ، ص ٢٢- أحمد مختار عمرو: المرجع السابق ، ص ١١٥-١١٧ - صالح باجبية : المرجع السابق ، ص ١٧٩

(٢) أنظر المالكى : المصدر السابق ، والجزء ، ص ٢٢٢ (ويسميه أبو على : شقران بن على القرضى) .

(٣) ابن سحنون : نفس المصدر السابق أعلاه ، ص ٥٧ .

(٤) أنظر المالكى : نفسه ، ص ٢٢٢-٢٢٩ .

(٥) أنظر ابن سحنون بنفس المصدر والسابق، ص ٦٨-٦٩ - الرصاع : المصدر السابق ، ص ١٧٣-١٧٥ - ابن السراج : الحلل السندسية فى الاخبار التونسية ، الجزء الاول ، القسم الرابع ،ص ٨٧٤-٨٧٨- الزركلى : المرجع السابق ، ص ٢٨٤ .

مالك بن أنس- رحمه الله تعالى -لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان ، كما تعلّمهم حروف القرآن ، ليسبق الى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركاته ، وتحمد لهم عافيته ، فأجبتك الى ذلك لما وجدته لنفسي ولك من ثواب من علم دين الله ... الخ) (١)

ومما هو جدير بالذكر أن المؤدب محرز بن خلف (٣٤٠-٤١٣هـ/ ٩٥١-١٠٢٢م) الى جانب اشتغاله بالتعليم في الكتاب ، كان عالما فقيها واعظا زاهدا تحريرا . تعلقت به قلوب التونسيين منذ ذلك الوقت وحتى الآن حيث يحظى بتقدير كبير الى الدرجة التي وصف بها بالشيخ الاستاذ الامام محرز بن خلف (٢) . ومن المعلمين المعروفين أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن علي بن مسلم الجبنياني البكري (٣) (ت٣٩٩هـ) أحد أبرز وأشهر العباد والزهاد المغاربة بجانب غزارة فقهه وعلمه ، وبزهده وعبادته يضرب المثل . وفي زهده يقول عالم القيروان المشهور: محمد بن أبي زيد : لو فاخرنا بنو اسرائيل بعبادها لفاخرناهم بالجبنياني (٤) . وقد كان له كتاب في قريته يعلم الصبيان (٥) ، ومن المعلمين الذين ورد لهم ذكر : أبو محمد عبد الله بن محمد المكفوف النحوي الذي كان له مكتب يؤمه الصبيان (٦) . ويعتبر الاديب الوزير أبو الحسن علي بن أبي الرجال من المؤدبين الخصوصيين الذين كانوا يؤدبون أولاد الأمراء والوزراء

---

(١) ابن سحنون : المصدر السابق ، ص ٦٨ .
(٢) أنظر ابن سحنون : نفسه ، ص ٦٨-٦٩ - الرصاع : نفس المصدر السابق ، ص ٧٣-٧٥ - ابن السراج : المصدر السابق والجزء ، ص٧٤ - ٧٨ .
(٣) أنظر الترجمة الواسعة التي حلاه بها القاضي عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩٧-٥١٧ .
(٤) عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٠٠ .
(٥) عياض : نفس المصدر أعلاه ، والجزء ، ص ٥٠١-٥١٦ .
(٦) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ص ٢٣٦-٢٣٧ - القفطي : إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ج ٢ ، ص ١٤٧-١٤٩ - الفيروزأبادي : البلغة في تاريخ أئمة اللغة : تحقيق محمد المصري ، ص ١١٣-١١٤ .

فقد ذكر بأنه كان مؤدباً للأمير المعز بن باديس(١) . ولا يغيب عن بالنا بأن أبا الحسن على بن أبى الرجال تنسب إليه أقوال بأنه السبب فى تغيير وجهة نظر المعز بن باديس بشأن المذهب الشيعى حتى أدى الأمر فى النهاية الى نبذ الدعوة الشيعية و خلع الطاعة الفاطمية(٢) . وفى مدينة طرابلس اشتهر عمر بن يمكتن بأن كان له كتّاب لتعليم القرآن الكريم(٣) .

لكننا نشعر بالحيرة عند ما نرى تراثاً تربوياً واسعاً خلّفه بعض من أشهر علماء وفقهاء وأطباء افريقية آنذاك ،يدور كله حول الكتاتيب ومعلميها . اذ كيف نوفق بين هذا التراث التربوى الضخم وبين الندرة فى المعلومات عن الكتاتيب ومعلميها - اللهم الا ما سمحت الظروف بايضاحه كما مر بنا ؟ . لعل الاجابة عن هذا التساؤل تكمن فى أن افريقية قد عرفت أعداد لا حصر لها من الكتاتيب أو المكاتب ، وبالتالى عرفت جموعا كثيرة من المعلمين والمؤدبين ، لكن المصادر وكتب الطبقات أغفلت ذكرها . وأن تلك المكاتب أو الكتاتيب قد بلغت وقتها حدا كبيرا من الاهتمام الزائد ، الأمر الذى حدى الى أن يؤلف ثلاثة من أشهر علماء وفقهاء وأطباء افريقية مؤلفات تربوية ، تشرح وتفصل مهمة الكتاب وبرامجه وأغراضه وأهدافه . وقد كان هذا تطورا كبيرا بلغته الحياة التعليمية على وجه الخصوص ،اذ أن تلك المصنفات التربوية هى أول المصنفات التى ألفت فى التربية فى العالم الاسلامى كله . ولعلنا لا نبعد عن الحقيقة اذا ما قلنا فى العالم كله آنذاك . ولقد فتح أولئك الرجال الذين يمكن اعتبارهم بكل اطمئنان رجال تربية أو تربويون الباب على مصراعيه للتأليف والتصنيف فى هذا المجال البكر(٤) .

---

(١) أنظر ابن عذارى : المصدر السابق ،ج ١ ، ص ٢٧٣ .

(٢) أنظر ، بعد ص ٥٤٠ - ٥٤١

(٣) أحمد مختار عمر : المرجع السابق ،ص ١١٦-١١٧- عبده عبد العزيز قلقيلة: المرجع السابق ،ص ٢٢ .

(٤) عن مكانة هاته المصنفات التربوية وخاصة كتابى ابن سحنون والقابسى أنظر التقريظ الواسع لهما فى كتاب آداب المعلمين لابن سحنون نفسه . التصدير والمقدمة التى حلى بها حسن حسنى عبد الوهاب الكتاب ،ص ٥ - ١٣ - وأنظر ابراهيم العبيدى التوزرى : المرجع السابق ، ص ١٠٤-١٧٥ الحسن السائح : المرجع السابق ، ص ١٥٣-١٦٠ - رابح بونار: المغرب العربى تاريخه وثقافته ،ص ٢٤٤-٢٤٦ .

وأول أولئك التربويين الأجلاء : محمد بن سحنون بن سعيد الذى لا يقل شهرة وسمعة عن ابيه سحنون . وقد كان عالما فقيها جدليا أديبا تربويا ، صنف العشرات من المصنفات الفقهية والعقائدية ثم تناهت به محصلته العلمية وثقافته الغزيرة المتنوعة الى ولوج باب علم لم يفتح من قبل ، فألف كتابه : آداب المعلمين تناول فيه مسائل تربوية شتى مستشهدا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال أئمة المذهب المالكى وخاصة الامام مالك الى غير ذلك ،ثم لا يكتفى بذلك بل يورد كثيرا آراء ووجهات نظر تربوية خاصة به . وقد ترك الباب بعده مفتوحا ليلجه اثنان من أبناء قطره الذين سارا على منهجه ورسمه بالاضافة الى اجتهادهما الشخصى ،فهذا الطبيب المؤرخ بن الجزار : أحمد بن ابراهيم بن أبى خالد ، المعروف بابن الجزار والذى سنترجم له بعد (ت٣٦٩هـ) ،يتلقف الفكرة من ابن سحنون ،فيكتب مصنفا تربويا بعنوان : سياسة الصبيان وتدبيرهم ، وهو كتاب جاء فيه المؤلف بالكثير من النظريات التربوية الهامة . ثم جاء على اثرهما ابن قطرهما الثالث ، وهو الشيخ أبو الحسن : على بن خلف المعافرى المعروف بالقابسى (ت٤٠٣هـ) ، والذى سنترجم له كذلك ، فألف رسالة تربوية لا تقل أهمية عن سابقيها من المصنفات التربوية ، وعنوان رسالته : (الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين ، وأحكام المعلمين والمتعلمين) . ويتضح من عنوانها الدقيق أهميتها فى عالم التربية ،فلم يكتف القابس بترديد النظريات التربوية التى توصل اليها محمد بن سحنون وابن الجزار فحسب ،بل زاد فيها مما توصل اليه بفكره التربوى النير وهو ان كان قد نقل عن ابن سحنون كثيرا ، وان كان لابن سحنون السبق فى التأليف . فان للقابسى (مزية التوسع والافاضة فى أبوابه ، والأول (أى ابن سحنون) قد سجل ملاحظاته حول التعليم فى القرن الثالث ، والثانى كتب من القرن الرابع)(١) .

ومن المهم أخيرا أن نشير الى أن تلك المصنفات التربوية التى ذكرناها كان لبعضها الحظ فى النشر والظهور ككتاب محمد بن سحنون الذى حققه ونشره : حسن حسنى عبد الوهاب بنفس عنوانه : آداب المعلمين(٢) . وكذلك رسالة :

---

(١) رابح بونار : المرجع السابق ،ص ٢٤٦ .

(٢) راجع : ابن سحنون : المصدر السابق ، التصدير والمقدمة ،ص ٥ - ١٣- ٢٧ (ويرى حسن حسنى عبد الوهاب أن اسم الكتاب الصحيح تخميناهو : كتاب آداب المعلمين والمتعلمين) .

القابسى التى نشرها أحمد فؤاد الأهوانى ضمن رسالته للدكتوراه التى أعدها من رسالة القابسى والتى نال عليها درجة الدكتوراه (١) . أما كتاب : سياسة الصبيان وتدبيرهم لابن الجزار ،فلا يزال مخطوطاً (٢) وان كان قد نشر منه مقتطفات يسيره ،وقد تعهد أحد الباحثين التونسيين بالعمل على تحقيقه ونشره مستقبلاً (٣) .

---

(١) أنظر ابن سحنون : المصدر السابق ، التصدير ،ص ٦ - ابراهيم العبيدى التوزرى : المرجع السابق ، ص ٩٤ - الحسن السائح : المرجع السابق ،ص ١٥٣ - رابح بونار : المرجع السابق ، ص ٢٤٥-٢٤٦ .

(٢) أنظر فرحات الدشراوى : سياسة الصبيان وتدبيرهم ، مقال بهذا العنوان ، نشر فى مجلة حوليات الجامعة التونسية ،العدد الثالث ، السنة ١٩٦٦م ، تونس ،ص ٢٩-٣٣ .

(٣) فرحان الدشراوى : نفس المقال أعلاه ، ص ٢٩ .

٣ - الربـــا طـــات :

تأتى الرباطات فى المرتبة الثالثة من الأهمية فى تسلسل الوسائـــط أو المؤسسات العلمية والثقافية فى افريقية (المغرب الأدنى) خلال الفترة موضوع الرسالة . فعبرها انتشرت علوم ومعارف دينية على وجه الخصوص أسهمت فـى المحصلة والانتاج العلمى الذى تميزت به الحياة العلمية هناك آنذاك . ولعـل من المناسب أن نتحدث عن الرباط من حيث معناه اللغوى والاصطلاحى ، والتسلسل التاريخى لظهوره فى العالم الاسلامى ، قبل أن نشير الى الرباطات المغربية.

فالرباط: (ما رُبط به جمع رُبُـــط والفُؤاد والمواظبة على الأمر ، وملازمة ثغـــر العدو كالمرابطة ، وواحد الرباطات المبنية أو المرابطة أن يربط كل من الفريقـين خيولهم فى ثغره وكُلٌّ مُعِدٌّ لصاحبه ، فسمى المقام فى الثغر رباطاً ومنه قولـــه تعالى : (وصابروا ورابطوا) ، أو معناه انتظار الصلاة بعد الصلاة لقوله صلـى الله عليه وسلم : " فذلكم الرباط"[1] . ومعنى ذلك أن كلمة الرباط قد اشتقـت من كلم : ربط المأخوذة من القرآن الكريم كما جاء فى الآية السابقة أعلاه ، وكمـا فى الآية التالية : (وَأَعِدُّوا لهم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيل)[2] ، ثـــم تطورت الكلمة الى أن أصبحت تعنى المقام أو المكان الذى يتجمع فيه المتطوعـــة لمدافعة العدو وللتعبد (ثم أصبحت عبارة عن منشأة علمية ذات صبغة دينية وحربية بل صبغة دفاعية للذود من حوزة الاسلام) [3]

ولقد ظهر هذا اللفظ الذى يعنى مدافعة الأعداء فى العالم الاسلامـــى منذ أن استتبت الامور فى بلاد الشام للمسلمين ، وتأخمت حدودهم حدود الدولة

---

(١) الفيروزآبادى : القاموس المحيط ، الجزء الثانى ، ص ٢٧٤ .
(٢) سورة الأنفال ، آية رقم ٦٠ .
(٣) الحسن السائح : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

البيزنطية فى آسيا الصغرى . ولقد حدى هذا الامر بالبيزنطيين الى تنظيم نوع من المقاومة المسلحة للوجود الاسلامى بجوارهم من طريق شن غارات عسكرية مفاجئة على القرى والمدن الحدودية ، ودفع هذا المسلمين بالتالى سواء من طريق المدافعة الرسمية التى تصدت لها الدولة الاسلامية وخاصة العباسية ، أو من طريق المدافعة الفردية لأفراد المسلمين الذين تطوعوا للمرابطة لمقاومة تلك الهجمات من طريق مرابطة دائمة فى تلك القرى والمدن الحدودية دفاعا عن الاسلام والبيضة (١) . وقد عرفت تلك المواقع بالثغور جمع ثغر الذى يعنى لغويا (كل جوية أو عورة متفتحة) (٢) ، واصطلاحيا : (ما يلى دار الحرب وموضع المخافة من خروج البلدان كالثغر) (٣).

وقاد هذا الأمر كله المسلمون الى أن بنوا فى تلك المواقع الحدودية حصونا أو ثكنات عسكرية لها طابعها العسكرى المعمارى الخاص الذى تميزت به من بعد (٤) . هذا الى جانب أن تلك القرى والمدن الحدودية كانت هى نفسها بفضل التحصينات التى خضعت لها عبارة عن رباطات تمثل خطوط دفاع متقدمة . ولقد غصت تلك المدن والقرى والحصون الرباطية بالعشرات من المرابطين الذين كانت تنفق عليهم الدولة خاصة العباسية ، بجانب المتطوعة الذين يحتسبون أجرهم عند الله وحده (٥) .

ولئن كان المشرق الاسلامى قد دفعت به تلك الغارات البيزنطية الى تأسيس الرباطات والثغور ، فان المغرب العربى أصبح منذ أن استتبت أموره للمسلمين (بلد الرباط والمرابطين) (٦) ، فهو فى مجمله (أعتبر ثغرا يعد الرباط فيه جهادا

---

(١) من هذا الموضوع أنظر محمد عبد الهادى شعيرة : من تاريخ التحصينات العربية فى القرنين الأول والثانى للهجرة . بحث ألقى فى المؤتمر الرابع للآثار فى البلاد العربية ، نظمته جامعة الدول العربية فى تونس فيما بين ١٨-٢٩ مايو آيار ، ١٩٦٣م ، ص ٤٣٩-٤٤٣ .

(٢) الفيروزآبادى : القاموس المحيط ، الجزء الأول ، ص ٣٩٧ .

(٣) محمد عبد الهادى شعيرة : نفس البحث أعلاه ، ص ٤٤١-٤٤٢ .

(٤) محمد عبد الهادى شعيرة : نفس البحث أعلاه ، ص ٤٤١ .

(٥) محمد عبد الهادى شعيرة : نفس البحث أعلاه ، ص ٤٤٠

(٦) المالكى : المصدر السابق والجزء ، مقدمة المحقق ، ص ٢٥م .

في سبيل الله وقربة اليه)[١] . ذلك لان المغرب العربي الذى كان ومازال يتميز بسواحل طويلة على البحر المتوسط ، تجاور سواحله الدولة البيزنطية والفرنجة في جنوبي ايطاليا والجزر المتناثرة كصقلية وسردينا وكرسيكا وغيرها . ومن الطبيعي أن تكون تلك السواحل الطويلة معرضة للغارات البحرية المفاجئة (وكانت سواحل افريقية (تونس) أكثر تعرضا للخطر من غيرها لقربها من مصادر الغارات كلها ، فنشأت الرباطات على ساحلها من أول الأمر عند سوسة ولمطة وتونس والمنستير ، ولُبنيت " الحصون " يقوم فيها المرابطون بحراسة المسلمين والتعبد لله ، ومن تونس انتشرت الرباطات فيما بعد على الساحل المغربي كله)[٢] . ولقد فرض هذا الى أن يكون الرباط ذا نظام عسكري في عمارته كما ذكرنا ، ثم تدرجت به الأوضاع والظروف الى أن أصبح بجانب طابعه العسكري ، معهداً ومركزاً دينيا لبث الدعوة الاسلامية ونشر العلوم والمعارف في صفوف المتطوعة)[٣] . وبالاضافة الى هذا كان ملجأً يؤمّه (السكان المسلمون المجاورون له في حالة هجوم العدو)[٤] ، وعلاوة على هذا وذاك كان ينقطع فيه للعبادة العباد والزهاد بارشاد شيخ زاهد منهم ويتلقون فيه تعليما اسلامياً [٥] .

ومن المناسب هنا أن نذكر أن الجهد الفردي في انشاء **الرباطات والمحارس** قد سبق الجهد الرسمي في افريقية وقتذاك[٦] . وذلك عندما اشتدت وطأة

---

(١) المالكي : المصدر السابق والجزء ، المقدمة ، ص ٢٥م

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٢٥م .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٢٥م ، ٢٢٧ - عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ، ص ١٦ - ٣٨ ، ١١٩-١٢٢ - عبد السلام الكنوني : المرجع السابق ، ص ٣٦ - ابراهيم العبيدي التوزري : المرجع السابق ، ص ٦٩ - ٧١ - الغربل : الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ص ٩٩-١٠٠ - محمد الفاضل بن عاشور : بحث مقدم الى المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية ، نظمته جامعة الدول العربية في تونس فيما بين ١٨-٢٩ مايو آيار ١٩٦٣م ، ص ٢٥٢-٢٥٣

(٤) الغربل : نفس المرجع أعلاه ، ص ٩٩ .

(٥) الغربل : نفس المرجع أعلاه والصفحة .

(٦) أنظر صالح مفتاح : المرجع السابق ، ص ٢٢٩-٢٣٠ .

البيزنطيين والفرنجة على السواحل التونسية فى منتصف القرن الثانى الهجرى تقريبا على اثر سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية . وعند ما استتب الامر للدولة الاغلبية ، شرع أمراؤها فى القيام بحملات عسكرية بحرية لصد غارات النصارى ، فكان غزوهم بجزيرة صقلية فى سنة ٢١٢هـ ، ويلى ذلك غزوهم للجزر الاخرى فى الحوضين الاوسط والغربى للبحر الابيض المتوسط وجنوب ايطاليا (١) . وابتداءً من ذلك الوقت أخذ أمراء افريقية فى بناء الرباطات والقصور (٢) والمحارس والاهتمام بها على ما سنتعرض له بعد قليل .

على أن الرباطات البحرية لم تكن وحدها التى انتصبت فى افريقية خاصة والمغرب كله عامة بل كانت هناك الرباطات الصحراوية التى غرست فى المناطق الصحراوية المتأخمة لبلاد السودان تحقيقا للهدف من الرباط والمرابطة الذى

---

(١) عن غارات النصارى على السواحل التونيسية ، وعن الفتح الاغلبى لجزيرة صقلية وغيرها ، أنظر سعد زغلول عبد المجيد : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٩٤٣-١٩٦ ، ص ٢١٠-٢١٥ .

(٢) ليس هناك اختلاف بين الرباط والقصر أو القصور . وغاية ما فى الامر أن الرباط أكبر شأنا وعظمة وبناء من القصر . عن هذا أنظر البكرى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٨٤ ، ١٠٤ - محمد الفاضل ابن عاشور : آثار الخضيض المرسى ص ٦٥٢-٦٥٣ (نقلا عن اليعقوبى) - الحسن السائح : المرجع السابق ، ص ١٠٥ (نقلا عن ياقوت فى معجم البلدان) - حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ٢٨٢-٣٥٥ ، القسم الثانى ، ص ٢٤-٢٨ ، ٨٢-٩٣ ، ١٠٥ ، القسم الثالث ، ص ٢٠٠ ، ٢١٩ ، ٢٥٥-٢٥٧ ، ٣٣٠-٣٣٥ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ - صالح مفتاح : المرجع السابق ، ص ١٩٦ (نقلا عن محمد عبد الهادى شعيرة فى بحثه : الرباطات الساحلية الليبية) .

وأما المحارس ومفردها محرس ، فهى كذلك فيما يبدو لا تختلف عن القصر أو الرباط فى طبيعة عملها . فالبكرى مثلا : المصدر السابق ، ص ٣٦ لا يفرق بين القصر والرباط والمحرس ، فيطلق عليها كلها : محرس ، وان كان فى مواضع أخرى يعود لاستخدام لفظى الرباط والقصر بمعناهما الذى اشرنا اليه آنفا .

يفرض حماية منافذ ومعابر البلاد الاسلامية من الأخطار التى تواجهها (١) . وليس خافيا أن أهم مظهر سياسى تمخّض عن هذه النشاطات الرباطية الصحراوية ، هو قيام دولة المرابطين فى منتصف القرن الخامس الهجرى التى استمدت اسمها من المعنى اللغوى للرباط ، وهى بهذا الاعتبار أول دولة رباط فى العالم الاسلامى (٢) ، ثم تلتها الدولة الموحدية التى يمكن اعتبارها كذلك دولة رباط (٣) . محبّ هذا الصدد يرى حسين مؤنس(٤) - ونحن نتفق معه - أن الدور الرئيسى لأهل المغرب فى التاريخ العام للاسلام هو : دور رباط وحماية لجناحه الغربى كله . ويقرر أنه (اذا كانت المالكية هى العصب الأول للتاريخ المغربى ، فان الرباط هو العصب الثانى ،بل يكاد يكون علّة وجوده) .

وأيا ما كان الأمر ،فان الجلى والواضح أن الرباطات قد انتشرت فى المغرب الاسلامى وخاصة افريقية منذ القرن الثانى الهجرى على كل السواحل التونسية . وبالاضافة الى تلك الرباطات نشأت محارس وقصور بالقرب منها نزلها العباد والزهاد ، الذين كانوا يقومون بواجب الدفاع الحربى من جهة ،والانصراف الى العبادة والتعليم (٥) من جهة أخرى . وتبعا لهذا فقد أصبحت هناك مدن ثغرية تقوم بجانبها تلك الرباطات والقصور والمحارس ، هذا بالاضافة الى صفة تلك المدن نفسها الثغرية . ومن بين تلك المدن : المنستير ،وسوسة ، ولمطة ، التى كانت تحظى جميعها بشعور عميق من الاكبار والتقدير نظرا لمكانتها الثغرية الرباطية.

---

(١) أنظر المالكى : المصدر السابق : ج ١ ،مقدمة المحقق ،ص ٢٥م -٢٦م
- عثمان الكعاك : مراكز الثقافة فى المغرب ،ص ٣٦-٣٨ ، ١١٩-١٢٢ .
(٢) المالكى : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، مقدمة المحقق ،ص ٢٦ .
(٣) المالكى : نفسه ، ص ٢٦م.
(٤) المالكى : نفسه ، ص ٢٦ .
(٥) انظر عثمان الكعاك : مراكز الثقافة ،ص ١٩- محمد الفاضل بن عاشور:

فمدينة المنستير مثلاً كانت ذات مكانة كبيرة في نفوس أبناء المغرب الأدنى من علماء وزهاد وغيرهم ،فقصدوها للسكنى والمرابطة بها كما سنشير بعد قليل. وفضلاً عن أن كثيراً من المسلمين (كانوا يعتقدون أن الاقامة في الرباطات والحياة في الثغور ، نوع من الجهاد ، ومن بمت بها فهو شهيد) (١) ، فقد وضِعَتْ في المنستير عدة أحاديث نبوية (٢) تنوه بمكانتها وأهميتها ،فمن الطبيعي إذاً أن تستهوى المدينة الأفئدة تبعا لذلك.

ولم تكن مدينة سوسة بأقل حظوة ومكانة من المنستير. وهذه مواقف يمدنا بها أبو بكر المالكي عند ترجمته لأبي الأحوص أحمد بن عبد الله المتعبد بسوسة (ت٢٨٤هـ) . قال المالكي (٣) عنه : (وكانت بداية أبي الأحوص ولزومه مدينة سوسة ،أنه أتى اليها مرابطا ،فأقام بها مدة ،حتى نفقذت نفقته وأراد الرجوع الى بلده بالمغرب ،فأتى الى جامعها ليركع فيه وينتصوف ، فبينما هو راكع إذ رأى عصفوراً دخل الجامع وفي فمه شئ يطعمه فراخه ،فسقط من فم العصفور ما كان فيه ، فخرج من خلف الحصير فأر فأكل ما سقط من فم العصفور ،فخاطب نفسه بأن قال لها : إن كان فأر خلف الحصير قيَّض الله من رزقه كما قد رأيت ولم يضيعه

---

(١) أنظر عبد السلام الكنوني : المرجع السابق ، ص ٣٦ (نقلاً عن جمال الشيال في كتابه أعلام العرب) .

(٢) من تلك الأحاديث ،ما روى (عن ابن عمر ،قال ،قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رابط في المنستير ثلاثة أيام وجبت له الجنة ،قال أنس بخ بخ يا رسول الله) ، وكذلك الحديث التالي : (عن مطرف بن عبد الله بن الخير ،يرفعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : بالمنستير باب من أبواب الجنة يقال له : " الأنف " دونه قنطرة من قناطر الأولين) . الى غير ذلك .

انظر المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ٤ - ٥ - الدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ،ص ٥

وهذان الحديثان يغلب على الظن أنهما من جملة الأحاديث الموضوعة التي وضعت لتحبيب بلاد المغرب ومدنه لساكنيه . وهو ما أشار اليه ابن تأجي مكمل ومعلق كتاب المعالم ،الجزء الأول ،ص ٦

وانظر كذلك الحاشية رقم ٧ ص ٤٠٥ من الجزء الأول من الرياض للمالكي .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩٠ .

فكيف أضيع أنا ؟ . لله على أن لا أدع مدينة الرباط الى غيرها أبدا ، فأقام بمدينة سوسة واشتهر بها حتى مات رحمه الله تعالى) . وهناك موقف آخر يرويه المالكي (١) ،وهو أن الأمير الأغلبي ابراهيم بن أحمد (ت ٢٨٩هـ) ، كان يداوم على زيارة أحد العباد والزهاد في سوسة ، فمرّ به وسأله عن حاجته ، فقال له ما نصّه : (هذا البلد (يعني سوسة)فد مُمِرّ وهو ثغر ، وأهل افريقية يهددهم العدو، فاليه مقصدهم وهو مرابطهم ، والقرويين في ليلة كل جمعة يترابطون اليه والجامع يضيق بهم ، وأحب أن تزيدهم فيه ... الخ) ومن حسن الحظ أن هناك العديد من الأمثلة التي رصدت مكانة مدينة سوسة ،فقد روى المالكي(٢) كذلك عن أحد عباد افريقية وهو عمرون بن مسرور الغسال(تبعد ٣٤٦هـ) قوله : (وسوسة طرسوس(٣) المغرب) . وكان عباد وعلماء سوسة يحرصون كل الحرص على واضفاء طابع المرابطة والمتاغرة على المدينة ، وكانوا يقاومون في سبيل ذلك كل محاولة تجعل المدينة تفقد ذلك الطابع ، حتى كانوا يفضون برغبتهم تلك الى بعض الأمراء بأصرار كبير(٤) . ويعلق المالكي في نهاية روايته لهذه المواقف بقوله : (وكانت مدينة سوسة في ذلك الوقت ليس بها شئ من المنكر : لا خمر ولا لهو ولا عزف ، وانما كان أهلها مشتغلين بالحرب والحرز على المسلمين والمسلمات وقيام الليل وصيام النهار) .

هذه المكانة التي بلغتها مدينة سوسة بالدرجة الاولى وغيرها من المدن أدت الى تكاثر الرباطات والقصور والمحارس من حولها . وكانت في معظمها تقوم بواجبيها : الجهادي ، والعلمي على خير وجه . وتجمع المصادر والمراجع

---

(١) المصدر السابق والجزء ص ٣٩٠ .

(٢) نفسه ، ص ٣٩٢-٣٩٣ .

(٣) عن مكانة مدينة طرسوس الثغرية أنظر محمد عبد الهادي شعيرة : من تاريخ التحصينات العربية في القرنين الاول والثاني للهجرة ، ص ٤٣٩ - ٤٤١ .

(٤) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٣٩٣ - ٣٩٤ .

التاريخية الشرقية والمغربية على أن أول رباط أنشئ في المغرب عموما هو رباط طرابلس ،ثم رباط المنستير(١) الذى بناه والى افريقية من قبل الخلافة العباسية: هرثمة بن أعين عام ١٨١هـ(٢) . وقد لعب رباط المنستير دورا مؤثرا فى تاريخ تونس السياسى والعسكرى والثقافى ، وما زال قائما حتى اليوم بعد الزيادات التى زيدت به على مر التاريخ (٣) . وفى هذا الصدد يرى أحد الباحثين المحدثين أن رباط شاكر أو سيدى شكير ،كما يطلق عليه أحيانا جنوبى مدينة مراكش بالمغرب الأقصى ، هو أقدم رباط عرفه المغرب كله ، لأنه قد تأسس فى القرن الاول الهجرى على يد شاكر ، وهو أحد أتباع عقبة بن نافع(٤) .

وأيا ما كان الأمر ،فان رباط المنتسير كان أشهر وأبرز الرباطات فى المغرب كله ،لأنه قام بواجبه الجهادى منذ تأسس . وكان بالاضافة الى ذلك مهوى أفئدة العلماء والعباد الذين أموه من كل حدب ،وصوب ، قد حبسوا أنفسهم فيه للعبادة ولنشر العلم ؟ وكان رباط المنستير علاوة على ذلك محاطا بمحارس معمورة بالصالحين (٥) .

---

(١) أنظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، الجزء الخامس ، ص ٩٦ - البكرى : المصدر السابق ، ص ٣٦ - محمد عبد الهادى شعيرة : من تاريخ التحصينات العربية ، ص ٤٤١-٤٤٢- عثمان الكعاك : مراكز الثقافة الاسلامية فى المغرب ، ص ١٦- الحسن السائح : المرجع السابق ، ص ١٠٥ - تقرير للجمهورية التونسية فى المؤتمر الرابع للآثار بالبلاد العربية الذى نظمته الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية فى تونس : ١٨-٢٩ ، مايو آيار ، ١٩٦٣م، ص ١٢٧ .

(٢) عند ابن الأثير والبكرى بناؤه كان عام ١٨٠هـ.

(٣) أنظر محمد عبد الهادى شعيرة : نفس البحث السابق أعلاه ،ص ٤٤١-٤٤٢ تقرير الجمهورية التونسية المشار اليه أعلاه ،ص ٣٧ .

(٤) حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ،ص ٦٩-٧٠ .

(٥) البكرى : المصدر السابق ،ص ٣٦- الحسن السائح : المرجع السابق ، ص ١٠٥ (نقلا من ياقوت الحموى) .

ويلى رباط سوسة المعروف بقصر الرباط ، رباط المنستير في الشهرة والأهمية ، بل كان يفوقه مكانة عند المغاربة . وقد أسسه الأمير زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية عام ٢٠٦هـ . ويعد هذا الرباط مفخرة معمارية من مفاخر الدولة الأغلبية ، ولا زال قائما حتى اليوم (١) ، وقد التحق به العشرات من المرابطين المتطوعة . ويذكر أن عددهم وصل في فترة من الفترات الى مائة مرابط . (٢) ومن القصور التى بينت بمثابة رباطات . قصر لمطة وهى مدينة صغيرة من أحواز سوسة ، وقصر طارق ، وقصر زياد ، وقصر سهل ، وقصر ابن حبشى ، وتنسب هذه القصور اما الى الذين أنشأوها كابن حبشى ، وهو أحد أمراء الاغالبة ، وقد أسس القصر المعروف باسمه ، واما باسم البلدة أو المدينة كقصر لمطة ، واما باسم من سكنه كقصر سهل وقصر طارق . (٣) . . الخ .

ولعل من الملائم هنا أن نشير الى أنه قد تعددت الرباطات البحرية والصحراوية في المغرب الاسلامي كله ، وأصبح مجموعها يربو خلال الفترة موضوع الرسالة والتى تليها أكثر من ألف رباط تمتد

---

(١) عن هذا الرباط : أنظر المادة الواسعة التى كتبها حسن حسنى عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثانى ، ص ٢٤ - ٢٨ - السيد عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ، ص٣٦٣-٣٦٥

(٢) حسن حسنى عبدالوهاب : نفس المرجع السابق أعلاه ، والقسم ص ٢٧ .

(٣) عن هذه القصور ، أنظر حسن حسنى عبدالوهاب : نفسه ص ٨٢ - ٨٤ - ٨٨ - ٩٠ ، ٩١ - ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٥-١٠٧ ، ١٣٥ ، ١٤٥ . الى غير ذلك .

من سبته في المغرب الأقصى الى مشارف الاسكندرية [١] بمصر،ومما يذكر أن المسافة التى كانت تفصل بين كل رباط ورباط هى ستة أميال .[٢]

بقى أن نشير في عجالة خاطفة الى عدد من العلماء والعبّاد ، الذين سكنوا وربطوا بتلك الرباطات والقصور والمحارس ، وما أحدثوه من حركة علمية مهمة ، ثم الاشارة الى بعض من وفد الى تلك الرباطات من علماء المدن الذين قدموا فارين بأنفسهم من مطاردة بعض الحكام لهم .

فمن العلماء الذين رابطوا في المدن الثغرية ورباطاتها كالمنستير وسوسة ،عالم المغرب الأدنى المشهور : سحنون بن سعيد التنوخى فقد كان يرابط بالمنستير في شهر رمضان من كل عام وينشر علمه وفقهه بجانب قيامه بواجبه الجهادى [٣] ومنهم كذلك ابنه محمد بن سحنون الذى كان يقدم من القيروان الى سوسة للمرابطة في قصر الطوب (للعبادة والحرس على المسلمين) [٤] . ومن الطبيعى أن يمارس دوره التعليمى هناك ، وهو العالم الفقيه المتبحرالذى قارب أن يكون صورة من أبيه علما وفقها . ومنهم يحيى بن عمر ، الذى أشرنا اليه سابقا ، وقد سكن سوسة سكنى دائمة ، وكان كثيراً ما يحث على سكناها ، وقد ذكر المالكي[٥] حديثاً عن أخ يحيى بن عمر ، وهو قوله (كان أخى يحب سوسة ، ويحض على سكناها ، ويقول اللهم لا تكسبنى ذنباً

---

(١) أنظر عثمان الكعاك : مراكز الثقافة ، ص ١٨ - عبد السلام الكنونى : المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٢) أنظر عثمان الكعاك : نفس المرجع اعلاه والصفحه - عبد السلام الكنونى : نفس المرجع اعلاه والصفحه - صالح مفتاح : المرجع السابق ، ص ١٩٤ (وقد نقل عن المقدسي أنه كان على كل فرسخين رباط ،والفرسخ كما نقل عن ابن رسته في الأعلاق النفيسة يساوى ٣ أميال) .
أنظر الحاشية رقم ٣ من نفس الصفحة اعلاه .

(٣) المالكى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٩٤ .

(٤) المالكى : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ٣٤٨

(٥) نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٤٠٤

استحق له الخروج من سوسة ، وكان يقول : " إنما هي عندي مثل الاسكندرية وعسقلان وهذه المواضع التي ذكر فضلها في الكتب ") . وكان يحيى بن عمر بالاضافة لمرابطته في سوسة ، كان يرابط في شهر رمضان من كل عام بالمنستير[1] فكان يرابط ويلقى دروسه العلمية ومن العلماء الذين فضلوا سكنى سوسة كذلك لمكانتها : محمد بن بسطام بن رجا الضبي الذي كان له فضل جلب مجموعة من كتب كبار المالكية بالمشرق لم تكن قد وصلت افريقية من قبل ، فقد استقر بسوسة نهائيا (وسمع منه الناس بجامعها ، وانتفعوا بواسع علمه ، ونسخ بخطه كتبا عديدة) . [2]

ومن العلماء العباد ، نذكر عبد المؤمن بن المستنير الجزري وقد قال المالكي [3] نقلا عن أبي العرب في طبقاته (قال أبو العرب : روى عن مالك وأصحابه ، وكان عبد المؤمن رجلا صالحا كثير الرباط كثير الرواية لغرائب الرباط) . ومنهم أبو عمرو يشير بن عمورسي المتعبد بالمنستير - قال المالكي[4]: (قال ابن الحداد : وكانت له قريحة في العلم وكان يحسنه ، الا أن العبادة غلبت عليه) . ومن العلماء العباد كذلك المبرزين : عبد الرحيم بن عبد ربه الربعي الزاهد المعروف بعبد الرحيم المستجاب ، فقد كان عالما قبل أن يكون زاهدا متعبدا ، سمع على مجموعة من أشهر علماء المغرب الأدنى كسحنون بن سعيد وأسد بن الفرات ، وقد كان يسكن قصر زياد ،

---

(١) المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ٤٠٢

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ١٤٢-١٤٣ .

(٣) نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ٢٠٥

(٤) نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ٣٢٤ - ٣٢٥ .

بل هو الذى تولى بناءه. [١] وكان قصره الرباطى هذا موئل إهتمام العلماء الفقهاء ، وفيه أقام سحنون بن سعيد فترة من الوقت لدى عبد الرحيم الزاهد ، سمع عبد الرحيم خلالها من سحنون كتب ابن وهب احد تلاميذ الامام مالك بن أنس من المصريين. [٢]

أما العباد الزهاد الذين انقطعوا عن الحياة ومظاهرها في تلك الرباطات والقصور والمحارس، فقد كانوا كثيرى العدد ، والفضل في ذلك يعود في من ترجماتهم الى أبى بكر المالكى ، الذى كان كتابه رياض النفوس يُعنى بتتبُّع تراجم العلماء والعباد والزهاد والنساك في افريقية منذ الفتح الاسلامي حتى عصره هو في النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى . ونحن لا يهمنا من تراجم أولئك العباد والزهاد الا ماكان متصلا بدورهم العلمى والثقافي ، فقد زخر بذكرهم كتاب المالكى . ولا بأس هنا من الاشارة اليهم في هذا العجالة الخاطفة . فمن المتعبدين الذين سكنوا المنستير أبو عثمان الجزرى [٣]، ومن عباد قصر الطرب في سوسة : حمدون بن عبد الله العسال [٤]، ومنهم محمد بن عبد الكريم المسوحى [٥] ، ومكرم المتعبد [٦] من علماء القصر الكبير بالمنستير ومن عباد قصر لمطة باحواز مدينة سوسة ،

---

(١) المالكى : المصدر السابق والجزء ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨
(٢) المالكى : نفسه ، ص ٣٣٠ .
(٣) المالكى : نفسه ، ص ٢٣٨ ومابعدها .
(٤) المالكى : نفسه ، ص ٣١٧ ومابعدها .
(٥) المالكى : نفسه ، ص ٣٢٠ ومابعدها
(٦) المالكى : نفسه ، ص ٣٢٤ ومابعدها .

أبو السرى واصل [١] بـــن عبدالله اللخمى ، وكان بالاضافـــة لذلك ينزل قصر الطرب في سوسة .

ومن عبّاد سوسة المشهورين أبو الأحوص أحمد بن عبداللـــه المتعبد ، الذى مر بنا ذكره من قبل [٢] ، ومنهم أبو هارون الأندلسى المتعبد الذى سكن مدة من الزمن في قصر لمطه [٣]. ومن المحـــارس التى نزلها بعض المتعبدين : محروس سفاقس ، قد نزله أبو عقـــال غلبون بن الحسن بن غلبون الأغلبى ، وكذلك نزله أبو هارون المتعبـــد معه [٤] .. الخ .

---

(١) المالكى : المصدر السابق والجزء ، ص ٣٣٤ ومابعدها .
(٢) المالكى : نفسه ، ص ٣٩٣ ومابعدها
(٣) المالكى : نفسه ، ص ٤١٦ ومابعدها
(٤) المالكى : نفسه ، ص ٤٢٧ ومابعدها

المكتبات العامة والخاصة :-

لا خفاء في أن المكتبات كانت من أهم الوسائط الثقافية التى اسهمت في نشر الثقافةوالعلوم فى الدولة الاسلامية . وقد لقيت المكتبات علىيد المسلمين من الحظوةوالمكانة والاهتمام فاق ماكان للشعوب الاخرى في هذا المضمار في العصور القديمة والوسيطة ومن الطبيعى أن المكتبات قد استمدت مكانتها تلك منالوعاء الذى شمل المعرفةوالعلم ، ذلك هو الكتاب الذى إشتق منه اسمها . ولا مراء في أن الكتاب كان يشكل أهمية بالغة عند المسلمين ،فالاسلام دين جاء بكتاب وثقافة المسلمين ومحصلتهم العلمية ،إنما هى ثقافة كتاب . وفىالبدء كانالقرآن الكريم ، ثمتوالت الكتب تترى بعد ذلك .

ولقد اعتنى المسلمون بناءً على ذلك بالكتب والمكتبات وكتب التاريخ والأدب والتراجم والسير مافتئت تترصد الأدلة والشواهد الواسعة التى تعكس هذا الاعتناء وذلك الاهتمام ممالا سبيل الى ذكره هنا ، فهو مبسوط مذكور.

وافريقية (المغرب الأدنى) لم تكن لتقل إهتماماً بالكتب والمكتبات عن غيرها من الأمصار والاقاليم - ولعل ممّالا خلاف فيه هو أن المغرب الأدنى قد دخل ميدان التأليف والتصنيف مبكرا فقد تصدى علماؤه وأدباؤه وأطباؤه ومقروؤه للتأليف في كل مجالات العلم وفي تخصصاتهم على وجه الخصوص، فتكونت خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة مجموعات ضخمة من مصنفاتهم ، لا سيما وأن البعض من المؤلفين قد فُتِحَ له باب في التأليف وبلغت مصنفات البعض منهم العشرات من الأجزاء . بل ان بعضهم عد من كبار المصنفين على

مستوى الدولة الاسلامية كأبى العرب التميمى الذى قيل إنه ألف كتبا تقدر بالمئات (١) . وتتملك الدهشة الباحث وهو يتتبّع سير وتراجم علماء وأطباء وقراء وأدباء افريقية خلال الفترة موضوع الاهتمام ، اذ قل ما نجد واحد منهم الا وله مصنف أو مصنفين . أما الغالبية منهم فمصنفاتهم تصل الى بضع مؤلفات في شتى المواضيع .

وكان المظنون ازاء هذا أن تكون هناك مكتبات استوعبت ذلك الكم الوافر من المؤلفات الشرعية والأدبية والطبية وغيرها ، بيد أننا نفاجأ بعدم الثور على مباحث توضح احتواء افريقية على تلك المكتبات ، سواء الخاصة أو العامة خلال تلك الفترة اللهم الا بضع اشارات لا تروى ظمأ ولا تشفى غلة . فالواقع اننا لا يمكن أن نتصور خلو افريقية من المكتبات التى هى نتيجة مباشرة لكثرة التأليف وغزارة العطاء الذى أشرنا اليه . ذلك لأن الكتب والمكتبات هى المظهر المادى للنهضة العلمية الثقافية ليس في افريقية فحسب ، بل وفي كل العالم الاسلامى . وعدم وجود الاشارات التى توضح دور ومكانة المكتبات في افريقية . على خلاف الأندلس أمر يُدعو للغرابة والدهشة . غير أننا نستطيع أن نفترض أن افريقية عرفت المكتبات العامة والخاصة لا كما أشارت اليه تلك الاشارات الخاطفة ، ولكن باعداد كبيرة . ذلك لأن هناك عوامل عديدة تؤيد صحة هذا الفرض، فأولها هو ما أشرنا اليه من غزارة التأليف الذى تميزت به البلاد ، وثانيها أن المغرب كان يقتفى أثر المشرق في كل منحى . والاهتمام بالمكتبات وانشاؤها كان من أحد أبرز اهتمامات المشرقين ، وثالثها هو رغبة الامراء والخلفاء الذين تعاقبوا على حكم المغرب في مجارات اقرانهم في المشرق في كل تطلعاتهم . هذا فضلا عن الميل الغريزى للعلوم والمعارف الذى تميز به بعضهم .

---

(١) أنظر بعد ص ٣٥٨-٣٥٩

وعلى أية حال فلا مناص في ظل غياب التنصيص على وجود المكتبات وأماكنها إلّا تتبّع تلك الاشارات الخاطفة التي امدتنا بها بعض كتب التاريخ والتراجم . فمن المكتبات التي أدت دورا علميا لا بأس به ، تلك التي أنشأها الأغالبة في المسجد الجامع بالقيروان ولقد حصلت تلك المكتبه بأمهات المصنفات النفيسة . وقد زادت محتوياتها بسبب ولوع الامراء والعلية من القوم بتحبيس ووقف الكتب الجليلة عليها . وهذه المكتبة التي عرفت ببيت الكتب، كانت تحتل آنذاك الجزء المجاور للمحراب في المسجد الجامع . ونذكر بعض المصادر والمراجع أن احدى نساء بني زيرى ، تبرعت بمجموعة من المؤلفات الجليلة للمكتبة من مصاحف وخلافه . وقد أوقفتها على تلك المكتبة (١) . ويقول حسن حسني عبد الوهاب (٢) ان العناية بهذه المكتبة قد استمرت حتى القرن الخامس الهجرى ، ثم اصابها بعد ذلك من التلف والضياع ما قلل قيمتها ومكانتها . وعلى الرغم من هذا فان بعضا من تلك المؤلفات القيمة كما يشير عمر رضا كحالة (٣) مازال مشاهدا على ذلك حتى الآن ، وخاصة تلك المصاحف المخططة بالذهب المذاب والمكتوبة بالخط الكوفي . وفي حق هذه المكتبه ينقل أحمد مختار (٤) عمرو عن العبدري صاحب الرحلة المعروفة باسمه قوله:(دخلت بيت الكتب بالقيروان ، فأخرجت لنا مصاحف كثيرة بخط مشرقي ، ومنها ماكتب عليه بالذهب ، وفيها كتب محبّسه قديمة من عهد سحنون وقبله .

---

(١) أنظر حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق ، ص ٦٢ - ٦٣ - عمر رضا كحاله : أعلام النساء ، الجزء الرابع ، ص ٣٨- ٣٩ .

(٢) بساط العقيق ، ص ٦٢ - ٦٣

(٣) اعلام النساء ، الجزء الرابع، ص ٣٨ - ٣٩

(٤) النشاط الثقافي في ليبيا ، ص ١١٠

ورأيت مصحفا يقال إنه مصحف عثمان ، وأنه بخط عبدالله بن عمر رضى الله عنهما) .

أما جامع الزيتونه ، فقد حظى هو الآخر بمكتبة كبيرة حوت أنفس المصنفات والمخطوطات من المصاحف وكتب الحديث والتفسير وغيرذلك . (١)

ومن أشهر المكتبات العلمية التى كان لها دور ثقافى مؤثر ، مكتبة بيت الحكمة برقادة ، الذى أسسه كما سبق أن ذكرنا الأمير ابراهيم ابن احمد المعروف بابراهيم الثانى ، فقد ضمّت مجموعات كبيرة من المجلدات في شتى أنواع العلوم والمعرفة وخاصة العلوم الدينية والتجريبية . (٢) ، ويعتقد حسن حسنى عبدالوهاب (٣) أن مكتبة بيت الحكمة احتوت كذلك على كثير من المؤلفات التى ترجمت عن اللغات الأعجمية كاليونانية والفارسية والسريانية ، كما يعتقد أيضا أنها كانت عبارة عن (مكتبة منضّدة في خزائن من خشب ، كل خزانه منها تحتوى على عدد من الكتب المختارة المنسوخة على الرق أو الكاغذ) (٤)

ومن المكتبات ذات الاهمية البالغة في مدينة صبرة (المنصورية) ، مكتبة الخليفة المعز لدين الله الفاطمى (٥) . ولقد كان

---

(١) محمد الحسينى عبدالعزيز : الحياة العلمية في الدولة الاسلامية ، ص ٣٦ .

(٢) أنظر حسن حسنى عبدالوهاب : الورقات ، القسم الاول ، ص ١٩٤ - ٢٠٩ ابراهيم العبيدى التوزرى : المرجع السابق ، ص ١٦١ - ١٦٥ .

(٣) الورقات ، القسم الأول ، ص ١٩٥ .

(٤) حسن حسنى عبدالوهاب : نفس المرجع اعلاه والقسم والصفحة .

الخلفاء الفاطميون شغوفين بالعلم والمعرفة ، وكانوا بجانب ذلك علماء وأدباء ، فقد اسهموا في الحركة التأليفيه كما سنرى بعد . ولذلك فقد حرص المعز على أن ينشيء في قصره خزانة ضخمة للكتب تدل ضخامتها على مقدار ثقافته وغزارة علمه . فلقد (بلغ من شغفه بهذه المكتبة أنه كان يعرف مواضع مافيها من الكتب وماتحويه من المعلومات . وقد قيل ان المعز أمر خازن كتبه أن يحضر له كتاباً ، فلم يحضره على الفور ، فقام المعز وبحث عن هذا الكتاب، ثم قرأه كما قرأ غيره من الكتب واستهواه الاطلاع ، حتى صرف معظم هذه الليلة في القراءة وهو واقف على قدميه . ولاغرو فقد كان يقول والله ما تلذذت بشيء تلذذى بالعلم والحكمة) (١) ومما يدل على شدة اهتمام المعز بالثقافة والعلوم أنه فتح أبواب قصره للعلماء والمشايخ وغيرهم (وأباح لهم جميعا الاطلاع على الكتب المختلفة ودراستها وانتساخها والتعلم منها والتفقه فيها) (٢)

واحتوت مدينة طرابلس كغيرها من المدن على المكتبات العامة لاسيما وأن هناك طائفة من السكان في جبل نفوسه تتمذهب بالمذهب الاباضى . وكان الفكر الاباضى قد بلغ درجة عالية من الظهور والكثافة آنذاك ، حتى وصل الاجتهاد بالاباضية هناك الى تأسيس فرق اباضية داخل المذهب نفسه ، لها فكرها ولها تنظيرها مماسوف نعرفه بعد في مكانه . ومن الطبيعى والحالة كذلك أن تكثر المؤلفات الاباضية على وجه الخصوص . ولقد أشارت بعض المراجع التى تهتم بالتاريخ والثقافة الاباضية الى أن قرى

---

(١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المرجع السابق ، ص ٢٢٢

(٢) حسن ابراهيم حسن وطه احمد شرف : نفس المرجع السابق ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

ومدن جبل نفوسه كانت تزخر بالعشرات من الخزائن المملوءة بالمصنفات، وان كان قد أتت النار على معظمها خلال الفتن التي لحقت بجبل نفوسه بعد ذلك. (١) وبجانب هذا فقد حفظ لنا التاريخ ، ذكر مكتبة نُصَّ على أنها (خزانة نفوسة) (٢) وقد كان مقرها في مدينة شروس عاصمة الجبل ، وقد غَصَّت بالالات المؤلفة من الكتب في عهد ثالث الأمراء الرستميين : أفلح بن عبد (٣) الوهاب . ولقد وصل الاهتمام بالكتب والمكتبات أرقى مستواه بسبب النهضة العلمية التي بلغتها افريقية في عهد الزيريين كما سنعرف بعد .وقد مر بنا أن بعض نساء الزيريين قد تبرعت بمؤلفات عظيمة لمكتبة المسجد الجامع بالقيروان . ويهمنا أن نشير هنا الى أن تلك الاميرة لم تكن وحدها التي قامت بهذا العمل الجليل ، بل ذُكِرَ أن عمّه الامير المعز بن باديس المعروفه بأم ملال (٤) (ت ٤١٤هـ) ، وكذلك الأميرة

---

(١) أحمد مختار عمرو: المرجع السابق ص ١١٠

(٢) أحمد مختار عمرو : نفس المرجع السابق اعلاه والصفحه

(٣) أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١٩٨ - ٢٤٧هـ/ ٨١٤-٨٦١م) ثالث الائمة الرستميين في تاهرت ، وأطول الامراء حكماً. وقد اشتهر بكل صفات رجل الدولة الناجح ، وبالاضافة الى ذلك كان عالما في الفقه الاباضي لا يشق له غبار وله مؤلفات قيمة وعلاوة على ذلك كان له ديوان شعر قد ضاع .
أنظر سعد زغلول عبد الحميد :المرجع السابق ج ٢ ، ص٣٣٧-٣٥٥ - عادل نويهض : معجم اعلام الجزائر ، ص ٥٢ (نقلا عن مجموعة من مؤرخي الاباضية وغيرهم) وعنده أن توليته كانت سنة ١٩٠هـ ووفاته كانت سنة ٢٤٠هـ/ ٨٠٥-٨٥٤م)

(٤) أم ملال أميرة صنهاجية ، عرفت باسم السيدة بنت المنصوربن بلكين بن زيرى ، وهي أخت باديس بن المنصور والد المعز وقد كان لها دور سياسي كبيرا ابان وفاة اخيها باديس عام ٤٠٦هـ. فقد تصبت وصية على ابنه الناصر المعز، الذي لم يتعد التاسعة عشرة من عمره وتولت تدبير المملكة في حسن تدبير مشهور ، حتى بلغ المعز سن الرشيد ، وتأهل لاستلام الدولة ، وكانت بالاضافة الى مهارتها السياسية من ربات الادب والعلم والرأى) .
أنظر الزركلي : المرجع السابق ،ج ٣ ، ص١٤٨-١٤٩ - عمر رضا كحاله : اعلام النساء ،ج ٢ ، ص ٢٧٦-٢٧٨

أم العلو شقيقته (١) ، وزوجته الاميرة زليخا أهدين لمكتبة القيروان - أنفس المصنفات . (٢)

وللمعز بن باديس نفسه ينسب فضل تأسيس وانشاء مكتبة عامرة إجتهد في (توقيرها وإثرائها بأنفس المصنفات ، فكانت تضم عشرات الآلاف من الكتب النفيسة) (٣) . وهناك نص أورده ابراهيم العبيدى التوزرى (٤) ، حول تحبيس أى وقف بعض الكتب جاء فيه (مما أمر بتحبيسه سيدنا سيف الله عبده المعز لدين الله المؤيد لسنه نبيه أطال الله بقاه ، وأدام عزه وعلاه على المسجد الجامع بمدينة القيروان طلباً لثواب الله عز وجل وابتغاء مرضاته على يد قاضى القضاة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن هاشم سنة اربع وعشرين واربعمائه) .

ومما يذكر من اهتمام المعز بن باديس بالكتب والعلماء أنه تفقد يوما ماحال أحد العلماء وهو أبو بكر عتيق السوسى ، فأخبر بأنه يعانى شظفا من العيس ، فبعث اليه بشيء من المال ، فرفضه فما كان المعز الا ان تلطف في المساعدة فبعث اليه كتبا في الفقه والحديث واللغة وغير ذلك ، حملها اكثر من عشرين شخصا ، وطلب

---

(١) لم يرد للأميرة أم العلو والأميرة زليخا ترجمة عند من إهتم بالتعريف بنساء الزيريين وبيد وأنه لم يكن لهما دور بارز ولذلك فلم يترجم لهما ، وان كان قد ورد ذكر لهما عرضا عن ابن عذارى وغيره .
أنظر ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص. ٢٧ ، ٢٧٣- ٢٧٤ .

(٢) أنظر ابراهيم العبيدى التوزرى : المرجع السابق ، ص١٥٢

(٣) ابراهيم العبيدى التوزرى : نفس المرجع السابق ، ص ١٥٢

(٤) نفس المرجع السابق اعلاه ، ص ١٥٣ .

منه قبولها بداعي أن بقاءها لديه قد يعرضها للضياع .. (وأنت أولى بامتلاكها للانتفاع بها ، فأجابه أبوبكر: اكتبوا على كل جزء منها تحبيسها على طلبه العلم ، فكتب ذلك ، ووقفت على الجامع الكبير بالقيروان). (١)

بقي أن نشير الى أننا وان كنا لا نملك تفاصيل واسعة عن مكتبات العلماء والأطباء والأدباء الذين أشرنا في البداية لمجهوداتهم التأليفية ، الا أننا لا يسعنا الا أن نخمن بأنه كانت لديهم مكتبات أو خزائن يحتفظون فيها بمؤلفاتهم وبغيرها من المؤلفات . ومما يزيد الأمر وضوحاً أن بعضهم كان يعتبر ناسخا أيضا . ولذلك كان طبيعيا أن يهتموا بجمع الكتب واستنساخها . وممن اشتهر عنه ولعه بالكتب الفقيه محمد بن سحنون (٢) (ت٢٥٦هـ) وابو العرب التميمي (٣) (ت ٣٣٣هـ) ومحمد بن حارث (٤) الخشني (ت ٣٦٦هـ) والطبيب المشهور (٥) ابن الجزار (ت ٣٦٩هـ) والقاضي عيسى مسكين (٦) ، الذى كان له

---

(١) أنظر احمد مختار عمرو: المرجع السابق ، ص١٢١ (نقلا عن الدباغ في المعالم).

(٢) أنظر محمد بن سحنون : كتاب آداب المعلمين ، مقدمة المحقق ، ص ٢٥ - ٢٨ .

(٣) انظر حسن حسنى عبدالوهاب: بساط العقيق ، ص ٦١-٦٢

(٤) أنظر عياض: المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٣١- ٥٣٢ -
الذهبى : تذكره الحفاظ : ط ٤ ، ص ١٠٠١-١٠٠٢-
ابن الفرض : تاريخ علماء الاندلس، ص. ١١-١١١

(٥) انظر حسن حسنى عبدالوهاب: نفس المرجع السابق اعلاه ، ص١٧-١٨ - ابراهيم العبيدى التوزرى : المرجع السابق ص ١٥٣-١٥٤ .

(٦) راجع ابراهيم العبيدى التوزرى : نفس المرجع السابق اعلاه ، ص ١٥٣ .

بمدينة رقادة مكتبةعامرة بالمصنفات المتنوعة .

ومنهم كذلك محمد بن بسطام (١) ، وحمدون بن مجاهد ، (٢) وأحمد القصرى (٣) ، الذى أضطر ذات مرة الى بيع ثيابه لشراء ورق نسخ كتاب وجده عند أحد شيوخه ، وغيرهم ممن لم نتوفق الى التعرف على حزائنهم الخاصة .

وقبل أن نترك الحديث عن المكتبات ، ينبغى التنويه بالمكتبات التى كانت توجد في الرباطات المتناثرة في أنحاء افريقية . فالرباط كان بجانب دورية الدينى والجهادى، اللذين أشرنا اليهما من قبل كان ثقافيا وبه مدرسة للرجال ومدرسة للنساء ، ومعمل لصنع الورق ودار وراقه لنسخ الكتبوبثها احتسابا لوجه الله تعالى ، ولا سيما المصاحف ومجامع الحديث وكتب الفقه) . (٤)

---

(١) راجع حسن حسنى عبدالوهاب : الورقات، القسم الثانى ، ص ١٤٢- ١٤٣ - ابراهيم العبيدى التوزرى :المرجع السابق ص ١٥٣ .

(٢) ابراهيم العبيدى التوزرى : نفسه، ص ١٥٣

(٣) راجع حسن حسنى عبدالوهاب: البساط ، ص ٦١ - ٦٢ (نقلا عن المالكى في الرياض) .

(٤) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة ، ص ١٧